للأطفال

لتعليم اللغة العربية
والأساليب القرآنية

تأليف
أبي الحسن علي الحسني الندوي

الأكاديمية الإسلامية
ليستر - بريطانيا

قصص النبيين للأطفال

تأليف

أبو الحسن علي الحسني الندوي

مؤسسة الرسالة

ناشرون

للباحث الداعية الأستاذ
سيد قطب

عرفت صاحب هذا الكتيب «السيد أبو الحسن الندوي». عرفته في شخصه وفي قلمه. فعرفت فيه القلب المسلم والعقل المسلم، وعرفت فيه الرجل الذي يعيش بالإسلام وللإسلام على فقه جيد للإسلام.

هذه شهادة لله أؤديها، وأنا أقدم هذه الطبعة من ذلك الكتيب الصغير.

وقصص النبيين للأطفال ـ على صغر حجمه ـ عمل جليل يضاف إلى أعمال السيد أبي الحسن وإخوانه الأفاضل في حقل الدعوة الإسلامية. فليس الكبار وحدهم هم الذين يجب أن يبلغ إليهم الإسلام في صورته النقية، بل إن قلوب الصغار لأحوج إلى هذا الغذاء، ليشبوا وطعم الإيمان في نفوسهم، ونوره في

قلوبهم، وبشاشته في أرواحهم، والقصص هي المادة الأولى التي تتفتح لها تلك القلوب الصغيرة البريئة.

وهذا الكتيب ـ وإن كان مكتوباً للصغار ـ إلا أنني أعتقد أن الكثيرين من الكبار في حاجة إلى أن يقرأوه. فالكثيرون لم يتح لهم تعليمهم الذي سيطر عليه الاستعمار وهيمن عليه التبشير، أن يعرفوا شيئاً عن قصص القرآن الكريم، ومراميه العميقة، وجوّه الإيماني التهذيبي المؤثر، كما هو معروض في هذا الكتيب.

ولقد قرأت الكثير من كتب الأطفال ـ بما في ذلك قصص الأنبياء عليهم الصلوات والسلام ـ وشاركت في تأليف مجموعة «القصص الديني للأطفال» في مصر مأخوذاً كذلك من القرآن الكريم. ولكني أشهد في غير مجاملة ـ أن عمل السيد أبي الحسن في هذه القصة التي بين يدي، جاء أكمل من هذا كله. وذلك بما احتوى من توجيهات رقيقة وإيضاحات كاشفة لمرامي القصة وحوادثها ومواقفها، ومن تعليقات داخلة في ثنايا القصة،

ولكنها توحي بحقائق إيمانية ذات خطر، حين تستقر في قلوب الصغار أو الكبار.

جزى الله السيد أبا الحسن خيراً، وزاده توفيقاً، وهدى به الأجيال الناشئة التي تحيط بها العواصف والأعاصير، وتنتشر في طريقها الأشواك، وتدلهم من حولها الظلمات، وتحتاج إلى الهدى والنور والرعاية، والإخلاص في حياطتها ورعايتها. وعلى الله التوفيق.

المُقَـــدِّمة

ابْنَ[1] أَخِي الْعَزِيزُ!

أَراكَ حَرِيصاً عَلَى القِصَصِ والْحِكاياتِ. وَكَذٰلِكَ كُلُّ طِفْلٍ في سِنِّكَ. تَسْمَعُ هَذِهِ القِصَصَ بِكُلِّ رَغْبَةٍ، وَتَقْرَأُها بِكُلِّ رَغْبَةٍ، وَلَكِنِّي أَتَأَسَّفُ لأَنِّي لا أَرَى فِي يَدِكَ إِلّا حِكَاياتِ السَّنانِيرِ وَالْكِلابِ والأُسْدِ والذِّئابِ والقِرَدَةِ والدِّبابِ، وعَلَيْنَا العُهْدَةُ في ذَلِكَ، فَذَلِكَ هُوَ الَّذِي تَجِدُهُ مَطْبوعاً.

وقد بدأتَ تتعلم اللغة العربية لأنها لغة القرآن والرسول ولغة الدين، ولك رغبة غريبة في درسها، ولكنِّي أخجل أنك لا تجد ما يوافق سِنّك من القصص

(١) محمد بن الدكتور عبد العلي الحسني ابن أخ المؤلف، وقد نبغ بحمد الله في العربية، ورئيس تحرير مجلة «البعث الإسلامي» الصادرة في لكنُو الهند.

العربية، إلا قصص الحيوانات، والأساطير والخرافات.

فَرَأَيْتُ أَنْ أَكْتُبَ لَكَ وَلأَمْثَالِكَ أَبْنَاءِ الْمُسْلِمينَ قِصَصَ الأَنْبِياءِ وَالْمُرْسَلينَ (عَلَيْهِمُ صَلاةُ اللَّهِ وَسَلامُهُ) بِأُسْلوبٍ سَهْلٍ يُوافِقُ سِنَّكَ وَذَوْقَكَ، فَفَعَلْتُ، وَهَذا هُوَ الْكِتابُ الأَوَّلُ مِنْ «قَصَصِ النَّبِيِّينَ لِلأَطْفَالِ» أُهْدِيهِ إِلَيْكَ.

وَقَدْ حَاكَيْتُ فِيهِ أُسْلوبَ الأَطْفالِ وَطَبيعَتَهُمْ، فَلَجَأْتُ إِلَى تَكْرارِ الْكَلِماتِ وَالْجُمَلِ وَسُهُولَةِ الأَلْفَاظِ وَبَسْطِ الْقِصَّةِ.

وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ هَذا الْكِتَابُ الصَّغِيرُ أَوَّلَ كِتَابٍ يَقْرَأُهُ الأَطْفَالُ في اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَيَدْرسُونَهُ في مَدارِسِهِمْ.

وَسَأُتْحِفُكَ إِنْ شاءَ اللَّهُ بِقَصَصٍ لِلأَنْبِياءِ، مُمْتِعَةٍ شَائِقَةٍ، واضِحَةٍ سَهْلَةٍ، خَفيفَةٍ جَميلَةٍ، ثُمَّ لا يَكُونُ فيها شَيْءٌ مِنَ الْكَذِبِ.

أَقَرَّ اللَّهُ بِكَ يا مُحَمَّدُ عَيْنَ أَبَوَيْكِ وَعَمِّكَ وَعَيْنَ الإِسْلامِ، وَأَعادَ بِكَ بَرَكاتِ آبائِكَ عَلَى هَذا الْبَيْتِ وَعَلَى الْمُسْلِمينَ . . .

عَلِيٌّ الحَسَنِيُّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مَنْ كَسَرَ الأَصْنَامَ؟

١ ـ بَائِعُ الأَصْنَامِ

قَبْلَ أَيَّامٍ كَثِيرَةٍ. كَثِيرَةٍ جِدًّا.

كَانَ فِي قَرْيَةٍ رَجُلٌ مَشْهُورٌ جِدًّا.

وَكَانَ اسْمُ هَذَا الرَّجُلِ آزَرَ.

وَكَانَ آزَرُ يَبِيعُ الأَصْنَامَ.

وَكَانَ فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ بَيْتٌ كَبِيرٌ جِدًّا.

وَكَانَ فِي هَذَا الْبَيْتِ أَصْنَامٌ، أَصْنَامٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا.

وَكَانَ النَّاسُ يَسْجُدُونَ لِهَذِهِ الأَصْنَامِ.

وَكَانَ آزَرُ يَسْجُدُ لِهَذِهِ الأَصْنَامِ.

وَكَانَ آزَرُ يَعْبُدُ هَذِهِ الأَصْنَامَ.

٢ ـ وَلَدُ آزَرَ

وَكَانَ آزَرُ لَهُ وَلَدٌ رَشِيدٌ، رَشِيدٌ جِدًّا.

وَكَانَ اسْمُ هَذَا الْوَلَدِ إِبْرَاهِيمَ.

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ يَرَى النَّاسَ يَسْجُدُونَ لِلأَصْنَامِ.

وَيَرَى النَّاسَ يَعْبُدُونَ الأَصْنَامَ.

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ يَعْرِفُ أَنَّ الأَصْنَامَ حِجَارَةٌ.

وَكَانَ يَعْرِفُ أَنَّ الأَصْنَامَ لا تَتَكَلَّمُ وَلَا تَسْمَعُ.

وَكَانَ يَعْرِفُ أَنَّ الأَصْنَامَ لا تَضُرُّ وَلا تَنْفَعُ.

وَكَانَ يَرَى أَنَّ الذُّبَابَ يَجْلِسُ عَلَى الأَصْنَامِ فَلا تَدْفَعُ.

وَكَانَ يَرَى الْفَأْرَ يَأْكُلُ طَعَامَ الأَصْنَامِ فَلا تَمْنَعُ.

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ: لِمَاذَا يَسْجُدُ النَّاسُ لِلأَصْنَامِ؟!!

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ يَسْأَلُ نَفْسَهُ: لِمَاذَا يَسْأَلُ النَّاسُ الأَصْنَامَ؟!!

٣ ـ نَصِيحَةُ إِبْرَاهِيمَ

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ يَقُولُ لِوَالِدِهِ:

يَا أَبِي، لِمَاذَا تَعْبُدُ هَذِهِ الأَصْنَامَ؟!!

وَيَا أَبِي لِمَاذَا تَسْجُدُ لِهَذِهِ الأَصْنَامِ؟!!

وَيَا أَبِي لِمَاذا تَسْأَلُ هَذِهِ الأَصْنَامِ؟!!

إِنَّ هَذِهِ الأَصْنَامَ لا تَتَكَلَّمُ وَلَا تَسْمَعُ!

وَإِنَّ هَذِهِ الأَصْنَامَ لا تَضُرُّ وَلا تَنْفَعُ!

وَلأَيِّ شَيْءٍ تَضَعُ لَهَا الطَّعَامَ والشَّرَابَ؟!!

وَإِنَّ هَذِهِ الأَصْنَامَ يَا أَبِي لا تَأْكُلُ وَلا تَشْرَبُ!

وَكَانَ آزَرُ يَغْضَبُ وَلا يَفْهَمُ.

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ يَنْصَحُ لِقَوْمِهِ، وَكَانَ النَّاسُ يَغْضَبُونَ وَلا يَفْهَمُونَ.

قالَ إِبْرَاهِيمُ أَنَا أَكْسِرُ الأَصْنَامَ إِذَا ذَهَبَ النَّاسُ، وَحِينَئِذٍ يَفْهَمُ النَّاسُ.

٤ ـ إِبْرَاهِيمُ يَكْسِرُ الأَصْنَامَ

وَجَاءَ يَوْمُ عِيْدٍ فَفَرِحَ النَّاسُ.

وَخَرَجَ النَّاسُ لِلْعِيْدِ وَخَرَجَ الأَطْفَالُ.

وَخَرَجَ وَالِدُ إِبْرَاهِيمَ وَقَالَ لِإِبْرَاهِيمَ: أَلا تَخْرُجُ مَعَنَا؟

قَالَ إِبْرَاهِيمُ: أَنَا سَقِيمٌ!

وَذَهَبَ النَّاسُ وَبَقِيَ إِبْرَاهِيمُ فِي البَيْتِ.

وَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ إِلى الأَصْنَامِ، وَقَالَ لِلأَصْنَامِ: أَلا تَتَكَلَّمُونَ؟ أَلا تَسْمَعُونَ؟

هَذَا طَعَامٌ وَشَرَابٌ، أَلا تَأْكُلُونَ؟ أَلا تَشْرَبُونَ؟

وَسَكَتَتِ الأَصْنَامُ لأَنَّهَا حِجَارَةٌ لا تَنْطِقُ.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

وَسَكَتَتِ الأَصْنَامُ وَمَا نَطَقَتْ.

حِينَئِذٍ غَضِبَ إِبْرَاهِيمُ وَأَخَذَ الْفَأْسَ.

وَضَرَبَ إِبْرَاهِيمُ الأَصْنَامَ بِالْفَأْسِ وَكَسَرَ الأَصْنَامَ.

وَتَرَكَ إِبْرَاهِيمُ الصَّنَمَ الأَكْبَرَ وَعَلَّقَ الْفَأْسَ فِي عُنُقِهِ.

٥ ـ مَنْ فَعَلَ هَذا؟

وَرَجَعَ النَّاسُ وَدَخَلُوا فِي بَيْتِ الأَصْنَام.

وَأَرَادَ النَّاسُ أَنْ يَسْجُدُوا لِلأَصْنَامِ لأَنَّهُ يَوْمُ عِيدٍ.

وَلَكِنْ تَعَجَّبَ النَّاسُ وَدَهِشُوا.

وَتَأَسَّفَ النَّاسُ وَغَضِبُوا.

قَالُوا: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾؟

﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

وَكَانَ النَّاسُ يَعْرِفُونَ أَنَّ الأَصْنَامَ حِجَارَةٌ.

وَكَانُوا يَعْرِفُون أَنَّ الْحِجَارَةَ لا تَسْمَعُ ولا تَنْطِقُ.

وَكَانُوا يَعْرِفُونَ أَنَّ الصَّنَمَ الأَكْبَرَ أَيْضاً حَجَرٌ.

وأَنَّ الصَّنَمَ الأَكْبَرَ لا يَقْدِرَ أَنْ يَمْشِيَ وَيَتَحَرَّكَ.

وَأَنَّ الصَّنَمَ الأَكْبَرَ لا يَقْدِرُ أَنْ يَكْسِرَ الأَصْنَامَ.

فَقَالُوا لإِبْرَاهِيمَ: أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الأَصْنَامَ لا تَنْطِقُ.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ: فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ الأَصْنَامَ وَإِنَّها لا تَضُرُّ وَلا تَنْفَعُ؟!!

وَكَيْفَ تَسْأَلُونَ الأَصْنَامَ وَإِنَّها لا تَنْطِقُ وَلا تَسْمَعُ؟ أَلا تَفْهَمُونَ شَيْئاً، أَفَلا تَعْقِلُونَ؟.

وَسَكَتَ النَّاسُ وَخَجِلُوا!.

٦ ـ نَارٌ بارِدَةٌ

اجْتَمَعَ النَّاسُ وَقَالُوا: مَاذا نَفْعَلُ؟

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَسَرَ الأَصْنَامَ وَأَهَانَ الآلِهَةَ!

وَسَأَلَ النَّاسُ: مَا عِقَابُ إِبْرَاهِيمَ؟ مَا جَزَاءُ إِبْرَاهِيمَ؟

كَانَ الْجَوَابُ: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾.

وَهَكَذَا كَانَ: أَوْقَدُوا نَاراً وَأَلْقَوْا فِيهَا إِبْرَاهِيمَ. وَلَكِنَّ اللَّهَ نَصَرَ إِبْرَاهِيمَ وَقَالَ لِلنَّارِ:

﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾.

وَهَكَذَا كَانَ، كانَتِ النَّارُ بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَرَأَىٰ النَّاسُ أَنَّ النَّارَ لا تَضُرُّ إِبْرَاهِيمَ.

وَرَأَى النَّاسُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ مَسْرُورٌ، وَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ سَالِمٌ وَدَهِشَ النَّاسُ وَتَحَيَّرُوا.

٧ ـ مَنْ رَبِّي؟

وَذَاتَ لَيْلَةٍ رَأَى إِبْرَاهِيمُ كَوْكَباً، فَقَالَ: هَذَا رَبِّي. وَلَمَّا غَابَ الْكَوْكَبُ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ: لا! هَذَا لَيْسَ بِرَبِّي!

وَرَأَى إِبْرَاهِيمُ الْقَمَرَ فَقَالَ: هَذَا رَبِّي.

وَلَمَّا غَابَ الْقَمَرُ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ: لا! هَذَا لَيْسَ بِرَبِّي! وَطَلَعَتِ الشَّمْسُ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: «هَذَا رَبِّي هَذا أَكْبَرُ».

وَلَمَّا غَابَتِ الشَّمْسُ فِي اللَّيْلِ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: لا!

هَذا لَيْسَ بِرَبِّي.

إِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لا يَمُوتُ.

إِنَّ اللَّهَ بَاقٍ لا يَغِيبُ.

إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ لا يَغْلِبُهُ شَيْءٌ.

وَالْكَوْكَبُ ضَعِيفٌ يَغْلِبُهُ الصُّبْحُ.

وَالْقَمَرُ ضَعِيفٌ تَغْلِبُهُ الشَّمْسُ.

وَالشَّمْسُ ضَعِيفَةٌ يَغْلِبُهَا اللَّيْلُ وَيَغْلِبُهَا الْغَيْمُ.
وَلَا يَنْصُرُنِي الْكَوْكَبُ لأَنَّهُ ضَعِيفٌ.
وَلا يَنْصُرُنِي الْقَمَرُ لأَنَّهُ ضَعِيفٌ.
وَلا تَنْصُرُني الشَّمْسُ لأَنَّها ضَعِيفَةٌ.
وَيَنْصُرُنِي اللَّهُ.
لأَنَّ اللَّهَ حَيٌّ لا يَمُوتُ.
وَبَاقٍ لا يَغِيبُ.
وَقَوِيٌّ لا يَغْلِبُهُ شَيْءٌ.

٨ - رَبِّيَ اللَّهُ

وَعَرَفَ إِبْرَاهِيمُ أَنَّ اللَّهَ رَبُّهُ.
لأَنَّ اللَّهَ حَيٌّ لا يَمُوتُ.
وَأَنَّ اللَّهَ باقٍ لا يَغِيبُ.
وَأَنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ لا يَغْلِبُهُ شَيْءٌ.
وَعَرَفَ إِبْرَاهِيمُ أَنَّ اللَّهَ رَبُّ الْكَوْكَبِ!
وَأَنَّ اللَّهَ رَبُّ الْقَمَرِ!

وَأَنَّ اللَّهَ رَبُّ الشَّمْسِ!
وَأَنَّ اللَّهَ رَبُّ الْعَالَمِينَ!
وَهَدَى اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ وَجَعَلَهُ نَبِيًّا وخَلِيلاً.
وَأَمَرَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ، أَن يَدْعُوَ قَوْمَهُ وَيَمْنَعَهُمْ مِنْ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ.

٩ ـ دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ

وَدَعَا إِبْرَاهِيمُ قَوْمَهُ إِلى اللَّهِ وَمَنَعَهُمْ مِنْ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِقَوْمِهِ: مَا تَعْبُدُونَ؟
﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾.
قَالَ إِبْرَاهِيمُ:
﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾.
﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾.
﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.
قَالَ إِبْرَاهِيمُ: فَأَنَا لا أَعْبُدُ هَذِهِ الأَصْنَامَ.
بَلْ أَنَا عَدُوٌّ لِهَذِهِ الأَصْنَامِ.

أَنَا أَعْبُدُ رَبَّ الْعَالَمِينَ.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾.

وَإِنَّ الأَصْنَامَ لا تَخْلُقُ وَلا تَهْدِي.

وَإِنَّهَا لا تُطْعِمُ أَحَداً وَلا تَسْقِي.

وَإِذَا مَرِضَ أَحَدٌ فَهِيَ لا تَشْفِي.

وَإِنَّهَا لا تُمِيتُ أَحَداً وَلا تُحْيِي.

١٠ ـ أَمَامَ الْمَلِكِ

كَانَ فِي الْمَدِينَةِ مَلِكٌ كَبِيرٌ جِدًّا، وَظَالِمٌ جِدًّا.

وَكَانَ النَّاسُ يَسْجُدُونَ لِلْمَلِكِ.

وَسَمِعَ الْمَلِكُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ يَسْجُدُ لِلَّهِ وَلا يَسْجُدُ لأَحَدٍ فَغَضِبَ الْمَلِكُ وَطَلَبَ إِبْرَاهِيمَ.

وَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ، وكَانَ إِبْرَاهِيمُ لا يَخَافُ أَحداً، إِلا اللَّهَ.

قَالَ الملِكُ: مَنْ رَبُّكَ يا إِبْرَاهِيمُ؟

قَالَ إِبْرَاهِيمُ: رَبِّيَ اللَّهُ!

قَالَ المَلِكُ: مَنِ اللَّهُ يا إِبْرَاهِيمُ؟

قالَ إِبْرَاهِيمُ: ﴿ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

قَالَ المَلِكُ: ﴿أَنَا أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾.

وَدَعَا الملكُ رَجُلاً وَقَتَلَهُ.

وَدَعا رَجُلاً آخَرَ وَتَرَكَهُ.

وَقَالَ: أَنا أُحْيِي وأُمِيتُ، قَتَلْتُ رَجُلاً وَتَرَكْتُ رَجُلاً. وَكَانَ المِلِكُ بَلِيداً جِدًّا، وَكَذَلِكَ كُلُّ مُشْرِكٍ.

وأَرَادَ إِبْرَاهِيمُ أَنْ يَفْهَمَ المِلِكُ، وَيَفْهَمَ قَوْمُهُ: فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِلْمَلِك: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾.

فَتَحَيَّرَ الْمَلِكُ وَسَكَتَ.

وَخَجِلَ الْمَلِكُ، وَمَا وَجَدَ جَواباً.

١١ ـ دَعْوَةُ الْوالِدِ

وَأَرادَ إِبْراهِيمُ أَنْ يَدْعُوَ والِدَهُ أَيْضاً، فَقَالَ لَهُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ﴾.

وَلِمَ تَعْبُدُ ما لا يَنْفَعُ وَلا يَضُرُّ؟!!

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾!

يا أَبَتِ اعْبُدِ الرَّحْمَنَ!

وَغَضِبَ وَالِدُ إِبْرَاهِيمَ، وَقَالَ: أَنا أَضْرِبُكَ، فَاتْرُكْني وَلا تَقُلْ شَيْئاً.

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ حَلِيماً، فَقَالَ لِوالِدِهِ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾.

وَقَالَ لَهُ: أَنَا أَذْهَبُ مِنْ هُنَا وَأَدْعُو رَبِّي.

وَتَأَسَّفَ إِبْرَاهِيمُ جِدًّا، وَأَرادَ أَنْ يَذْهَبَ إِلى بَلَدٍ آخَرَ، وَيَعْبُدَ رَبَّهُ، وَيَدْعُوَ النَّاسَ إِلى اللَّهِ.

١٢ ـ إِلَى مَكَّةَ

وَغَضِبَ قَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَغَضِبَ المَلِكُ وَغَضِبَ وَالِدُ إِبْرَاهِيمَ.

وَأَرَادَ إِبْرَاهِيمُ أَنْ يُسَافِرَ إِلى بَلَدٍ آخَرَ ويَعْبُدَ فِيهِ اللَّهَ وَيَدْعُوَ النَّاسَ إِلَى اللَّهِ.

وَخَرَجَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ بَلَدِهِ وَوَدَّعَ وَالِدَهُ.

وَقَصَدَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ وَمَعَهُ زَوْجُهُ هَاجَرُ.

وَكَانَتْ مَكَّةُ لَيْسَ فِيهَا عُشْبٌ وَلا شَجَرٌ.

وَكَانَتْ مَكَّةُ لَيْسَ فيها بِئْرٌ وَلا نَهْرٌ.

وَكَانَتْ مَكَّةُ لَيْسَ فِيهَا حَيَوَانٌ وَلا بَشَرٌ.

وَوَصَلَ إِبْرَاهِيمُ إِلى مَكَّةَ وَنَزَلَ فِيهَا.

وَتَرَكَ إِبْرَاهِيمُ زَوْجَهُ هَاجَرَ وَوَلَدَهُ إِسْمَاعِيلَ، وَلَمَّا أَرَادَ إِبْرَاهِيمُ أَنْ يَذْهَبَ قَالَتْ زَوْجُهُ هَاجَرُ إِلى أَيْنَ يَا سَيِّدِي؟ أَتَتْرُكُنِي هُنَا؟

أَتَتْرُكُنِي وَلَيْسَ هُنَا مَاءٌ وَلا طَعَامٌ!

هَلْ أَمَرَكَ اللَّهُ بِهَذَا؟

قَالَ إِبْرَاهِيمُ: نَعَمْ!

قَالَتْ: هَاجَرُ: إِذاً لا يُضَيِّعُنَا!

١٣ - بِئْرُ زَمْزَمَ

وَعَطِشَ إِسْمَاعِيلُ مَرَّةً، وَأَرَادَتْ أُمُّهُ أَنْ تَسْقِيَهُ مَاءً وَلَكِنْ أَيْنَ المَاءُ؟ وَمَكَّةُ لَيْسَ فِيهَا بِئْرٌ، وَمَكَّةُ لَيْسَ فِيهَا نَهَرٌ! وَكَانَتْ هَاجَرُ تَطْلُبُ المَاءَ وَتَجْرِي مِنَ الصَّفَا إِلى المَرْوَةِ ومِنَ المَرْوَةِ إِلَى الصَّفَا.

وَنَصَرَ اللَّهُ هَاجَرَ، ونَصَرَ إِسْماعِيلَ، فَخَلَقَ لَهُمَا مَاءً وَخَرَجَ الْماءُ مِنَ الأَرْضِ وَشَرِبَ إِسْمَاعِيلُ وشَرِبَتْ هَاجَرُ وَبَقِيَ الماءُ فَكَانَ بِئْرَ زَمْزَمَ، فَبَارَكَ اللَّهُ في زَمْزَمَ وَهَذِهِ هِيَ البِئْرُ الَّتي يَشْرَبُ مِنْهَا النَّاسُ في الحَجِّ وَيَأْتُونَ بِمَاءِ زَمْزَمَ إِلى بَلَدِهِمْ.

هَلْ شَرِبْتَ مَاءَ زَمْزَمَ؟

١٤ - رُؤْيا إِبْرَاهِيمُ

وَعَادَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى مَكَّةَ بَعْدَ مُدَّةٍ.

وَلَقِيَ إِسْمَاعِيلَ وَلَقِيَ هَاجَرَ، وَفَرِحَ إِبْرَاهِيمُ بِوَلَدِهِ

إِسْمَاعِيلَ. وَكَانَ إِسْماعِيلُ وَلَداً صَغِيراً، يَجْرِي وَيَلْعَبُ وَيَخْرُجُ مَعَ وَالِدِهِ.

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ يُحِبُّ إِسْمَاعِيلَ جِدًّا.

وَذَاتَ لَيْلَةٍ رَأَى إِبْرَاهِيمُ فِي الْمَنَامِ أَنَّهُ يَذْبَحُ إِسْمَاعِيلَ. وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ نَبِياً صَادِقاً، وَكَانَ مَنَامُهُ مَنَاماً صَادِقاً. وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ خَلِيلَ اللَّهِ، فَأَرَادَ أَنْ يَفْعَلَ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ فِي الْمَنَامِ.

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لإِسْمَاعِيلَ:

﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾.

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

وَأَخَذَ إِبْرَاهِيمُ إِسْمَاعِيلَ مَعَهُ وأَخَذَ سِكِّيناً.

وَلَمَّا بَلَغَ إِبْرَاهِيمُ مِنًى، أَرادَ أَنْ يَذْبَحَ إِسْماعِيلَ. واضْطَجَعَ إِسْمَاعِيلُ عَلَى الأَرْضِ. وَأَرَادَ إِبْرَاهِيمُ أَنْ يَذْبَحَهُ فَوَضَعَ السِّكِّينَ عَلَى حُلْقُومِ إِسْمَاعِيلَ. وَلَكِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى هَلْ يَفْعَلُ خَلِيلُهُ مَا يَأْمُرُهُ وَهَلْ يُحِبُّ اللَّهَ

أَكْثَرَ أَوْ يُحِبُّ ابْنَهُ أَكْثَرَ. وَنَجَحَ إِبْرَاهِيمُ فِي الامْتِحَانِ.

فَأَرْسَلَ اللَّهُ جِبْرِيلَ بِكَبْشٍ مِنَ الْجَنَّةِ وَقَالَ اذْبَحْ هَذَا ولا تَذْبَحْ إِسْمَاعِيلَ.

وَأَحَبَّ اللَّهُ عَمَلَ إِبْرَاهِيمَ، فَأَمَرَ الْمُسْلِمِينَ بِالذَّبْحِ فِي عِيدِ الأَضْحَى.

صَلَّى اللَّهُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ وَسَلَّمَ.

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى ابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ وَسَلَّمَ.

١٥ ـ الْكَعْبَةُ

وَذَهَبَ إِبْرَاهِيمُ وَعَادَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَأَرَادَ أَنْ يَبْنِيَ بَيْتاً لِلَّهِ. وَكَانَتِ الْبُيُوتُ كَثِيرَةً وَمَا كَانَ بَيْتٌ لِلَّهِ يَعْبُدُونَ فِيهِ اللَّهَ.

وَأَرَادَ إِسْماعِيلُ أَنْ يَبْنِيَ بَيْتاً لِلَّهِ مَعَ وَالِدِهِ.

وَنَقَلَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ الْحِجَارَةَ مِنَ الْجِبَالِ.

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ يَبْنِي الْكَعْبَةَ بِيَدِهِ وَكَانَ إِسْمَاعِيلُ يَبْنِي الْكَعْبَةَ بِيَدِهِ.

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ يَذْكُرُ اللَّهَ وَيَدْعُو.

وَكَانَ إِسْمَاعِيلُ يَذْكُرُ اللَّهَ وَيَدْعو.

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وَتقَبَّلَ اللَّهُ مِنْ إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ وَبَارَكَ في الْكَعْبَةِ. نَحْنُ نَتَوَجَّهُ إِلَى الْكَعْبَةِ فِي كُلِّ صَلاةٍ.

ويُسَافِرُ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْكَعْبَةِ في أَيَّامِ الْحَجِّ. ويَطُوفُونَ بِالْكَعْبَةِ وَيُصَلُّونَ عِنْدَهَا.

بَارَكَ اللَّهُ فِي الْكَعْبَةِ وَتَقَبَّلَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ.

صَلَّى اللَّهُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَسَلَّمَ.

صَلَّى اللَّهُ عَلَى إِسْمَاعِيلَ وَسَلَّمَ.

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ.

١٦ ـ بَيْتُ الْمَقْدِسِ

وَكَانَ لإِبْرَاهِيمَ زَوْجٌ أُخْرَى، اسْمُهَا سَارَةُ. وَكَانَ لإِبْرَاهِيمَ وَلَدٌ آخَرُ مِنْ سَارَةَ اسْمُهُ إِسْحَاقُ. وَسَكَنَ إِبْرَاهِيمُ فِي الشَّامِ، وسَكَنَ إِسْحَاقُ. وَبَنَى إِسْحَاقُ بَيْتاً لِلَّهِ

فِي الشَّامِ، كَمَا بَنَى أَبُوهُ وأَخُوهُ بَيْتاً لِلَّهِ فِي مَكَّةَ.

وَهَذَا الْمَسْجِدُ الَّذِي بَنَاهُ إِسْحَاقُ فِي الشَّامِ هُوَ بَيْتُ المَقْدِسِ.

وَهُوَ الْمَسْجِدُ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكَ اللَّهُ حَوْلَهُ وَبَارَكَ اللَّهُ فِي أَوْلادِ إِسْحَاقَ كَمَا بَارَكَ في أَوْلادِ إِسْماعِيلَ، وَكَانَ فِيهِمْ أَنْبِيَاءُ ومُلُوكٌ.

وَكَانَ لإِسْحَاقَ وَلَدٌ اسْمُهُ يَعْقُوبُ وَكَانَ نَبِيًّا.

وَكَانَ يَعْقُوبُ لَهُ اثْنَا عَشَرَ وَلَداً، مِنْهُمْ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ.

وَيُوسُفُ لَهُ قِصَّةٌ عَجِيبَةٌ فِي الْقُرْآنِ.

وَإِلَيْكَ هِذِهِ الْقِصَّةَ!.

أَحْسَنُ الْقَصَصِ

١ ـ رُؤْيا عَجِيبَةٌ

كَانَ يُوسُفُ وَلَداً صَغِيراً، وَكَانَ لَهُ أَحَدَ عَشَرَ أَخاً. وَكَانَ يُوسُفُ غُلاماً جَمِيلاً، وَكَانَ يُوسُفُ غُلاماً ذَكِيًّا، وَكَانَ أَبُوهُ يَعْقُوبُ يُحِبُّهُ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ إِخْوَتِهِ.

ذَاتَ لَيْلَةٍ رَأَى يُوسُفُ رُؤْيَا عَجِيبَةً.

رَأَى أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَرَأَى الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَسْجُدُ لَهُ.

تَعَجَّبَ يُوسُفُ الصَّغِيرُ كَثِيراً! وَمَا فَهِمَ هَذِهِ الرُّؤْيَا كَيْفَ تَسْجُدُ الْكَوَاكِبُ والشَّمْسُ والقَمَرُ لِرَجُلٍ؟ ذَهَبَ يُوسُفُ الصَّغِيرُ إِلى أَبِيهِ يَعْقُوبَ وَحَكَى لَهُ هَذِهِ الرُّؤْيَا الْعَجِيبَةَ.

قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾.

وَكَانَ أَبُوهُ يَعْقُوبُ نَبِيًّا.

فَرِحَ يَعْقُوبُ بِهذِهِ الرُّؤْيَا كَثِيراً.

وَقَالَ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ يَا يُوسُفُ، فَسَيَكُونُ لَكَ شَأْنٌ.

هَذِهِ الرُّؤْيَا بِشَارَةٌ بِعِلْمٍ وَنُبُوَّةٍ.

وَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى جَدِّكَ إِسْحَاقَ وَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى جَدِّكَ إِبْرَاهِيمَ.

وَإِنَّهُ يُنْعِمُ عَلَيْكَ وَيُنْعِمُ عَلَى آلِ يَعْقُوبَ.

وَكَانَ يَعْقُوبُ شَيْخاً كَبِيراً، وَكَانَ يَعْرِفُ طَبائِعَ النَّاسِ. وَكَانَ يَعْرِفُ كَيْفَ يَغْلِبُ الشَّيْطَانُ، وَكَيْفَ يَلْعَبُ الشَّيْطَانُ بِالإِنْسَانِ.

فَقَالَ يَا وَلَدِي، لا تُخْبِرْ بِهَذِهِ الرُّؤْيَا أَحَداً مِنْ إِخْوَتِكَ فَإِنَّهُمْ يَحْسُدُونَكَ وَيَكُونُونَ لَكَ عَدُوًّا.

٢ ـ حَسَدُ الإِخْوَةِ

وَكَانَ يُوسُفُ لَهُ أَخٌ آخَرُ مِنْ أُمِّهِ اسْمُهُ بِنْيَامِينُ. وَكَانَ يَعْقُوبُ يُحِبُّهُمَا حُبًّا شَدِيداً، وَكَانَ لا يُحِبُّ مِثْلَهُمَا أَحَداً.

وَكَانَ الإِخْوَةُ يَحْسُدُونَ يُوسُفَ وَبِنْيَامِينَ وَيَغْضَبُونَ، كَانُوا يَقُولونَ: لِمَاذَا يُحِبُّ أَبُونَا يوسُفَ وَبِنْيَامِينَ أَكْثَرَ؟.

وَلِمَاذَا يُحِبُّ أَبُونَا يُوسُفَ وَبِنْيَامِينَ وَهُمَا صَغِيرَانِ ضَعِيفَانِ؟.

لِمَاذا لا يُحِبُّنَا مِثْلَ يُوسُفَ وَبِنْيَامِينَ نَحْنُ شُبَّانٌ أَقْوِياءُ، هَذَا أَمْرٌ عَجِيبٌ.

وَكَانَ يُوسُفُ وَلَداً صَغِيراً، فَحَكَى الرُّؤْيَا لإِخْوَتِهِ وَغَضِبَ الإِخْوَةُ جِدًّا لَمَّا سَمِعُوا الرُّؤْيَا وَاشْتَدَّ حَسَدُهُمْ.

وَاجْتَمَعَ الإِخْوَةُ يَوْماً وَقَالُوا: اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً بَعِيدَةً.

حِينَئِذٍ يَكُونُ أَبُوكُمْ لَكُمْ خَالِصاً، وَيَكُونُ حُبُّهُ لَكُمْ خَالِصاً.

قَالَ أَحَدُهُمْ: لا بَلْ أَلْقُوهُ فِي بِئْرٍ فِي طَرِيقٍ يَأْخُذْهُ بَعْضُ الْمُسَافِرِينَ.

وَوَافَقَ عَلَيْهِ جَمِيعُ الإِخْوَةِ.

٣ - وَفْدٌ إِلَى يَعْقُوبَ

وَلَمَّا اتَّفَقُوا عَلَى هَذا الرَّأْيِ جاؤُوا إِلَى يَعْقُوبَ. وَكَانَ يَعْقُوبُ يَخَافُ عَلَى يُوسُفَ كَثِيراً، وَكَانَ يَعْرِفُ أَنَّ الإِخْوَةَ يَحْسُدُونَهُ وَلا يُحِبُّونَهُ.

وَكَانَ يَعْقُوبُ لا يُرْسِلُ يُوسُفَ مَعَ الإِخْوَةِ. وَكَانَ يُوسُفُ يَلْعَبُ مَعَ أَخِيهِ وَلا يَذْهَبُ بَعِيداً.

وَكَانَ الإِخْوَةُ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُمْ عَزَمُوا عَلَى الشَّرِّ.

قَالُوا يَا أَبَانَا لِمَاذا لا تُرْسِلُ مَعَنَا يُوسُفَ؟ مَاذَا تَخَافُ؟.

هُوَ أَخُونَا الْعَزِيزُ، وَأَخُونَا الصَّغِيرُ، وَنَحْنُ أَبْنَاءُ أَبٍ. والإِخْوَةُ دَائِماً يَلْعَبُونَ جَمِيعاً، فَلِمَاذَا لا نَذْهَبُ نَحْنُ وَنَلْعَبُ جَمِيعاً؟

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾. وَكَانَ يَعْقُوبُ شَيْخاً كَبِيراً، وَكَانَ يَعْقُوبُ عَاقِلاً حَلِيماً. وَكَانَ يَعْقُوبُ لَا يُحِبُّ أَنْ يَبْعُدَ مِنْهُ يُوسُفُ. وَكَانَ يَخَافُ عَلَى يُوسُفَ كَثِيراً.

فقالَ لأَبنَائِهِ:

﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾.

قَالُوا: أَبداً! كَيْفَ يَأْكُلُهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ حَاضِرُونَ؟ وَكَيْفَ يَأْكُلُهُ، ونَحْنُ شُبَّانٌ أَقوِيَاءُ؟

وَأَذِنَ يَعْقُوبُ لِيُوسُفَ.

٤ ـ إِلَى الْغَابَةِ

وَفَرِحَ الإِخْوَةُ كَثِيراً لَمَّا أَذِنَ يَعْقُوبُ لِيُوسُفَ.

وَذَهَبُوا إِلَى غَابَةٍ وَأَلْقَوْا يُوسُفَ فِي بِئْرٍ فِي الْغَابَةِ وَلَمْ يَرْحَمُوا يُوسُفَ الصَّغِيرَ، وَلَمْ يَرْحَمُوا يَعْقُوبَ الشَّيْخَ الْكَبِيرَ.

وَكَانَ يُوسُفُ وَلَداً صَغِيراً، وَكَانَ قَلْبُهُ صَغِيراً. وَكَانَتِ البِئْرُ عَمِيقَةً، وَكَانَتِ البِئْرُ مُظْلِمَةً. وَكَانَ يُوسُفُ وَحِيداً.

وَلَكِنَّ اللَّهَ بَشَّرَ يُوسُفَ وَقَالَ لَهُ: لا تَحْزَنْ وَلا تَخَفْ إِنَّ اللَّهَ مَعَكَ، وَسَيَكُونُ لَكَ شَأْنٌ.

سَيَحْضُرُ إِلَيْكَ الإِخْوَةُ وَتُخْبِرُهُمْ بِمَا فَعَلُوهُ. وَلَمَّا فَرَغُوا مِنْ شَأْنِهِمْ وَأَلْقَوْا يُوسُفَ فِي الْبِئْرِ اجْتَمَعُوا وَقَالُوا: مَاذَا نَقُولُ لأَبِينَا؟

قَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ أَبُونا يَقُولُ أَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ فَنَقُولُ لَهُ صَدَقْتَ يَا أَبَانَا قَدْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ، وَافَقَ الإِخْوَةُ عَلَى ذَلِكَ، وَقَالُوا نَعَمْ نَقُولُ لَهُ يَا أَبَانَا قَدْ أَكَلَهُ الذِّئبُ.

قَالَ بَعْضُ الإِخْوَانِ: وَلكِنْ مَا آيَةُ ذَلِكَ؟ قَالُوا: آيَةُ ذَلِكَ الدَّمُ.

وَأَخَذَ الإِخْوَةُ كَبْشاً وَذَبَحُوه.

وَأَخَذُوا قَمِيصَ يُوسُفَ وَصَبَغُوهُ.

وَفَرِحَ الإِخْوَةُ جِدًّا: وَقَالُوا الآن يُصَدِّقُ أَبُونَا.

٥ ـ أَمَامَ يَعْقُوبَ

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءً يَبۡكُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾.

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ﴾ وَقَالُوا هَذا دَمُ يُوسُفَ!

وَكَانَ أَبُوهُمْ يَعْقُوبُ نَبِيًّا، وَكَانَ شَيْخاً كَبِيراً. وَكَانَ أَعْقَلَ مِنْ أَوْلادِهِ.

وَكَانَ يَعْقُوبُ يَعْرِفُ أَنَّ الذِّئْبَ إِذَا أَكلَ إِنْسَاناً جَرَحَهُ وَشَقَّ قَمِيصَهُ.

وَكَانَ قَمِيصُ يُوسُفَ سَالِماً. وكَانَ مَصْبُوغاً في الدَّم فَعَرَفَ يَعْقُوبُ أَنَّهُ دَمٌ كَذِبٌ، وَأَنَّ قِصَّةَ الذِّئْبِ قِصَّةٌ مَوْضُوعَةٌ.

فَقَالَ لأَوْلادِهِ: بَلْ هَذِهِ قِصَّةٌ وَضَعْتُمُوها ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ﴾ وحَزِنَ يَعْقُوبُ عَلَى يُوسُفَ حُزْناً شَدِيداً وَلَكِنَّهُ صَبَرَ صَبْراً جَمِيلاً.

٦ ـ يوسُفُ في الْبِئْرِ

وَرَجَعَ الإِخْوَةُ إِلَى البَيْتِ، وَتَرَكُوا يوسُفَ في الْبِئْرِ وَأَكَلَ الإِخْوَةُ الطَّعَامَ، وَنَامُوا عَلَى الْفِرَاشِ. ويُوسُفُ في

الْبِئْرِ، وَلا فِرَاشَ وَلا طَعَامَ. وَنَسِيَ الإِخْوَانُ يُوسُفَ، وَنَامُوا.

وَمَا نَامَ يوسُفُ، وَمَا نَسِيَ أَحَداً.

وَبَقِيَ يَعْقُوبُ يَذْكُرُ يوسُفَ، وَبَقِيَ يوسُفُ يَذْكُرُ يَعْقُوبَ.

وَكَانَ يوسُفُ فِي الْبِئْرِ وَكَانَتْ الْبِئْرُ عَمِيقَةً. وَكَانَتِ الْبِئْرُ فِي الْغَابَةِ، وَكَانَتِ الْغَابَةُ مُوحِشَةً وَكَانَ ذَلِكَ فِي اللَّيْلِ، وَكَانَ اللَّيْلُ مُظْلِماً.

٧ ـ مِنَ الْبِئْرِ إِلَى الْقَصْرِ

وَكَانَتْ جَمَاعَةٌ تُسَافِرُ فِي هَذِهِ الْغَابَةِ. وَعَطِشُوا فِي الطَّرِيقِ، وبَحَثُوا عَنْ بِئْرٍ.

وَرَأَوْا بِئْراً، فَأَرْسَلُوا إِلَيْهَا رَجُلاً لِيَأْتِيَ لَهُمْ بِالْمَاءِ.

جَاءَ الرَّجُلُ إِلَى الْبِئْرِ، وَأَدْلَى دَلْوَهُ.

وَنَزَعَ الدَّلْوَ، فَإِذَا الدَّلْوُ ثَقِيلَةٌ!

وَأَخْرَجَهَا فَإِذَا فِي الدَّلْوِ غُلامٌ!

دَهِشَ الرَّجُلُ وَنَادَى.

﴿يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ﴾.

وَفَرِحَ النَّاسُ جِداً وَأَخْفَوْهُ.

وَوَصَلُوا إِلَى مِصْرَ، وَقَامُوا فِي السُّوقِ وَنَادَوْا: مَنْ يَشْتَرِي هَذَا الْغُلامَ؟ مَنْ يَشْتَرِي هَذَا الْغُلامَ؟

اشْتَرَى الْعَزِيزُ يُوسُفَ بِدَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ. وَبَاعَهُ التُّجَّارُ وَمَا عَرَفُوا يُوسُفَ.

وَذَهَبَ بِهِ الْعَزِيزُ إِلَى قَصْرِهِ، وَقَالَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي يُوسُفَ، إِنَّهُ وَلَدٌ رَشِيدٌ.

٨ ـ الْوَفَاءُ وَالأَمَانَةُ

وَرَاوَدَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ يُوسُفَ عَلَى الْخِيَانَةِ. وَلَكِنَّ يُوسُفَ أَبَى، وَقَالَ: كَلا!

أَنَا لا أَخُونُ سَيِّدِي، إِنَّهُ أَحْسَنَ إِلَيَّ وَأَكْرَمَنِي.

إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ.

وَغَضِبَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ وَشَكَتْ إِلَى زَوْجِهَا. وَعَرَفَ العَزِيزُ أَنَّ الْمَرْأَةَ كَاذِبَةٌ.

وَعَرَفَ أَنَّ يُوسُفَ أَمِينٌ.

فَقَالَ لِزَوْجِهِ: ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾.

وَعُرِفَ يُوسُفُ فِي مِصْرَ بِجَمَالِهِ، وَإِذَا رَآهُ أَحَدٌ قَالَ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾. وَاشْتَدَّ غَضَبُ الْمَرْأَةِ وَقَالَتْ لِيُوسُفَ:

إِذَنْ تَذْهَبَ إِلى السِّجْنِ!

قَالَ يُوسُفُ: ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ!﴾.

وَبَعْدَ أَيَّامٍ رَأَى العَزِيزُ أَنْ يُرْسِلَ يُوسُفَ إِلى السِّجْنِ.

وَكَانَ العَزِيزُ يَعْرِفُ أَنَّ يُوسُفَ بَرِيءٌ.

وَدَخَلَ يُوسُفُ السِّجْنَ.

٩ ـ مَوْعِظَةُ السِّجْنِ

وَدَخَلَ يُوسُفُ السِّجْنَ، وَعَرَفَ أَهْلُ السِّجْنِ جَمِيعاً أَنَّ يُوسُفَ شَابٌّ كَرِيمٌ.

وَأَنَّ يُوسُفَ عِنْدَهُ عِلْمٌ عَظِيمٌ.

وَأَنَّ يُوسُفَ فِي صَدْرِهِ قَلْبٌ رَحِيمٌ.

وَأَحَبَّ أَهْلُ السِّجْنِ يُوسُفَ وَأَكْرَمُوهُ.

وَفَرِحَ النَّاسُ بِيُوسُفَ وَعَظَّمُوهُ.

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ رَجُلانِ وَقَصَّا عَلَيْهِ رُؤْيَاهُما ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾.

وَسَأَلا يُوسُفَ عَنِ التَّأْوِيلِ.

وَكَانَ يُوسُفُ عَالِماً بِتَأْوِيلِ الرُّؤْيَا.

وَكَانَ يُوسُفُ نَبِياً مِنَ الأَنْبِيَاءِ.

وَكَانَ النَّاسُ في زَمَانِهِ يَعْبدُونَ غَيْرَ اللَّهِ.

وَوَضَعُوا أَرْبَاباً كَثِيرَةً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ.

وَقَالُوا هَذَا رَبُّ البَرِّ، وَهَذَا رَبُّ البَحْرِ، وهَذَا رَبُّ الرِّزقِ، وَهَذَا رَبُّ الْمطَرِ.

وَكَانَ يُوسُفُ يَرَى كُلَّ ذَلِكَ وَيَضْحَكُ.

وَكَانَ يُوسُفُ يَعْلَمُ كُلَّ ذَلِكَ وَيَبْكِي.
وَكَانَ يُوسُفُ يُرِيدُ أَنْ يَدْعُوَهُمْ إِلى اللَّهِ.
وَقَدْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي السِّجنِ.
أَلا يَسْتَحِقُّ أَهْلُ السِّجْنِ الْموْعِظَةَ؟
أَلا يَسْتَحِقُّ أَهْلُ السِّجْنِ الرَّحْمَةَ؟
أَلَيْسَ أَهْلُ السِّجْنِ عِبَادَ اللَّهِ؟
أَلَيْسَ أَهْلُ السِّجْنِ بَنِي آدَمَ؟
كَانَ يُوسُفُ فِي السَّجْنِ وَلَكِنَّهُ كَانَ حُرًّا جَرِيئاً.
كانَ يُوسُفُ فَقِيراً وَلكِنَّهُ كانَ جَواداً سَخِيًّا.
إِنَّ الأَنْبِيَاءَ يَجْهَرُونَ بالْحَقِّ فِي كُلِّ مَكانٍ.
إِنَّ الأَنْبِيَاءَ يَجُودُونَ بِالْخَيْرِ فِي كُلِّ زَمَانٍ.

١٠ ـ حِكْمَةُ يُوسُفَ

قَالَ يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ:
إِنَّ الحَاجَةَ سَاقَتِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيَّ.
وَإِنَّ صَاحِبَ الحَاجَةِ يَلِينُ وَيَخْضَعُ.

وَإِنَّ صَاحِبَ الحَاجَةِ يُطِيعُ وَيَسْمَعُ.

فَلَوْ قُلْتُ لَهُمَا شَيْئاً لَسَمِعَا وَسَمِعَ أَهْلُ السِّجْنِ وَلكِنَّ يُوسُفَ لَمْ يَسْتَعْجِلْ.

بَلْ قَالَ لَهُمَا:

أَنَا أُخْبِرُكُمَا بِتَأْوِيلِ الرُّؤْيَا قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا طَعَامُكُما.

فَجَلَسَا وَاطْمَأَنَّا.

ثُمَّ قَالَ لَهُمَا يُوسُفُ:

أَنَا عَالِمٌ بِتَأْوِيلِ الرُّؤْيَا، ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ فَفَرِحَا وَاطْمَأَنَّا.

وَهُنَا وَجَدَ يُوسُفُ الْفُرْصَةَ فَبَدَأَ مَوْعِظَتَهُ.

١١ ـ مَوْعِظَةُ التَّوْحِيدِ

قَالَ يُوسُفُ: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾.

وَلَكِنَّ اللَّهَ لا يُؤْتِي عِلْمَهُ كُلَّ أَحَدٍ.

إِنَّ اللَّهَ لا يُؤْتِي عِلْمَهُ المُشْرِكَ.

هَلْ تَعْرِفَانِ لِمَاذَا عَلَّمَنِي رَبِّي؟

لأَنِّي تَرَكْتُ طَرِيقَ أَهْلِ الشِّرْكِ.

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

قَالَ يُوسُفُ:

وَهَذَا التَّوْحِيدُ لَيْسَ لَنَا فَقَطْ.

بَلْ هُوَ لِلنَّاسِ جَمِيعاً.

﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

وَهُنَا وَقَفَ يُوسُفُ وَسَأَلَهُمَا.

تَقُولُونَ رَبُّ البَرِّ وَرَبُّ الْبَحْرِ وَرَبُّ الرِّزْقِ وَرَبُّ الْمَطَرِ.

وَنَحْنُ نَقُولُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.

أَيْنَ رَبُّ البَرِّ وَرَبُّ الْبَحْرِ وَرَب الرِّزْقِ وَرَبُّ الْمَطَرِ؟

﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

أُنْظُرُوا إِلى الأَرْضِ وَإِلَى السَّمَاءِ وَانْظُروا إِلى الإِنْسَانِ.

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾.

وَكَيْفَ رَبُّ البَرِّ، وَرَبُّ البَحْرِ، وَرَبُّ الرِّزْقِ، وَرَبُّ الْمَطَرِ؟!!

أَسْمَاءٌ، ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾.

الحُكْمُ لِلَّهِ، المُلْكُ لِلَّهِ، الأَرْضُ لِلَّهِ، الأَمْرُ لِلَّهِ.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

١٢ ـ تَأْوِيلُ الرُّؤْيا

وَلَمَّا فَرَغَ يُوسُفُ مِنْ مَوْعِظَتِهِ أَخْبَرَهُمَا بِتَأْوِيلِ الرُّؤْيَا قَالَ: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾.

وَقَالَ لِلأَوَّلِ: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾.

وَخَرَجَ الرَّجُلانِ، فَكَانَ الأَوَّلُ سَاقِياً لِلْمَلِكِ وَصُلِبَ الآخَرُ.

وَنَسِيَ السَّاقي أَنْ يَذْكُرَ يُوسُفَ عِنْدَ المَلِكِ.
وَأَقَامَ يُوسُفُ في السِّجْنِ سِنِينَ.

١٣ - رُؤْيا المَلِك

وَرَأَى مَلِكُ مِصْرَ رُؤْيَا عَجِيبَةً.
رَأَى في الْمَنامِ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ.
وَيَأْكُلُ هَذِهِ البَقَرَاتِ سَبْعُ بَقَرَاتٍ عِجَافٍ.
وَرَأَى المَلِكُ سَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ يابِسَاتٍ.
تَعَجَّبَ الْملِكُ مِنْ هَذِهِ الرُّؤْيَا العَجِيبةِ وَسَأَلَ جُلَسَاءَهُ عَنْ تَأْوِيلِ الرُّؤْيَا.
قَالُوا: هَذَا لَيْسَ بِشَيْءٍ، النَّائمُ يَرَى أَشْيَاءَ كَثِيرَةً لا حَقِيقَةَ لَهَا.
وَلَكِنْ قَالَ السَّاقِي: لا، بَلْ أُخْبِرُكُمْ بِتَأْوِيلِ هَذِهِ الرُّؤْيَا.
وَذَهَبَ السَّاقِي إِلى السِّجْنِ وَسَأَلَ يُوسُفَ عَنْ تَأْوِيلِ رُؤْيَا الْمَلِكِ.

كَانَ يُوسُفُ جَوَاداً كَرِيماً مُشْفِقاً عَلَى خَلْقِ اللَّهِ فَأَخْبَرَهُ بِالتَّأْوِيلِ.

وَكَانَ يُوسُفُ جَوَاداً كَرِيماً لا يَعْرِفُ البُخْلَ.

فَأَخْبَرَ يُوسفُ بِالتَّأْوِيلِ وَدَلَّ عَلَى التَّدْبِيرِ.

قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ، وَاتْرُكُوا مَا حَصَدْتُمْ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ.

وَيَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ قَحْطٌ عَامٌّ تَأْكُلونَ فِيهِ مَا خَزَنْتُمْ إلا قَلِيلاً.

وَيَطُولُ هَذَا القَحْطُ إِلَى سَبعِ سِنِينَ.

وَبَعْدَ ذَلِكَ يَأْتِي النَّصْرُ وَيُخْصِبُ النَّاسُ.

وَذَهَبَ السَّاقِي وَأَخْبَرَ المَلِكَ بِتَأْوِيلِ رُؤْيَاهُ.

١٤ ـ المَلِكُ يُرْسِلُ إِلَى يُوسُفَ

وَلَمَّا سَمِعَ المَلِكُ هَذَا التَّأْوِيلَ وَالتَّدْبِيرَ فَرِحَ جِدًّا، وَقَالَ: مَنْ صَاحِبُ هَذَا التَّأْوِيلِ؟

وَقَالَ المَلِكُ: مَنْ هَذَا الرَّجُلُ الْكَرِيمُ الَّذِي نَصَحَ لَنَا وَدَلَّ عَلَى التَّدْبِيرِ؟

قَالَ السَّاقي: هَذَا يُوسُفُ الصِّدِّيقُ وَهُوَ الذِي أَخْبَرَ أَنِّي سَأَكُونُ سَاقِياً لِسَيِّدِي الملِكِ.

وَاشْتَاقَ المَلِكُ إِلى لقاءِ يُوسُفَ، وَأَرْسَلَ إِلى يُوسفَ، وَقَالَ المَلِك: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾.

١٥ ـ يوسُفُ يَسْأَلُ التَّفْتِيشَ

وَلَمَّا جَاءَ الرَّسُولُ إِلى يُوسفَ وَقَالَ لَهُ إِنَّ الْملِكَ يَدْعُوكَ!

مَا رَضِيَ يُوسُفُ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ السِّجْنِ هَكَذَا. وَيَقُولُ النَّاسُ هَذَا يُوسُفُ! هَذَا كَانَ أَمْسِ في السِّجْنِ، إِنَّهُ خَانَ العَزِيزَ.

إِنَّ يُوسفَ كانَ كَبِيرَ النَّفْسِ أَبِيًّا، إِنّ يُوسُفَ كَانَ كَبيرَ العَقْلِ ذَكِيًّا.

لَوْ كَانَ أَحَدٌ مَكانَ يُوسُفَ في السِّجْن وَجَاءَهُ رَسُولُ المَلِك. وَقَالَ لَهُ رَسُولُ المَلِك إِنَّ المَلِك يَدْعُوكَ وَيَنْتَظِرُكَ لأَسْرَعَ هَذَا الرَّجُلُ إِلى بَابِ السِّجْنِ وَخَرَجَ.

وَلكنَّ يُوسُفَ لَمْ يُسْرِعْ.

وَلكِنَّ يُوسُفَ لَمْ يَسْتَعْجِلْ.

بَلْ قَالَ لِرَسُولِ الْملِك: أَنَا أُرِيدُ التَّفْتِيشَ أَنَا أُرِيدُ البَحْثَ عَنْ قَضِيَّتي.

وَسَأَلَ المَلِكُ عَنْ يُوسُفَ وَعَلِمَ الْملِكُ وَعَلِمَ النَّاسُ أَنَّ يُوسُفَ بَرِيءٌ.

وَخَرَجَ يُوسُفُ بَريئاً وأَكْرَمَهُ المَلِكُ.

١٦ ـ عَلَى خَزائِنِ الأَرْضِ

وَكَانَ يوسُفُ يَعْلَمُ أَنَّ الأَمَانَةَ قَلِيلَةٌ فِي النَّاسِ.

وَكَانَ يوسُفُ يَعْلَمُ أَنَّ الْخِيَانَةَ كَثِيرَةٌ في النَّاسِ.

وَكَانَ يُوسُفُ يَرَى أَنَّ النَّاسَ يخُونُونَ في أمْوَالِ اللَّهِ.

وَكَانَ يَرَى أَنَّ في الأَرْضِ خَزَائِنَ كَثِيرَةً ولكنَّها ضَائِعَةٌ.

إِنَّها ضَائِعَةٌ لأَنَّ الأُمَراءَ[١] لا يَخَافُونَ اللَّهَ فيها.

(١) الولاة وأصحاب الأمر.

فَتَأْكُلُ كِلابُهُمْ وَلا يَجِدُ النَّاسُ مَا يَأْكُلُونَ. وَتَلْبَسُ بُيُوتُهُمْ وَلا يَجِدُ النَّاسُ مَا يَلْبَسُونَ.

وَلا يَنْفَعُ النّاسَ بِخَزَائِنِ الأَرْضِ إلا مَنْ كَانَ حَفِيظاً عَلِيماً.

وَمَنْ كَانَ حَفِيظاً وَمَا كَانَ عَلِيماً لا يَعْلَمُ أَيْنَ خَزَائِنُ الأَرْضِ وَكَيْفَ يَنْتَفِعُ بِهَا.

وَمَنْ كَانَ عَلِيماً وَمَا كَانَ حَفِيظاً يَأْكُلُ مِنْهَا وَيَخُونُ فِيهَا.

وَكَانَ يُوسُفُ حَفِيظاً عَلِيماً.

وَكَانَ يُوسُفُ لا يُرِيدُ أَنْ يَتْرُكَ الأُمَرَاءَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ.

وَكَانَ يُوسُفُ لا يَقْدِرُ أَنْ يَرَى النَّاسَ يَجُوعُونَ وَيَمُوتُونَ.

وَكَانَ يُوسُفُ لا يَسْتَحِي مِنَ الحَقِّ.

فَقَالَ لِلْمَلِكِ:

﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

وَهَكَذَا كَانَ يُوسُفُ أَمِيناً لِخَزَائِنِ مِصْرَ.
واسْتَرَاحَ النَّاسُ جِدًّا وَحَمِدُوا اللَّهَ.

١٧ ـ جَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ

وَكَان في مِصْرَ والشَّام مَجَاعَةٌ كَمَا أَخْبَرَ يُوسُفُ. وَسَمِعَ أَهْلُ الشَّامِ وسَمِعَ يَعْقُوبُ أَنَّ في مِصْرَ رَجُلاً رَحِيماً. وَأَنَّ فِي مِصْرَ جَواداً كَرِيماً، وَهُوَ عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ.

وَكَانَ النَّاسُ يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ وَيَأْخُذُونَ الطَّعَامَ[1] وَأَرْسَلَ يَعْقُوبُ أَبْنَاءَهُ إِلى مِصْرَ بِالْمَالِ لِيَأْتُوا بِالطَّعَامِ.

وَبَقِيَ بِنْيَامِينُ عِنْدَ وَالِدِهِ لأَنَّ يَعْقُوبَ كَانَ يُحِبُّهُ جِدًّا. وَمَا كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَبْعُدَ عَنْهُ وَكَانَ يَعْقُوبُ يَخَافُ عَلَيْهِ كَمَا كَانَ يَخَافُ عَلَى يُوسُفَ.

وَتَوَجَّهَ إِخْوَةُ يُوسُفَ إِلى يُوسُفَ وَهُمْ لا يَعْرِفونَ أَنَّهُ أَخُوهُمْ يُوسُفُ.

---

(١) الحبوب.

وَهُمْ لا يَعْرِفُونَ أَنَّهُ يُوسُفُ الَّذِي كَانَ فِي الْبِئْرِ.

وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ.

وَكَيْفَ لا يَمُوتُ وَقَدْ كَانَ فِي الْبِئْرِ.

كَانَ فِي الْبِئْرِ وَكَانَتْ البِئْرُ عَمِيقَةً.

وَكَانَتِ الْبِئْرُ فِي الْغَابَةِ، وَكَانَتِ الْغَابَةُ مُوحِشَةً.

وَكَانَ ذَلِكَ فِي اللَّيْلِ، وَكَانَ اللَّيْلُ مُظْلِماً.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾.

كَانُوا مُنْكِرِينَ لِيُوسُفَ لا يَعْرِفُونَهُ، وَلَكِنْ مَا أَنْكَرَهُمْ يُوسُفُ بَلْ عَرَفَهُمْ.

عَرَفَ يُوسُفُ أَنَّ هَؤُلاءِ هُمُ الَّذِينَ أَلْقَوْهُ فِي الْبِئْرِ.

وَأَنَّ هَؤُلاءِ هُمْ الَّذِينَ كَانُوا يُرِيدُونَ قَتْلَهُ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَفِظَهُ.

وَلَكِنَّ يُوسُفَ لَمْ يَقُلْ لَهُمْ شَيْئاً وَلَمْ يَفْضَحْهُمْ.

١٨ ـ بَيْنَ يوسُفَ وَإِخْوَتِهِ

وَكَلَّمَهُمْ يُوسُفُ وَقَالَ لَهُمْ:

مِنْ أَيْنَ أَنْتُمْ؟

قَالُوا: مِنْ كَنْعَانَ!

قَالَ: مَنْ أَبُوكُمْ؟

قَالُوا: يَعْقُوبُ بنُ إسحاقَ بنِ إِبْرَاهِيمَ (عَلَيْهِمُ الصَّلواتُ والسَّلامُ).

قَالَ: هَلْ لَكُمْ أَخٌ آخَرُ؟

قَالُوا: نَعَمْ لَنَا أَخٌ اسْمُهُ بِنْيَامِينُ!

قَالَ: لِمَاذَا لَم يَأْتِ مَعَكُمْ؟

قَالُوا: لأَنَّ وَالِدَنَا لا يَتْرُكُهُ وَلا يُحِبُّ أَنْ يَبْعُدَ عَنْهُ.

قَالَ: لأَيِّ شَيْءٍ لا يَتْرُكُهُ، هَلْ هُوَ وَلَدٌ صَغِيرٌ جِدًّا؟

قَالُوا: لا: وَلَكِنْ كَانَ لَهُ أَخٌ اسْمُهُ يُوسُفُ، ذَهَبَ مَعَنَا مَرَّةً، وَذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَركْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ.

وَضَحِكَ يُوسُفُ في نَفْسِهِ وَلَكِنْ لَمْ يَقُلْ شَيْئاً وَاشْتَاقَ يُوسُفُ إِلى أَخيهِ بِنْيَامِينَ.

وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَمْتَحِنَ يَعْقُوبَ مَرَّةً ثَانِيَةً.
فَأَمَرَ لَهُمْ يُوسُفُ بِالطَّعَامِ.
وَقَالَ لَهُمْ: ﴿ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾.
وَلا تَجِدُونَ طَعَامَاً إِذَا لَمْ تَأْتُوا بِهِ.
وَأَمَرَ يُوسُفُ بِمَالِهِمْ فَوُضِعَ فِي مَتَاعِهِمْ.

١٩ ـ بَيْنَ يَعْقُوبَ وَأَبْنَائِهِ

وَرَجَعُوا إِلى أَبِيهِمْ وَأَخْبَرُوهُ بِالْخبرِ وَقَالُوا لَهُ: أَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا، وإِلَّا لا نَجِدُ خَيْراً عِنْدَ الْعَزِيزِ.
وَطَلَبُوا مِنْ يَعْقُوبَ بِنْيَامِينَ وَقَالُوا: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾.
قَالَ يَعْقُوبُ: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾.
هَل نَسِيتُمْ قِصَّةَ يُوسُفَ. أَتَحْفَظُونَ بِنْيَامِينَ كما حَفِظْتُمْ يُوسُفَ.
﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

وَوَجَدُوا مَالَهُمْ في مَتَاعِهِمْ فَقَالُوا لأَبِيهِمْ: إِنَّ الْعَزِيزَ رَجُلٌ كَرِيمٌ، قَدْ رَدَّ مَالَنَا وَلَمْ يَأْخُذْ مِنَّا ثَمَناً.

أَرْسِلْ مَعَنَا بِنْيَامِينَ نَأْخُذْ حَقَّهُ أَيْضاً.

قَالَ لَهُمْ يَعْقُوبُ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُعَاهِدُوا اللَّهَ أَنَّكُمْ تَرْجِعُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ تُغْلَبُوا عَلَى أَمْرِكُمْ.

وَعَاهَدُوا اللَّهَ وَقَالَ يَعْقُوبُ: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

وَقَالَ يَعْقُوبُ لِبَنِيه: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾.

٢٠ ـ بِنْيَامِينُ عِنْدَ يُوسُفَ

وَدَخَلَ الإِخْوَةُ مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ كَمَا أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ وَوَصَلُوا إِلى يُوسُفَ.

وَلَمَّا رَأَى يُوسُفُ بِنْيَامِينَ فَرِحَ جِدًّا وَأَنْزَلَهُ في بَيْتِهِ. وَقَالَ يُوسُفُ لِبِنْيَامِينَ: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ وَاطْمَأَنَّ بِنْيَامِينُ. وَلَقِيَ يُوسُفُ بِنْيَامِينَ بَعْدَ زَمَنٍ طَوِيلٍ فَذَكَرَ أُمَّهُ وَأَبَاهُ وَذَكَرَ بَيْتَهُ وَذَكَرَ صِغَرَهُ.

وَأَرَادَ يُوسُفُ أَنْ يَبْقَى عِنْدَهُ بِنْيَامِينُ يَرَاهُ كُلَّ يَوْمٍ وَيُكَلِّمُهُ وَيَسْأَلُهُ عَنْ بَيْتِهِ.

وَلَكِنْ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى ذلِكَ، وَبِنْيَامِينُ رَاجِعٌ غَداً إِلى كَنْعَانَ؟

وَكَيْفَ السَّبِيلُ إِلى ذَلِكَ والإِخْوَةُ عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَى أَنْ يَرْجِعُوا بِهِ مَعَهُمْ؟.

وَكَيْفَ يُمْكِنُ لِيُوسُفَ أَنْ يَحْبِسَ بِنْيَامِينَ عِنْدَهُ بِغَيْرِ سَبَبٍ؟

وَيَقُولُ النَّاسُ: قَدْ حَبَسَ الْعَزِيزُ عِنْدَهُ كَنْعَانِيًّا بِغَيْرِ سَبَبٍ، إِنَّ هَذَا لَظُلْمٌ عَظِيمٌ.

وَلَكِنَّ يُوسُفَ كَانَ ذَكِيًّا عَاقِلاً.

كَانَ عِنْدَ يُوسُفَ إِنَاءٌ ثَمِينٌ، وَكَانَ يَشْرَبُ فِيهِ. وَضَعَ هَذَا الإِنَاءَ في مَتَاعِ بِنْيَامِينَ وَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ.

وَالْتَفَتَ الإِخْوَةُ، وَقَالُوا مَاذَا تَفْقِدُونَ؟

قَالُوا: نَفْقِدُ صُوَاعَ (إِنَاءَ) الْملِكِ، وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾!.

﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾؟

﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

وَخَرَجَ الإناءُ مِنْ مَتاعِ بِنْيَامِينَ فَخَجِلَ الإِخْوَةُ وَلَكِنْ قَالُوا مِنْ غَيْرِ خَجَلٍ:

إِنْ يَسْرِقْ (بِنْيَامِينُ) فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ (يُوسُفُ) مِنْ قَبْلُ.

وَسَمِعَ يُوسُفُ هَذَا البُهْتَانَ فَسَكَتَ وَلَمْ يَغْضَبْ وَكَانَ يُوسُفُ كَرِيماً حَلِيماً.

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

وَهَكَذَا بَقِيَ بِنْيَامِينُ عِنْدَ يُوسُفَ وَفَرِحَ الأَخَوَانِ جَمِيعاً.

إِنَّ يُوسُفَ كَانَ وَحِيداً مِنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ لا يَرَى أَحَداً مِنْ أَهْلِهِ.

وَقَدْ سَاقَ اللَّهُ إِلَيْهِ بِنْيَامِينَ أَفَلا يَحْبِسُهُ عِنْدَهُ يَرَاهُ وَيُكَلِّمُهُ. وَهَلْ مِنَ الظُّلْمِ أَنْ يُقِيمَ أَخٌ عِنْدَ أَخِيهِ. أَبَداً؟ أَبَداً؟.

٢١ - إِلَى يَعْقُوب

وَتَحَيَّرَ الإِخْوَةُ كَيْفَ يَرْجِعُونَ إِلى أَبِيهِمْ؟!

وَفَكَّرَ الإِخْوَةُ مَاذَا يَقُولُونَ لأَبِيهِمْ؟!

إِنَّهُمْ فَجَعُوهُ أَمْسِ فِي يُوسُفَ، أَفَيَفْجَعُونَهُ الْيَوْمَ فِي بِنْيَامِينَ!

أَمَّا كَبِيرُهُمْ فَأَبَى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى يَعْقُوبَ وَقَالَ لإِخْوَتِهِ:

﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾.

وَلَمَّا سَمِعَ يَعْقُوبُ الْقِصَّةَ عَلِمَ أَنَّ لِلَّهِ يَداً فِي ذَلِكَ. وَأَنَّ اللَّهَ مُمْتَحِنُه.

أَمْسِ فُجِعَ فِي يُوسُفَ وَالْيَوْمَ يُفْجَعُ فِي بِنْيَامِينَ إِنَّ اللَّهَ لا يَجْمَعُ عَلَيْهِ مُصِيبَتَيْنِ، إِنَّ اللَّهَ لا يَفْجَعُهُ فِي ابْنَيْنِ.

إِنَّ اللَّهَ لا يَفْجَعُهُ فِي ابْنَيْنِ كَيُوسُفَ وَبِنْيَامِينَ.

إِنَّ لِلَّهِ فِي ذَلِكَ يَداً خَفِيَّةً.

إِنَّ لِلَّهِ فِي ذَلِكَ حِكْمَةً مَخْفِيَّةً.

إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَزَلْ يَمْتَحِنُ عِبَادَهُ ثُمَّ يَسُرُّهُمْ وَيُنْعِمُ عَلَيْهِمْ.

ثُمَّ إِنَّ الابْنَ الْكَبِيرَ بَقِيَ فِي مِصْرَ أَيْضاً وَأَبَى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى كَنْعَانَ.

أَفَيُفْجَعُ فِي الثَّالِثِ أَيْضاً وَقَدْ فُجِعَ مِنْ قَبْلُ فِي اثْنَيْنِ. إِنَّ هَذَا لا يَكُونُ.

وَهُنَا اطْمَأَنَّ يَعْقُوبُ وَقَالَ:

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

٢٢ ـ يَظْهَرُ السِّرُّ

وَلَكِنَّ يَعْقُوبَ كَانَ بَشَراً في صَدْرِهِ قَلْبُ بَشَرٍ لا قِطْعَةُ حَجَرٍ.

فَذَكَرَ يُوسُفَ وَتَجَدَّدَ حُزْنُهُ وَقَالَ: ﴿يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾.

وَلامَهُ أَبْنَاؤُهُ وَقَالُوا إِنَّكَ لا تَزَالُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَهْلِكَ.

قَالَ يَعْقُوبُ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وَكَانَ يَعْقُوبُ يَعْلَمُ أَنَّ اليَأْسَ كُفْرٌ، وَكَانَ يَعْقُوبُ لَهُ رَجَاءٌ كَبِيرٌ في اللَّهِ.

وَأَرْسَلَ يَعْقُوبُ أَبْنَاءَهُ إِلَى مِصْرَ لِيَبْحَثُوا عَنْ يُوسُفَ وَبِنْيَامِينَ وَيَجْتَهِدُوا في ذَلِكَ.

وَمَنَعَهُمْ يَعْقُوبُ مِنْ أَنْ يَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَذَهَبَ الإِخْوَةُ إِلَى مِصْرَ مَرَّةً ثَالِثَةً.

وَدَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ وَشَكَوْا إِلَيْهِ فَقْرَهُمْ وَمُصِيبَتَهُمْ وَسَأَلُوهُ الْفَضْلَ.

وَهُنَا هَاجَ الحُزْنُ وَالحُبُّ في يُوسُفَ وَلَمْ يَمْلِكْ نَفْسَهُ.

أَبْنَاءُ أَبي وَأَبْنَاءُ الأَنْبِيَاءِ يَشْكُونَ فَقْرَهُمْ وَمُصِيبَتَهُمْ إلى مَلِكٍ مِنَ المُلُوكِ.

إلى مَتَى أُخْفِي الأَمْرَ عَنْهُمْ وَإِلَى مَتَى أَرَى حَالَهُمْ وَإِلى مَتَى لا أَرَى أَبي؟

لَمْ يَمْلِكْ يُوسُفُ نَفْسَهُ وَقَالَ لَهُمْ.

﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾، وَكَانَ الإِخْوَةُ يَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا السِّرَّ لا يَعْلَمُهُ إِلّا يُوسُفُ وَنَحْنُ.

فَعَلِمُوا أَنَّهُ يُوسُفُ.

سُبْحَانَ اللَّهِ! هَلْ يُوسُفُ حَيٌّ، أَمَا مَاتَ في الْبِئْرِ. يا سَلامُ! هَلْ يُوسُفُ هُوَ عَزِيزُ مِصْرَ؟

هُوَ الَّذِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ؟

هُوَ الَّذِي كَانَ يَأْمُرُ لَنَا بالطَّعَام؟

وَمَا بَقِيَ عِنْدَهُمْ شَكٌّ أَنَّ الَّذِي يُكَلِّمُهُمْ هُوَ يُوسفُ بْنُ يَعْقُوبَ!

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ﴾.

قال: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾ وَمَا لامَهُمْ يُوسُفُ عَلَى فَعْلَتِهِمْ، بَلْ قَالَ: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

٢٣ ـ يوسُفُ يُرْسِلُ إِلَى يَعْقُوبَ

وَاشْتَاقَ يُوسُفُ إلى لِقَاءِ يَعْقُوبَ، وَكَيْفَ لا يَشْتَاقُ إِلَيْهِ وَقَدْ طَالَ الْفِرَاقُ.

وَلِمَاذَا يَصْبِرُ الآنَ وَقَدْ ظَهَرَ السِّرُّ.

وَكَيْفَ يَطِيبُ لَهُ الشَّرَابُ والطَّعَامُ وَأَبُوهُ لا يَطِيبُ لَهُ شَرَابٌ ولا طَعَامٌ ولا مَنَامٌ.

قَدِ انْكَشَفَ السِّرُّ، وَقَدْ ظَهَرَ السِّرُّ، وَقَدْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ تَقَرَّ عَيْنُ يَعْقُوبَ.

وَكَانَ يَعْقُوبُ قَدْ عَمِيَ مِنْ كَثْرَةِ الْبُكَاءِ والْحُزْنِ فَقَالَ يُوسُفُ:

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

٢٤ ـ يَعْقُوبُ عِنْدَ يوسُفَ

وَلَمَّا سَارَ الرِّجَالُ بِقَمِيصِ يُوسُفَ إِلى كَنْعَانَ، أَحَسَّ يَعْقُوبُ رَائِحَةَ يُوسُفَ، وَقَالَ: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾.

وَلَكِنْ كَانَ يَعْقُوبُ صَادِقاً، ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾.

وَلَمَّا وَصَلَ يَعْقُوبُ إلى مِصْرَ اسْتَقْبَلَهُ يُوسُفُ، وَلا تَسْأَلْ عَنْ فَرَحِهِمَا وَسُرُورِهِمَا.

وَكَانَ يَوْماً مَشْهُوداً في مِصْرَ وَكَانَ يَوْماً مُبَارَكاً. وَرَفَعَ يُوسُفُ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَوَقَعُوا كُلُّهُمْ سُجَّداً لِيُوسُفَ.

وَقَالَ يُوسُفُ: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾.

﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾.

وَحَمِدَ يُوسُفُ اللَّهَ حَمْداً طَيِّباً كَثِيراً.

وَشَكَرَ يُوسُفُ عَلَى ذَلِكَ شُكْراً عَظِيماً.

وَبَقِيَ يَعْقُوبُ وَآلُ يَعْقُوبَ في مِصْرَ زَمَناً طَوِيلاً وَمَاتَ يَعْقُوبُ وَزَوْجُهُ في مِصْرَ.

٢٥ ـ حُسْنُ الْعَاقِبَةِ

وَلَمْ يَشْغَلْ يُوسُفَ هَذَا المُلْكُ العَظِيمُ عَنِ اللَّهِ وَلَمْ يُغَيِّرْهُ.

وَكَانَ يُوسُفُ يَذْكُرُ اللَّهَ وَيَعْبُدُهُ وَيَخَافُهُ.

وَكَانَ يُوسُفُ يَحْكُمُ بِحُكْمِ اللَّهِ وَيُنَفِّذُ أَوَامِرَ اللَّهِ.

وَكَانَ يُوسُفُ لا يَرَى المُلْكَ كَثِيراً وَلا يَعُدُّهُ شَيْئاً كَبِيراً وَكَانَ يُوسُفُ لا يُحِبُّ أَنْ يَمُوتَ مَوْتَ مَلِكٍ وَيُحْشَرَ مَعَ المُلوكِ.

بَلْ كَانَ يُحِبُّ أَنْ يَمُوتَ مَوْتَ عَبْدٍ وَيُحْشَرَ مَعَ الصَّالِحِينَ.

وَكَانَ دُعَاءُ يُوسُفَ:

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

وَتَوَفَّاهُ اللَّهُ مُسْلِماً وَأَلْحَقَهُ بِآبَائِهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى نَبِيِّنَا وَسَلَّمَ.

سَفِينَةُ نُوحٍ

١ ـ بَعْدَ آدَمَ

بَارَكَ اللَّهُ في ذُرِّيَّةِ آدَمَ فَكَانَ فِيْهَا رِجَالٌ كَثِيْرٌ وَنِسَاءٌ. وَانْتَشَرَتْ ذُرِّيَّةُ آدَمَ وَكَثُرَتْ.

فَلَوْ رَجَعَ آدَمُ وَرَأَى أَوْلادَهُ لَمَا عَرَفَ.

وَلَوْ قِيْلَ لَهُ هَذِهِ ذُرِّيَّتُكَ يا آدَمُ لَتَعَجَّبَ كَثِيراً. وَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! هَؤلاءِ كُلُّهُمْ أَوْلادِي؟ هَذِهِ كُلُّهَا ذُرِّيَّتِي؟!

وَكَانَتْ لِذُرِّيَّةِ آدَمَ قُرًى كَثِيرَةٌ، وَبَنَوا بُيُوتاً كَثِيرَةً. وَكَانُوا يَحْرُثُونَ الأَرْضَ وَيَزْرَعُونَ وَيَعِيشُوْنَ. وَكَانَ النَّاسُ عَلَى دِيْنِ أَبِيْهِمْ آدَمَ، يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَلا يُشْرِكُوْنَ بِهِ شَيْئاً!.

وَكَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً أَبُوهُمْ آدَمُ وَرَبُّهُمْ اللَّهُ.

٢ ـ حَسَدُ الشَّيْطانِ

وَلَكِنْ كَيْفَ يَرْضى إِبْلِيسُ وَذُرِّيَّتُهُ بِهَذا؟ أَلا يَزالُ النَّاسُ يَعْبُدُوْنَ اللَّهَ؟.

أَلا يَزالُ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لا يَخْتَلِفُونَ؟ إِنَّ ذَلِكَ لا يَكُونُ! إِنَّ ذَلِكَ لا يَكُونُ!

هَلْ يَدْخُلُ ذُرِّيَّةُ آدَمَ الجَنَّةَ، وَيَدْخُلُ إِبْلِيْسُ وَذُرِّيَّتُه النَّارَ؟

إِنَّ ذَلِكَ لا يَكُونُ، إِنَّ ذَلِكَ لا يَكُونُ!

إِنَّهُ لَمْ يَسْجُدْ لآدَمَ فَطَرَدَهُ اللَّهُ وَلَعَنَهُ.

أَلا يَنْتَقِمُ مِنْ بَنِي آدَمَ فَيَدْخُلُوا مَعَهُ النَّارَ؟

لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ! لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ.

٣ ـ فِكْرَةُ الشَّيْطانِ

وَرَأَى الشَّيْطَانُ أَنْ يَدْعُوَ النَّاسَ إِلى عِبَادَةِ الأَصْنَام فَيَدْخُلُوا النَّارَ ولا يَدْخُلُوْا الجَنَّةَ أَبَداً.

وَكَانَ الشَّيْطَانُ يَعْرِفُ أَنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ الشِّرْكَ، وَيَغْفِرُ كُلَّ شَيْءٍ إذا أَرَادَ.

فَأَرَادَ الشَّيْطَانُ أَنْ يَدْعُوَهُمْ إِلى الشِّرْكِ. فَلا يَدْخُلُوا الجَنَّةَ أَبَداً.

وَلَكِنْ كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلى ذَلِكَ، وَالنَّاسُ يَعْبُدُونَ اللَّهَ؟ إِنَّهُ لَوْ ذَهَبَ إِلَى النَّاسِ وَقَالَ لَهُمْ: «اعْبُدُوْا الأَصْنَامَ وَلَا تَعْبُدُوْا اللَّهَ» لَشَتَمَهُ النَّاسُ وضَرَبُوهُ.

قَالُوا: مَعَاذَ اللَّهِ، أَنُشْرِكُ بِرَبِّنَا؟ أَنَعْبُدُ الأَصْنَامَ؟ إِنَّكَ لَشَيْطَانٌ رَجِيْمٌ! إِنَّكَ لَشَيْطَانٌ خَبِيثٌ!

٤ ـ حِيْلَةُ الشَّيْطانِ

وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ وَجَدَ بَاباً يَدْخُلُ مِنْهُ إِلى رُؤُوْسِ النَّاسِ.

كَانَ رِجَالٌ يَخَافُونَ اللَّهَ، وَيَعْبُدُونَهُ لَيْلاً وَنَهَاراً، وَيَذْكُرُونَهُ ذِكْراً كَثِيْراً.

وَكَانُوا يُحِبُّوْنَ اللَّهَ، وَكَانَ اللَّهُ يُحِبُّهُمْ وَيَسْتَجِيبُ لَهُمْ وَكَانَ النَّاسُ يُحِبُّوْنَهُمْ وَيُعَظِّمُوْنَهُمْ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ يَعْرِفُ ذَلِكَ جَيِّداً.

وَقَدْ مَاتَ هَؤُلاءِ وَانْتَقَلُوا إلى رَحْمَةِ اللَّهِ!

ذَهَبَ الشَّيْطَانُ إلى النَّاسِ وَذَكَرَ هُؤلاءِ الرِّجَالَ. وَقَالَ: كَيْفَ كَانَ فِيْكُمْ فُلانٌ وفُلانٌ وَفُلانٌ؟ قَالُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ! رِجَالُ اللَّهِ وَأَوْلِيَاؤُهُ! أُولئِكَ إِذَا دَعَوْا أَجَابَهُمْ، وَإِذَا سَأَلُوا أَعْطَاهُمْ.

٥ ـ صُوَرُ الصَّالِحِينَ

قَالَ الشَّيْطَانُ: فَكَيْفَ حُزْنُكُمْ عَلَيْهِمْ؟

قَالُوْا: شَدِيْدٌ.

قَالَ: وَكَيْفَ اشْتِيَاقُكُمْ إِلَيْهِمْ؟

قَالُوْا: عَظِيْمٌ!

قَالَ: وَلِمَاذَا لا تَنْظُرُوْنَ إِلَيْهِمْ كُلَّ يَوْمٍ؟

قَالُوا: وَكَيْفَ السَّبِيْلُ إِلى ذَلِكَ وَقَدْ مَاتُوْا؟

قَالَ: إِعْمَلُوْا لَهُمْ صُوَراً وَانْظُرُوْا إِلَيْهَا كُلَّ صَباحٍ.

وَأُعْجِبَ النَّاسُ بِرَأْيِ إِبْلِيْسَ وَصَوَّرُوْا الصَّالِحِيْنَ وَكَانُوا يَنْظُرُوْنَ إِلَى هَذِهِ الصُّوَرِ كُلَّ يَوْمٍ، وَإِذَا رَأَوْهَا ذَكَرُوا أُولَئِكَ الصَّالِحِيْنَ.

٦ ـ مِنَ الصُّوَرِ إِلَى التَّماثِيلِ

وَانْتَقَلُوا مِنَ الصُّوَرِ إِلى التَّمَاثِيْلِ.

وَعَمِلُوْا لِلصَّالِحِيْنَ تَمَاثِيْلَ كَثِيْرَةً، وَوَضَعُوْهَا فِي بُيُوْتِهِمْ وَفِي مَسَاجِدِهِمْ.

وَكَانُوا يَعْبُدُوْنَ اللَّهَ لا يُشْرِكُوْنَ بِهِ شَيْئاً.

وَكَانُوا يَعْرِفُوْنَ أَنَّ هَذِهِ تَمَاثِيْلُ لِلصَّالِحِيْنَ.

وَأَن هَذِهِ حِجَارَةٌ لا تَنْفَعُهُمْ ولا تَضُرُّهُمْ وَلا تَرْزُقُهُمْ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَتَبَرَّكُوْن بِهَا وَيُعَظِّمُوْنَهَا، لأَنَّهَا تَمَاثِيْلُ لِلصَّالِحِيْنَ.

وَكَثُرَتْ هَذِهِ التَّمَاثِيْلُ فِيْهِمْ، وَكَثُرَ تَعْظِيْمُهَا.

وإِذَا مَاتَ فِيْهِمْ رَجُلٌ صَالِحٌ عَمِلُوْا لَهُ تِمْثَالاً وَسَمَّوْهُ بِاسْمِهِ.

٧ ـ مِنَ التَّماثِيلِ إِلَى الأَصْنَامِ

وَمَضى هَؤلاءِ، وَرَأَى الأَوْلادُ آبَاءَهُمْ يَتَبَرَّكُوْنَ بِهَا وَرَأَوْا آبَاءَهُمْ يُعَظِّمُوْنَهَا تعظِيماً شَدِيداً.

وَكَانُوا يَرَوْنَهُمْ يُقَبِّلُوْنَ هَذِهِ التَّمَاثِيْلَ، وَيَلْمَسُوْنَهَا وَيَدْعُونَ عِنْدَهَا.

وَكَانُوا يَرَوْنَهُمْ يَخْفِضُوْنَ رُؤُوسَهُمْ وَيَرْكَعُوْنَ عِنْدَهَا فَزَادَ الأَبْنَاءُ عَلَى الآباءِ، وَصَارُوْا يَسْجُدُوْنَ لَهَا.

وَصَارُوا يَسْأَلُوْنَهَا، وَيَذْبَحُوْنَ لَهَا.

وَهَكَذَا صَارَتْ هَذِهِ الأَصْنَامُ آلِهَةً، وَصَارَ النَّاسُ يَعْبُدُوْنَهَا كَمَا كَانُوْا يَعْبُدُوْنَ اللَّهَ مِنْ قَبْلُ. وَكَثُرَتْ هَذِهِ الآلِهَةُ فِيْهِمْ، هَذَا وَدٌّ، وَذَلِكَ سُوَاعٌ، وَهَذَا يَغُوْثُ، وَذَلِكَ يَعُوْقُ، وَهَذَا نَسْرٌ.

٨ ـ غَضَبُ اللَّهِ

وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ غَضَباً شَدِيداً وَلَعَنَهُمْ.

وَلِمَاذَا لا يَغْضَبُ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ وَلا يَلْعَنُهُمْ؟ أَلِهَذَا خَلَقَهُمْ، أَلِهَذَا يَرْزُقُهُمْ؟

يَمْشُونَ عَلَى أَرْضِ اللَّهِ وَيَكْفُرُونَ بِاللَّهِ!

وَيَأْكُلُوْنَ رِزْقَ اللَّهِ وَيُشْرِكُوْنَ بِاللَّهِ!

إِنَّ هَذَا لَظُلْمٌ عَظِيْمٌ! إِنَّ هَذَا لَظُلْمٌ عَظِيْمٌ!

غَضِبَ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ، وَحَبَسَ المَطَرَ وَضَيَّقَ عَلَيْهِمْ. وَقَلَّ الحَرْثُ وَقَلَّ النَّسْلُ.

وَلكِنَّ النَّاسَ مَا عَقَلُوْا، وَلكِنَّ النَّاسَ مَا تَابُوْا.

٩ ـ الرَّسولُ

وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهِمْ رَجُلاً مِنْهُمْ يُكَلِّمُهُمْ وَيَنْصَحُ لَهُمْ.

إِنَّ اللَّهَ لا يُكَلِّمُ وَاحِداً وَاحِداً، إِنَّ اللَّهَ لا يُخَاطِبُ كُلَّ أَحَدٍ يَقُولُ لَهُ افْعَلْ كَذَا، افْعَلْ كَذَا. إِنَّ المُلُوْكَ لا يُكَلِّمُوْنَ وَاحِداً وَاحِداً.

إِنَّ المُلُوْكَ لا يَذْهَبُوْنَ إِلى كُلِّ أَحَدٍ يَقُوْلُوْنَ لَهُ افْعَلْ كَذَا، افْعَلْ كَذَا.

وَالْمُلُوكُ بَشَرٌ كَالْبَشَرِ، يَقْدِرُ كُلُّ أَحَدٍ أَنْ يَرَاهُمْ وَيَسْمَعَ كَلامُهُمْ، وَلا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَرَى الله وَيَسْمَعَ كَلامَهُ وَيُكَلِّمَهُ، وَلا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ إلا مَنْ أَرَادَ اللَّهُ، إِذَا أَرَادَ اللَّهُ.

فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُرْسِلَ إِلى النَّاسِ رَسُوْلاً يُكَلِّمُهُمْ وَيَنْصَحُ لَهُمْ.

١٠ ـ بَشَرٌ أَمْ مَلَكٌ

وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَكُوْنَ هَذَا الرَّسُوْلُ بَشَراً، وَأَنْ يَكُوْنَ وَاحِداً مِنَ النَّاسِ، يَعْرِفُهُ النَّاسُ وَيَفْهَمُوْنَ كَلامَهُ وَإِذَا كَانَ الرَّسُولُ مَلَكاً قَالَ النَّاسُ: مَا لَنَا وَلَهُ؟ هُوَ مَلَكٌ وَنَحْنُ بَشَرٌ!

نَحْنُ نَأْكُلُ وَنَشْرَبُ وَلَنَا أَهْلٌ وَذُرِّيَّةٌ فَكَيْفَ نَعْبُدُ اللَّهَ؟

وَإِذَا كَانَ الرَّسُولُ بَشَراً قَالَ أَنَا آكُلُ وَأَشْرَبُ وَلِيَ أَهْلٌ وَذُرِّيَّةٌ وَأَنَا أَعْبُدُ اللَّهَ فَلِمَ لا تَعْبُدُوْنَ اللَّهَ؟

وَإِذَا كَانَ الرَّسُولُ مَلَكاً قَالَ النَّاسُ: إِنَّك لا تَعْطَشُ وَلا تَجُوْعُ، وإِنَّكَ لا تَمْرَضُ وَلا تَمُوْتُ فَتَعْبُدُ اللَّهَ وَتَذْكُرُهُ دَائِماً!

وَنَحْنُ بَشَرٌ نَعْطَشُ وَنَجُوعُ، وَنَمْرَضُ وَنَمُوْتُ، فَكَيْفَ نَعْبُدُ اللَّهَ وَنَذْكُرُهُ دَائِماً؟

وَإِذَا كَانَ الرَّسُوْلُ بَشَراً قَالَ أَنَا مِثْلُكُمْ أَعْطَشُ وَأَجُوْعُ وَأَمْرَضُ وَأَمُوْتُ وَأَعْبُدُ اللَّهَ وَأَذْكُرُهُ، فَلِمَاذَا لا تَعْبُدُوْنَ اللَّهَ وَلا تَذْكُرُوْنَهُ؟

فَيَنْقَطِعُ كَلامُ النَّاسِ وَلا يَجِدُوْنَ عُذْراً.

١١ ـ نُوحٌ الرَّسُولُ

وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُرْسِلَ نُوْحاً إِلى قَوْمِهِ.

كَانَ فِي القَوْمِ أَغْنِيَاءُ وَرُؤَسَاءُ، وَلِكَنَّ اللَّهَ اخْتَارَ نُوْحاً لِرِسَالَتِهِ، وَلَمْ يَخْتَرْ أَحَداً مِنْهُمْ.

اللَّهُ يَعْلَمُ مَنْ يَحْمِلُ رِسَالَتَهُ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَنْ يَحْمِلُ أَمَانَتَهُ.

وَكَانَ نُوْحٌ رَجُلاً صَالِحاً كَرِيماً، وَكَانَ نُوْحٌ رَجُلاً عَاقِلاً حَلِيْماً.

وَكَانَ نُوْحٌ نَاصِحاً شَفِيْقاً، وَكَانَ نُوْحٌ صَادِقاً أَمِيْناً اخْتَارَ اللَّهُ نُوْحاً لِرِسَالَتِهِ وَأَوْحَى إِلَيْهِ: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

فَقَامَ نُوْحٌ فِي قَوْمِهِ يَقُوْلُ لِلنَّاسِ: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾.

١٢ ـ ماذا أجابَهُ الْقَوْمُ؟

وَلَمَّا قَامَ نُوْحٌ فِي قَوْمِهِ يَقُوْلُ: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾.
قَامَ بَعْضُ النَّاسِ يَقُوْلُونَ: مَتَى صَارَ هَذَا نَبِيًّا؟

بِالأَمْسِ كَانَ رَجُلاً مِنَّا وَالْيَوْمَ يَقُوْلُ أَنَا رَسُوْلُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ!

وَقَالَ أَصْدِقَاءُ نُوْحٍ: هَذَا كَانَ يَلْعَبُ مَعَنَا فِي الصِّغَرِ وَيَجْلِسُ مَعَنَا كُلَّ يَوْمٍ فَمَتَى جَاءَتْهُ النُّبُوَّةُ؟ أَلَيْلاً أَمْ نَهَاراً!

وَقَالَ الأَغْنِيَاءُ وَالْمُتَكَبِّرُوْنَ: أَمَا وَجَدَ اللَّهُ أَحَداً غَيْرَهُ؟

أَمَاتَ النَّاسُ كُلُّهُمْ، أَمَا وَجَدَ فِي الْقَوْمِ إِلَّا فَقِيراً؟

وَقَالَ الْجُهَّالُ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

وَقَالُوا: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ إِنَّ نُوحاً يُرِيدُ أَنْ يَنَالَ الرِّيَاسَةَ وَالشَّرَفَ بِهَذَا الطَّرِيقِ.

١٣ - بَيْنَ نُوحٍ وَقَوْمِهِ

كَانَ النَّاسُ يَرَوْنَ أَنَّ عِبَادَةَ الأَصْنَامِ هي الحَقُّ، وَأَنَّ عِبَادَةَ الأَصْنَامِ هِي العَقْلُ.

وَكَانُوْا يَرَوْنَ أَنَّ الَّذِي لا يَعْبُدُ الأَصْنَامَ هُوَ في ضَلالَةٍ وَسَفَاهَةٍ.

وَكَانُوا يَقُولُونَ: قَدْ كَانَ آبَاؤُنَا يَعْبُدُوْنَ الأَصْنَامَ فَلِمَاذَا لا يَعْبُدُهَا هَذَا؟!!

وَكَانَ نُوْحٌ يَرَى أَنَّ عِبَادَةَ الأَصْنَامِ ضَلالَةٌ، وَأَنَّ عِبَادَةَ الأَصْنَامِ سَفَاهَةٌ.

وَكَانَ نُوْحٌ يَرَى أَنَّ الآبَاءَ كَانُوْا فِي ضَلالَةٍ وَسَفَاهَةٍ وَأَنَّ آدَمَ وَهُوَ أَبُو الآبَاءِ مَا كَانَ يَعْبُدُ الأَصْنَامَ، بَلْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ.

وَأَنَّ القَوْمَ في ضَلالَةٍ وَسَفَاهَةٍ إِذْ يَعْبُدُوْنَ الْحِجَارَةَ وَلا يَعْبُدُونَ اللَّهَ الذي خَلَقَهُمْ.

قَامَ نُوْحٌ في الْقَوْمِ يَقُوْلُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

١٤ ـ اتَّبَعَكَ الأَرْذَلونَ

وَاجْتَهَدَ نُوْحٌ كَثِيراً أَنْ يُؤْمِنَ قَوْمُهُ وَيَعْبُدُوْا اللَّهَ وَيَتْرُكُوا الأَصْنَامَ.

وَلَكِنْ مَا آمَنَ بِنُوحٍ إِلّا بَعْضُ الأَفْرَادِ مِنْ قَوْمِهِ. مَا آمَنَ بِهِ إلا بَعْضُ الأَفْرَادِ الَّذِينَ يَعْمَلُوْنَ بِأَيْدِيْهِمْ وَيَأْكُلُونَ الحَلالَ.

أَمَّا الأَغْنِيَاءُ مِنْ قَوْمِهِ فَقَدْ مَنَعَهُمْ كِبْرُهُمْ أَنْ يُطِيْعُوا نُوْحاً.

وَشَغَلَتْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ أَنْ يُفَكِّرُوْا في الآخِرَةِ وَكَانُوا يَقُوْلُونَ: نَحْنُ أَشْرَافٌ وَهؤُلاءِ أَرَاذِلُ.

وَلَمَّا دَعَاهُمْ نُوْحٌ إلى اللَّهِ قَالُوْا:

﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾؟.

وَطَلَبُوْا مِنْ نُوْحٍ أَنْ يَطْرُدَ هَؤُلاءِ الْمَساكِيْنَ.

وَلكِنَّ نُوْحاً أَبى وَقَالَ: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤)﴾.

إِنَّ بَابي لَيْسَ بَابَ مَلِكٍ، ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥)﴾.

وَكَانَ نُوْحٌ يَعْرِفُ أَنَّ هَؤُلاءِ المَسَاكِيْنَ مُؤْمِنُوْنَ مُخْلِصُونَ.

وَأَنَّ اللَّهَ يَغْضَبُ إِذَا طُرِدَ هَؤُلاءِ المَسَاكِيْنُ، وَإِذَنْ لا يَنْصُرُهُ أَحَدٌ.

فَقَالَ نُوْحٌ: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ﴾.

١٥ ـ حُجَّةُ الأَغْنِياءِ

وَقَالَ الأَغْنِيَاءُ: الَّذِي يَدْعُوْ إِلَيْهِ نُوْحٌ لَيْسَ بِحَقٍّ وَلَيْس بِخَيْرٍ.

لِمَاذَا؟.

لأَنَّا جَرَّبْنَا أَنَّا نَحْنُ السَّابِقُوْنَ فِي كُلِّ خَيْرٍ. لَنَا كُلُّ طَيِّبٍ مِنَ الطَّعَامِ، وَلَنَا كُلُّ جَمِيْلٍ مِنَ اللِّبَاسِ. وَالنَّاسُ فِي كُلِّ شَيْءٍ لَنَا تَبَعٌ.

وَإِنَّا رَأَيْنَا أَنَّ الخَيْرَ لا يُخْطِئُنَا وَلا يُجَاوِزُنَا فِي الْمدِيْنَةِ.

فَلَوْ كَانَ هَذَا الدِّيْنُ خَيْرَاً لأَتَانَا قَبْلَ هَؤُلاءِ المَسَاكِيْنِ ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾.

١٦ ـ دَعْوَةُ نُوْحٍ

وَدَعَا نُوْحٌ قَوْمَهُ، وَاجْتَهَدَ في النَّصِيْحَةِ.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾.

وَكَانَ اللَّهُ حَبَسَ عَنْهُمُ الْمَطَرَ وَغَضِبَ عَلَيْهِمْ وَقَلَّ الحَرْثُ وَقَلَّ النَّسْلُ.

فَقَالَ نُوْحٌ: يَا قَوْمِ إِنْ آمَنْتُمْ رَضِيَ عَنْكُمْ اللَّهُ وَزَالَ هَذَا الْعَذَابُ.

وَأَرْسَلَ عَلَيْكُمْ الأَمْطَارَ وَبَارَكَ لَكُمْ فِي الرِّزْقِ والأَوْلادِ.

وَدَعَا نُوْحٌ قَوْمَهُ إِلَى اللَّهِ وَقَالَ لَهُمْ: أَلا تَعْرِفُوْنَ اللَّهَ؟ هَذِهِ آيَاتُ اللَّهِ حَوْلَكُمْ أَلا تَنْظُرُوْنَ إِلَيْهَا؟ أَلا تَنْظُرُوْنَ إِلى السَّمَاءِ والأَرْضِ؟ أَلا تَنْظُرُوْنَ إِلى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ..؟

مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ؟ وَجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُوْراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً؟

وَمَنْ خَلَقَكُمْ. وَجَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ بِسَاطاً؟

وَلَكِنَّ قَوْمَ نُوْحٍ لَمْ يَعْقِلُوا! وَلَكِنَّ قَوْمَ نُوْحٍ لَمْ يُؤْمِنُوْا! بَلْ إِذَا دَعَاهُمْ نُوْحٌ إِلى اللَّهِ جَعَلُوْا أَصَابِعَهُمْ في آذَانِهِمْ.

وَكَيْفَ يَفْهَمُ مَنْ لا يَسْمَعُ؟ وَكَيْفَ يَسْمَعُ مَنْ لا يُرِيْدُ أَنْ يَسْمَعَ؟

١٧ ـ دعاء نوح

وَاجْتَهَدَ نُوْحٌ كَثيراً وَبَقِيَ يَدْعُوْ قَوْمَهُ زَمَناً طَوِيْلاً. مَكَثَ نُوْحٌ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِيْنَ عاماً يَدْعُوْهُمْ إلى اللَّهِ.

وَلَكِنَّ قَوْمَ نُوْحٍ لَمْ يُؤْمِنُوْا.

وَلَمْ يَتْرُكُوْا عِبَادَةَ الأَصْنَامِ، وَلَمْ يَرْجِعُوْا إِلى اللَّهِ.

فَإِلَى مَتَى يَنْتَظِرُ نُوْحٌ؟ إِلى مَتَى يَرَى فَسَادَ الأَرْضِ؟ إِلى مَتَى يَرَى الحِجَارَةَ تُعْبَدُ؟

إِلى مَتَى يَرَى النَّاسَ يَأْكُلُونَ رِزْقَ اللَّهِ وَيَعْبُدُوْنَ غَيْرَهُ؟

لِمَاذَا لا يَغْضَبُ نُوْحٌ؟ إِنَّهُ صَبَرَ صَبْراً لَمْ يَصْبِرْ أَحَدٌ مِثْلَهُ!

أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِيْنَ عاماً اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ. وَقَدْ أَوْحَى اللَّهُ إِلى نُوْحٍ: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾.

وَقَالَ قَوْمُ نُوْحٍ لَمَّا دَعَاهُمْ نُوْحٌ مَرَّةً أُخْرَى.

﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

وَغَضِبَ نُوْحٌ للّٰهِ وَيَئِسَ مِنْ هَؤُلاءِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ لا تَتْرُكْ عَلَى الأَرْضِ أَحَداً مِنَ الكَافِرِينَ.

١٨ ـ السَّفِينَةُ

وَأَجَابَ اللَّهُ دَعْوَةَ نُوْحٍ وَأَرَادَ أَنْ يُغْرِقَ قَوْمَهُ وَلكِنَّ اللَّهَ يُرِيدُ كَذَلِكَ أَنْ يَنْجُوَ نُوْحٌ والْمؤْمِنُوْنَ.

فَأَمَرَ نُوْحاً أَنْ يَصْنَعَ سَفِيْنَةً كَبِيْرَةً.

وَبَدَأَ نُوْحٌ يَصْنَعُ سَفِيْنَةً كَبِيْرَةً.

وَرَآهُ قَوْمُهُ فِي هَذَا الشُّغْلِ فَوَجَدُوا شُغْلاً.

وَصَارُوا يَسْخَرُوْنَ مِنْهُ.

مَا هَذَا يَا نُوْحُ؟ مِنْ مَتَى صِرْتَ نَجَّاراً؟

أَمَا كُنَّا نَقُولُ لَكَ لا تَجْلِسْ إِلى هَؤُلاءِ الأَرَاذِلِ.

وَلَكِنَّكَ مَا سَمِعْتَ كَلامَنَا وَجَلَسْتَ إِلى النَّجَّارِينَ وَالحَدَّادِينَ فَصِرْتَ نَجَّاراً!

وَأَيْنَ تَمْشِي هَذِهِ السَّفِينَةُ يَا نُوْحُ؟ إِنَّ أَمْرَكَ كُلَّهُ عَجَبٌ.

أَتَمْشِي هَذِهِ فِي الرَّمْلِ أَمْ تَصْعَدُ الجَبَلَ؟

البَحْرُ مِنْ هُنَا بَعِيدٌ جِدًّا، هَلْ يَحْمِلُهَا الجِنُّ أَمْ تَجُرُّهَا الثِّيْرَانُ؟

وَكَانَ نُوْحٌ يَسْمَعُ كلَّ ذَلِكَ وَيَصْبِرُ، وَقَدْ سَمِعَ أَشَدَّ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ!

وَلَكِنَّهُ كَانَ يَقُوْلُ لَهُمْ أَحْيَاناً: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾.

١٩ ـ الطُّوفانُ

وَجَاءَ وَعْدُ اللَّهِ فَالْعِيَاذُ باللَّهِ!

أَمْطَرَتِ السَّماءُ وَأَمْطَرَتْ وَأَمْطَرَتْ وَأَمْطَرَتْ.

حَتَّى كَأَنَّ السَّمَاءَ مِنْخَلَةٌ لا تُمْسِكُ مَاءً.

وَنَبَعَ المَاءُ وَسَالَ حَتَّى أَحَاطَ بالنَّاسِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ.

وَأَوْحَى اللَّهُ إِلى نُوْحٍ: خُذْ مَعَكَ مَنْ آمَنَ بِكَ مِنْ قَوْمِكَ وَأَهْلِكَ.

وَأَوْحَى اللَّهُ إِلى نُوحٍ أَنْ يَأْخُذَ مَعَهُ مِنْ كُلِّ حَيَوانٍ وَطَائِرٍ زَوْجاً، ذَكَراً وَأُنْثَى.

لأنَّ الطُّوفَانَ عَامٌّ لا يَنْجُوْ مِنْهُ إنْسَانٌ وَلا حَيَوانٌ.
وَكَذَلِكَ فَعَلَ نُوْحٌ، فَكَانَ مَعَهُ في السَّفِيْنَةِ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ.

وَمِنْ كلِّ حَيَوانٍ وَطَائِرٍ زَوْجٌ.

وَسَارَتِ السَّفِيْنَةُ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كالْجِبَال.

وَارْتَقَى القَوْمُ كُلَّ مَكَانٍ عَالٍ وَكُلَّ رَبْوَةٍ يَفِرُّوْنَ مِنْ عَذَابِ اللهِ.

وَلَكِنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إلَّا إلَيْهِ.

٢٠ ـ ابْنُ نُوحٍ

وَكَانَ لِنُوحٍ ابْنٌ كَانَ مَعَ الْكَافِرِينَ.

وَرَأَى نُوْحٌ ابْنَهُ في الطُّوْفَانِ فَقَالَ: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ﴾.

﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾.

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾.

وَحَزِنَ نُوْحٌ عَلَى ابْنِهِ، وَكَيْفَ لا يَحْزَنُ وَهُوَ ابْنُهُ.

وَأَرَادَ أَنْ يَنْجُوَ ابْنُهُ مِنَ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ إِذْ لَمْ يَنْجُ مِنَ المَاءِ أَمْسِ.

إِنَّ النَّارَ أَشَدُّ مِنَ المَاءِ، وَإِنَّ عَذَابَ الآخِرَةِ أَشَقُّ أَمَا وَعَدَهُ اللَّهُ أَنَّهُ يُنْجِي أَهْلَهُ؟ بَلَى! إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ.

فَأَرَادَ أَنْ يَشْفَعَ لابْنِهِ عِنْدَ اللَّهِ.

٢١ ـ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

وَلَكِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلى الأَنْسَابِ بَلْ يَنْظُرُ إِلى الأَعْمَالِ.

وَاللَّهُ لا يَقْبَلُ الشَّفَاعَةَ في المُشْرِكِينَ.

وَلَيْسَ المُشْرِكُ مِنْ أَهْلِ النَّبِيِّ وَإِنْ كَانَ ابْنَهُ.

فَنَبَّهَ اللَّهُ نُوحاً عَلَى ذَلِكَ وَقَالَ: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

وَتَنَبَّهَ نُوحٌ وَتَابَ إِلى اللَّهِ وَقَالَ:

﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

٢٢ ـ بَعْدَ الطُّوفانِ

وَلَمَّا كَانَ مَا أَرَادَهُ اللَّهُ وَغَرِقَ الكُفَّارُ أَمْسَكَتِ السَّماءُ وَغَارَ المَاءُ.

وَاسْتَوَتِ السَّفِينَةُ عَلَى جَبلِ الجُودِيِّ ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وَقِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلام.

وَهَبَطَ نُوحٌ وَأَصْحَابُ السَّفِينَةِ يَمْشُونَ عَلَى البَرِّ بِسَلام.

وَهَلَكَ الكُفَّارُ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالأَرْضُ.

وَبَارَكَ اللَّهُ في ذُرِّيَّةِ نُوحٍ فَانْتَشَرَتْ فِي الأَرْضِ وَمَلأَتِ الأَرْضَ.

وَكَانَ فِيهَا أُمَمٌ وَكَانَ فِيهَا أَنْبِيَاءُ وَمُلُوكٌ.

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

العاصِفَةُ

١ ـ بَعْدَ نُوحٍ

بارَكَ اللَّهُ في ذُرِّيَّةِ نُوْحٍ فَانْتَشَرَتْ فِي الأَرْضِ.

وَكَانَ مِنْهَا أُمَّةٌ يُقَالُ لَهَا عَادٌ.

وَكَانُوا رِجَالاً أَقْوِيَاءَ، أَجْسَامُهُمْ كَأَنَّها مِنْ حَدِيدٍ يَغْلِبُونَ كلَّ وَاحِدٍ وَلا يَغْلِبُهُمْ أَحَدٌ.

وَلا يَخَافُونَ أَحَداً وَيَخَافُهُمْ كُلُّ أَحَدٍ.

وَبَارَكَ اللَّهُ لِعَادٍ في كُلِّ شَيْءٍ، فَكَانَتْ إِبلُ عَادٍ وَغَنَمُهَا تَمْلأُ الْوَادِي.

وَكَانَتْ خَيْلُ عَادٍ تَمْلأُ المَيْدَانَ.

وَكَانَتْ أَوْلادُ عَادٍ تَمْلأُ البُيُوتَ.

وَإِذَا خَرَجَتْ إِبلُ عَادٍ وَغَنَمُهَا إِلى الْمَرْعَى كَانَ لَهَا مَنْظَرٌ جَمِيْلٌ جِداً.

وَإِذَا خَرَجَ الأَطْفَالُ فِي الصَّبَاحِ يَلْعَبُونَ كَانَ لَهُمْ مَنْظَرٌ جَمِيلٌ جِدًّا.

وَكَانَتْ أَرْضُ عَادٍ كَذَلِكَ أَرْضاً جَمِيلَةً خَضْرَاءَ، فِيهَا بَسَاتِينُ وَعُيُونٌ كَثِيرَةٌ.

٢ ـ كُفْرَانُ عَادٍ

وَلكِنَّ عَاداً لَمْ يَشْكُرُوا اللَّهَ عَلَى هَذِهِ النِّعَمِ الْكَثِيْرَةِ وَنَسِيَتْ عَادٌ قِصَّةَ الطُّوْفَانِ الَّتِي سَمِعُوهَا مِنْ آبَائِهِمْ وَرَأَوْا آثَارَهُ فِي الأَرْضِ.

وَنَسُوا لِمَاذَا أَرْسَلَ اللَّهُ الطُّوْفَانَ عَلَى أُمَّةِ نُوْحٍ. وَصَارُوا يَعْبُدُوْنَ الأَصْنَامَ كَمَا كَانَتْ أُمَّةُ نُوْحٍ تَعْبُدُ الأَصْنَامَ.

وَكَانُوا يَنْحِتُوْنَ الأَصْنَامَ مِنَ الْحِجَارَةِ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَسْجُدُوْنَ لَهَا وَيَعْبُدُونَهَا.

وَكَانُوا يَسْأَلُونَهَا حَاجَاتِهِمْ وَيَدْعُوْنَهَا وَيَذْبَحُوْنَ لَهَا وَكَانُوا عَلَى أَثَرِ أُمَّةِ نُوْحٍ.

وَكَانَتْ عُقُولُهُمْ لا تَمْنَعُهُمْ مِنْ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ.
وَكَانَتْ عُقُولُهُمْ لا تَهْدِيهِمْ.
وَكَانُوا عُقَلاءَ في الدُّنْيَا أَغْبِيَاءَ في الدِّينِ.

٣ ـ عُدْوانُ عادٍ

وَصَارَتْ قُوَّةُ عَادٍ وَبَالاً عَلَيْهِمْ وَعَلَى النَّاسِ.
لأَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ باللَّهِ وَلا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ.
فَمَاذَا يَمْنَعُهُمْ مِنَ الظُّلْمِ؟ وَمَاذَا يَمنَعُهُمْ مِنَ الْعُدْوَانِ؟
وَلِمَاذَا لا يَظْلِمُوْنَ النَّاسَ؟ وَهُمْ لا يَرَوْنَ فَوْقَهُمْ أَحَداً، وَلا يَخَافُونَ حِسَاباً وَلا عِقَاباً.
وَكَانُوا كَوُحُوشِ الْغَابَةِ يَظْلِمُ الْكَبِيْرُ مِنْهُمُ الصَّغِيرَ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنْهُمُ الضَّعِيفَ.
وَإِذَا غَضِبُوا كَانُوا كَالْفِيلِ الْهَائِجِ، لا يَلْقَى شَيْئاً إِلَّا قَتَلَهُ.
وَكَانُوا إِذَا حَارَبُوا أَهْلَكُوا الحَرْثَ وَالنَّسْلَ.
وَإِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً.

وَكَانَ الضُّعَفَاءُ يَخَافُونَ شَرَّهُمْ، وَيَفِرُّونَ مِنْ ظُلْمِهِمْ.
وَصَارَتْ قُوَّتُهُمْ وَبالاً عَلَيْهِمْ وَعَلى النَّاسِ.
وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ لا يَخَافُ اللَّهَ وَلا يُؤْمِنُ بالآخِرَةِ.

٤ ـ قُصورُ عادٍ

وَكَانَ عَادٌ لا شُغْلَ لَهُمْ إِلَّا الأَكْلُ وَالشُّرْبُ وَاللَّهْوُ وَاللَّعِبُ.

وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَفْخَرُ عَلَى بَعْضٍ في بِنَاءِ الْقُصُورِ الْعَالِيَةِ وَالبُيُوتِ الْوَاسِعَةِ.

وَكَانَتْ أَمْوَالُهُمْ تَضِيعُ في الْماءِ والطِّينِ وَالْحِجَارَةِ وَكَانُوا لا يَرَوْنَ مَكَاناً خَالِياً أَوْ أَرْضاً مُرْتَفِعَةً إِلَّا بَنَوْا عَلَيْهَا قَصْراً رَفِيْعاً.

وَكَانُوا يَبْنُونَ بُيُوتاً كَأَنَّمَا يَسْكُنونَ فيها دَائِماً وَلا يَمُوتُونَ أَبَداً.

وَكَانُوا يَبْنونَ قُصُوراً مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ وَالنَّاسُ لا يَجِدُونَ مَا يَأْكُلُونَ وَيَلْبَسُونَ.

وَكَانَ الْفُقَرَاءُ مِنْهُمْ لا يَجِدُونَ بَيْتاً يَسْكُنونَ فيهِ وَبُيُوتُ الأَغْنِياءِ لا سَاكِنَ فِيهَا، وَمْن رَآهُمْ وَرَأَى قُصُورَهُمْ عَرَفَ أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ.

٥ ـ هُودٌ الرَّسولُ

وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُرْسِلَ إِلى عَادٍ رَسُولاً.

إِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ في الأَرْضِ.

وَكَانَ عَادٌ لا يَسْتَعْمِلُونَ عُقُولَهُمْ إِلَّا في الأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَاللَّهْوِ وَاللَّعِبِ وَبِنَاءِ البُيُوتِ.

وَقَدْ فَسَدَتْ عُقولُهُمْ لأَنَّهُمْ لا يَسْتَعْمِلُونَهَا في الدِّين وَكَانَ عَادٌ عُقَلاءَ في الدُّنْيَا أَغْبِيَاءَ في الدِّيْنِ، يَعْبُدُونَ الْحِجَارَةَ وَلا يَعْقِلُونَ.

فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهِم رَسُولاً يَهْدِيَهِمْ.

وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الرَّسُولُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، يَعْرِفُونَهُ وَيَفْهَمُونَ كَلامَهُ.

كَانَ هُودٌ ذَلِكَ الرَّسُولَ، وُلِدَ فِي بَيْتٍ شَرِيفٍ فِي عادٍ وَنَشَأَ عَلَى عَقْلٍ وَصَلاحٍ.

٦ ـ دَعْوَةُ هُودٍ

وَقَامَ هُودٌ فِي قَوْمِهِ يَدْعُو وَيَقُولُ:

﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

وَقَالَ هُودٌ: يَا قَوْمِ كَيْفَ تَعْبُدُونَ الْحِجَارَةَ وَلا تَعْبُدُونَ الَّذي خَلَقَكُمْ!؟

يَا قَوْمِ هَذِهِ الْحِجَارَةُ الَّتي نَحَتُّمُوهَا أَمْسِ كَيْفَ تَعْبُدُونَها اليَوْمَ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ، وَبَارَكَ لَكُمْ فِي الأَمْوَالِ والأَوْلادِ والحَرْثِ والنَّسْلِ.

وَجَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَرَزَقَكُمْ قُوَّةً في الْجِسْمِ.

كَانَ مِنْ حَقِّ هَذِهِ النِّعَمِ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تَعْبُدُوا غَيْرَهُ.

إِنَّ هَذا الكَلْبَ الَّذِي تَرْمُونَ إِلَيْهِ بِعَظْمٍ لا يُفَارِقُ بَيْتَكُمْ وَيَتْبَعُكُمْ كالظِّلِّ.

أَفَرَأَيْتُمْ كَلْباً يَتْرُكُ سَيِّدَهُ وَيَذْهَبُ إِلى غَيْرِهِ؟

أَوَرَأَيْتُمْ حَيَواناً يَعْبُدُ حَجَراً، أَوَرَأَيْتُمْ حَيَواناً يَسْجُدُ لِصَنَمٍ؟

هَلِ الإِنْسَانُ أَذَلُّ مِنَ الْحَيَوانِ، أَمْ هُوَ أَجَلُّ مِنَ الْحَيَوانِ؟

٧ ـ جَوابُ الْقَوْمِ

كَانَ الْقَوْمُ في شُغْلٍ مِنَ الأَكْلِ والشُّرْبِ واللَّهْوِ واللَّعِبِ.

وَقَدْ رَضُوا بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُوا بِهَا.

ضَاقَ قَلْبُهُمْ بِكَلامِ هُودٍ وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا يَقُولُ هودٌ؟ مَاذَا يُرِيدُ هُودٌ؟ نَحْنُ لا نَفْهَمُ كَلامَهُ!

قَالُوا: سَفِيهٌ أَوْ مَجْنُونٌ!

وَلَمَّا دَعَاهُمْ هُودٌ مَرَّةً أُخرَى، قَالَ أَشْرَافُ قَوْمِهِ: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾.

٨ ـ حِكْمَةُ هُودٍ

وَمَا زَالَ هُودٌ يَنْصَحُ لِقَوْمِهِ وَيَدْعُوهُمْ بِحِكْمَةٍ وَرِفْقٍ.

قَالَ هُودٌ: يَا قَوْمِ أَنَا أَخُوكُمْ وَصَدِيقُكُمْ بِالأَمْسِ! أَلا تَعْرِفُونَنِي؟

يَا إِخْوَانِي! لِمَاذَا تَخَافُونَنِي وَتَفِرُّونَ مِنِّي، إِنِّي لا أُنْقِصُ مِنْ مَالِكُمْ شَيْئاً.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾.

يَا قَوْم مَاذَا تَخَافُونَ إِنْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ، واللَّهِ لا تَفْقِدُونَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ شَيْئاً إِذَا آمَنْتُمْ بِاللَّهِ!

بَلْ يُبَارِكُ اللَّهُ لَكُمْ فِي الرِّزْقِ وَيَزِيدُ فِي قُوَّتِكُمْ.

وَيَا قَوْم لِمَاذَا تَتَعَجَّبُونَ مِنْ رِسَالَتِي؟ إِنَّ اللَّهَ لا يُكَلِّمُ وَاحِداً وَاحِداً!

إِنَّ اللَّهَ لا يُخَاطِبُ كُلَّ أَحَدٍ يَقُولُ لَهُ: افْعَلْ كَذَا، افْعَلْ كَذَا!

إِنَّ اللَّهَ يُرْسِلُ إِلى كلِّ قَوْمٍ رَجُلاً مِنْهُمْ يُكَلِّمُهُمْ وَيَنْصَحُ لَهُمْ.

وَقَدْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ أُكَلِّمُكُمْ وَأَنْصَحُ لَكُمْ: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾؟

٩ ـ إيمانُ هُودٍ

وَلَمْ تَجِدْ عَادٌ جَوَاباً! وَمَا عَلِمُوا كَيْفَ يُجِيبُونَ هُوداً!

وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا لَمَّا عَجَزُوا: قَدْ غَضِبَتْ عَلَيْكَ آلِهَتُنَا فَأَصَابَكَ مَرَضٌ في عَقْلِكَ!.

وَقَدْ وَقَعَ عَلَيْكَ وَبَالٌ مِنَ الآلِهَةِ.

قَالَ هُودٌ: إِنَّ هَذِهِ الأَصْنَامَ حِجَارَةٌ لا تَنْفَعُ أَحَداً وَلا تَضُرُّ!

وَإِنَّ هَذِهِ الأَصْنَامَ حِجَارَةٌ لا تَتَكَلَّمُ وَلا تَسْمَعُ وَلا تَنْظُرُ!

إِنَّ هَذِهِ الأَصْنَامَ لا تَمْلِكُ خَيْراً وَلا شَرًّا.
وَلا تَمْلِكُ لأَحَدٍ نَفْعاً وَلا ضَرًّا.
وإِنَّكُمْ أَيْضاً لا تَمْلِكُونَ خَيْراً وَلا شَرًّا.
وَلا تَمْلِكُونَ لي نَفْعاً وَلا ضَرًّا.
إِنِّي لَا أُوْمِنُ بِآلِهَتِكُمْ ولا أَخَافُهُمْ.
﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.
وَلا أَخَافُكُمْ أَيْضاً ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾.
﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾.
كلُّ شَيْءٍ تَحْتَ يَدِهِ، وَلا تَسْقُطُ وَرَقَةٌ إِلّا بِإِذْنِهِ.

١٠ ـ عِنادُ عادٍ

سَمِعَتْ عَادُ كُلَّ ذَلِكَ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا!
ضَاعَتْ فِيهِمْ نَصِيحَةُ هُودٍ! ضَاعَتْ فِيهِمْ حِكْمَةُ هُودٍ.
وَقَالُوا يَا هُودُ مَا عِنْدَكَ دَلِيلٌ وَلا بَيِّنَةٌ!
وَلا نَتْرُكُ يَا هُودُ آلِهَتَنَا الْقَدِيمَةَ لِقَوْلِكَ الجَدِيدِ.
أَنَتْرُكُ الآلِهَةَ التي كَانَ يَعْبُدُها آبَاؤنَا لِقَوْلِ قَائِلٍ؟

أَبَداً، أَبَداً.

وَيَا هُودُ إِنَّكَ لا تُؤْمِنُ بِآلِهَتِنَا وَلا تَخَافُهُمْ.

فَإِنَّا لا نُؤْمِنُ بِإِلَهِكَ وَلا نَخَافُ عَذَابَهُ.

وَإِنَّنَا نَسْمَعُكَ كَثِيراً تَذْكُرُ الْعَذَابَ، فَأَيْنَ هُوَ يَا هُودُ، وَمَتَى يَجِيءُ.

قَالَ هُودٌ: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

قَالَتْ عَادٌ: فَإِنَّنَا نَنْتَظِرُ ذَلِكَ الْعَذَابَ وَنَشْتَاقُ أَنْ نَرَاهُ.

وَتَعَجَّبَ هُودٌ مِنْ جَرَاءَتِهِمْ، وَتَأَسَّفَ هُودٌ عَلَى سَفَاهَتِهِمْ.

١١ ـ الْعَذَابُ

وَكَانَ عَادٌ يَنْتَظِرُونَ الْمَطَرَ كُلَّ يَوْمٍ وَيَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ فَلا يَرَوْنَ قِطْعَةَ سَحَابٍ.

وَكَانُوا فِي حَاجَةٍ إِلَى الْمَطَرِ، وَكَانَ لَهُمْ شَوْقٌ عَظِيمٌ إِلَى الْمَطَرِ.

ذَاتَ يَوْمٍ رَأَوْا سَحَابَةً تَأْتي إِلَيْهِمْ، فَفَرِحُوا جِدًّا. وَصَاحُوا: هَذِهِ سَحَابَةُ مَطَرٍ! هَذِهِ سَحَابَةُ مَطَرٍ.

وَرَقَصَ النَّاسُ فَرَحاً، وَنَادَى بَعْضُهُمْ بَعْضاً وَقَالُوا: سَحَابَةُ مَطَرٍ! سَحَابَةُ مَطَرٍ!

وَلَكِنَّ هوداً فَهِمَ أَنَّ الْعَذَابَ قَدْ جَاءَ.

وَقَالَ لَهُمْ هُودٌ: لَيْسَ هَذَا سَحَابَ رَحْمَةٍ، بَلْ هُوَ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ.

وَكَانَ كَذَلِكَ، فَقَدْ هَبَّتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ مَا رَأَى النَّاسُ مِثْلَهَا، وَمَا سَمِعَ النَّاسُ بِمِثْلِها.

وَهَبَّتْ العَاصِفَةُ تَقْلَعُ الأَشْجَارَ، وَتَهْدِمُ البُيُوتَ، وَتَحْمِلُ الدَّوَابَّ، وَتَرْمِيها إِلى مَكَانٍ بَعِيدٍ.

وَطَارَتْ رِمَالُ الصَّحرَاءِ، وَأَظْلَمَتِ الدُّنْيَا فَلا يَرَى الإِنْسَانُ شَيْئاً.

وَدَخَلَهُمُ الرُّعْبُ فَدَخلوا بُيُوتَهُمْ وَأَغْلَقُوا أَبْوابَهَا. وَاعْتَنَقَ الأَطْفَالُ بِالأُمَّهَاتِ، وَاعْتَنَقَ النَّاسُ بِالجُدْرَانِ، وَدَخَلَ النَّاسُ الحُجُرَاتِ.

الأَطْفَالُ يَبْكُونَ، والنِّسَاءُ يَصِحْنَ، والرِّجَالُ يَدْعُونَ وَيَسْتَغِيثُونَ.

وَكَأَنَّ قَائِلاً يَقُولُ:

﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

كَانَ ذَلِكَ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ.

وَمَاتَ القَوْمُ فَكَانُوا كَأَشْجَارِ النَّخِيلِ سَقَطَتْ عَلَى الأَرْضِ وَكَانَ مَنظراً غَرِيباً جِدًّا، النَّاسُ أَمْوَاتٌ يَأْكُلُهُمْ الطَّيْرُ، والبُيُوتُ خَرَابٌ يَسْكُنُهَا البُومُ.

وَنَجا هُودٌ وَالمُؤْمِنُونَ بِإِيمَانِهِمْ، وَهَلَكَتْ عَادٌ بِكُفْرِهَا وَعِنَادِهَا.

﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾.

ناقَةُ ثَمودَ

١ ـ بَعْدَ عادٍ

وَرِثَتْ ثَمُوْدُ عَاداً كَمَا وَرِثَتْ عَادٌ أُمَّةَ نُوْحٍ.

وَكَانَتْ ثَمُوْدُ عَلَى أَثَرِ عَادٍ، كَمَا كَانَتْ عَادٌ عَلَى أَثَرِ أُمَّةِ نُوْحٍ.

وَكَانَتْ أَرْضُ ثَمُوْدَ أَيْضاً أَرْضاً جَمِيْلَةً خَضْرَاءَ، فِيْهَا بَسَاتِيْنُ وَعُيُوْنٌ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ.

وَكَانَتْ ثَمُوْدُ كَعَادٍ فِي الْعِمَارَةِ والزِّرَاعَةِ وَفِي كَثْرَةِ البَسَاتِينِ.

وَفَاقُوهُمْ فِي العَقْلِ وَالصِّنَاعَةِ، فَكَانُوا يَنْحِتُوْنَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً وَاسِعةً جَمِيْلَةً، وَيَنْقُشُوْنَ فِي الحِجَارَةِ نُقُوْشاً بَدِيْعَةً.

وَقَدْ لانَ لَهُمُ الْحَجَرُ بِعَقْلِهِمْ وَصِنَاعَتِهِمْ فَيَصْنَعُونَ بِهِ مَا يَصْنَعُ الإِنْسَانُ بِالشَّمْعِ.

وَإِذا دَخَلَ الإِنْسَانُ مَدِينَتَهُمْ رَأَى عَجَباً، رأَى قُصُوراً عَظِيمةً كَالْجِبَالِ كَأَنَّمَا بَنَاهَا الْجِنُّ، وَرَأَى أَزْهَاراً جَمِيلةً فِي الجُدْرَانِ كَأَنَّمَا أَنْبَتَهَا الرَّبِيعُ.

وَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَى ثَمُودَ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، وَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَى ثَمُودَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ.

جَادَتْ لَهُمُ السَّمَاءُ بِالأَمْطَارِ، وَجَادَتْ لَهُمُ الأَرْضُ بالنَّبَاتِ والأَزْهَارِ، وَجَادَتْ لَهُمُ البَسَاتِينُ بالفَوَاكِهِ وَالأَثْمَارِ، وَبَارَكَ اللَّهُ لَهُمْ فِي الرِّزْقِ وَالأَعْمَارِ.

٢ ـ كُفْرَانُ ثَمودَ

وَلَكِنَّ كلَّ ذَلِكَ لَمْ يَحْمِلْ ثَمُودَ عَلَى الشُّكْرِ وَعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

بَلْ حَمَلَهُمْ ذَلِكَ عَلَى الكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ، وَنَسُوا اللَّهَ وَفَرِحُوا بِمَا أُوتُوا وَقَالُوا: مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟

وَظَنُّوا أَنَّهُمْ لا يَمُوتُونَ، وَلا يَخْرُجُونَ مِنْ قُصُورِهِمْ وَجَنَّاتِهِمْ أَبَداً.

وَظَنُّوا أَنَّ الْمَوْتَ لا يَدْخُلُ في هَذِهِ الْجِبَالِ وَلا يَجِدُ إِلَيْهِمْ سَبيلاً!

لَعَلَّهُمْ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ أُمَّةَ نُوحٍ إِنَّمَا غَرِقَتْ لأَنَّها كَانَتْ في الوادي.

وَأَنَّ عاداً إِنَّمَا هَلَكُوا لأَنَّهُمْ كَانُوا في السَّهْلِ!

وَأَنَّهُمْ مِنَ الخَوْفِ وَالمَوْتِ بِمَكَانٍ آمِنٍ.

٣ ـ عِبَادَةُ الأَصْنَامِ

وَلَمْ يَكْفِهِمْ هَذَا بَلْ نَحَتُوا الْحِجَارَةَ وَعَبَدُوا الأَصْنَامَ.

وَصَارُوا يَعْبُدُونَ الْحِجَارَةَ كَمَا كَانَتْ أُمَّةُ نُوحٍ تَعْبُدُهَا، وَكَذَلِكَ عَادٌ.

إِنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَهُمْ مُلُوكَ الْحِجَارَةِ وَلَكِنَّهُمْ مِنْ جَهْلِهِمْ صَارُوا عُبَّادَ الْحِجَارَةِ.

إِنَّ اللَّهَ كَرَّمَهُمْ وَرَزَقَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ.

وَلَكِنَّهُمْ أَهَانُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهَانُوا الإِنْسَانَ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

عَجَباً! إِنَّ الحَجَرَ الذي يَنْحِتُونَهُ بِأَيْدِيهِمْ فَلا يَأْبَى وَلا يَعْصِيهِمْ.

قَدْ خَضَعُوا لَهُ وَوَقَعُوا سَاجِدِينَ!.

أَيَعْبُدُ الْقَوِيُّ الضَّعِيفَ؟ أَيَسْجُدُ السَّيِّدُ لِعَبْدِهِ؟ وَلَكِنَّهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسُوا أَنْفُسَهُمْ، وَأَبَوْا أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ فَأَذَلَّهُمُ اللَّهُ.

٤ ـ صَالِحٌ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ

وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهِمْ رَسُولاً، كَمَا أَرْسَلَ إِلى أُمَّةِ نُوحٍ وَأَرْسَلَ إِلى عَادٍ رَسُولاً.

إِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ، إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ في الأَرْضِ.

وَكَانَ فِيهِمْ رَجُلٌ اسْمُهُ صَالِحٌ، وُلِدَ في بَيْتٍ شَرِيفٍ، وَنَشَأَ عَلَى عَقْلٍ وَصَلاحٍ.

وَكَانَ وَلَداً نَجِيباً جِدًّا، وَكَانَ وَلَداً رَشِيداً جِدًّا، يُشِيرُ إِلَيْهِ النَّاسُ.

وَيَقُولُونَ: هذَا صَالِحٌ، هَذَا صَالِحٌ.

وَكَانَ لِلنَّاسِ فِيهِ رَجَاءٌ كَبِيرٌ، يَقُولُونَ: سَيَكُونُ لَهُ شَأْنٌ، سَيَكُونُ لَهُ شَأْنٌ.

يَرَى النَّاسُ أَنَّ صَالِحاً يَكُونُ مِنْ أَشْرَافِهِمْ، وَيَكُونُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ.

وَيَرَوْنَ أَنَّهُ سَيَكُونُ لَهُ قَصْرٌ جَمِيلٌ وَبُسْتَانٌ كَبِيرٌ.

وَيَرَى أَبُوهُ أَنَّ ابْنَهُ يَكْسِبُ بِعَقْلِهِ مَالاً عَظِيماً وَيَخْرُجُ في النَّاسِ.

يَخْرُجُ عَلَى فَرَسٍ وَوَرَاءَهُ الخَدَمُ، فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ النَّاسُ، وَيَقُولُونَ هَذَا ابْنُ فُلانٍ، هَذَا ابْنُ فُلانٍ!

وَكَمْ يَكُونُ سُرُورُهُ إِذَا سَمِعَ النَّاسَ يَقُولُونَ إِنَّهُ سَعِيدٌ جِدًّا، إِنَّ ابْنَهُ غَنِيٌّ جِدًّا.

وَلَكِنَّ اللَّهَ أَرَادَ غَيْرَ ذَلِكَ، إِنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يُشَرِّفَهُ بِالنُّبُوَّةِ وَيُرْسِلَهُ إِلى قَوْمِهِ، لِيُخْرِجَهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلى النُّورِ.

وَهَلْ فَوْقَ ذَلِكَ شَرَفٌ؟ وَهَلْ فَوْقَ ذَلِكَ كَرَامَةٌ؟

٥ ـ دَعْوَةُ صَالِحٍ

وَقَامَ صَالِحٌ في قَوْمِهِ يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ:

﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

وَكَانَ الأَغْنِياءُ في شُغْلٍ مِنَ الأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَكَانُوا في لَهْوٍ وَلَعِبٍ.

وَكَانُوا يَعْبُدُونَ الأَصْنَامَ وَلا يَرَوْنَ إِلهاً غَيْرَهَا، فَمَا أَعْجَبَتْهُمْ دَعْوَةُ صَالِحٍ، غَضِبَ أَغْنِيَاءُ ثَمُودَ وَقَالُوا: مَنْ هَذَا؟

قَالَ الخُدَّامُ: هَذَا صَالِحٌ.

قَالُوا: مَاذَا يَقُولُ؟

قَالُوا: يَقُولُ: اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ،

وَيَقُولُ إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُكُمْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ وَيَجْزِيْكُمْ. وَيَقُولُ: أَنَا رَسُولُ اللَّهِ أَرْسَلَنِي إِلى قَوْمِي.

ضَحِكَ الأَغْنِيَاءُ وَقَالُوا: مِسْكِينٌ! هَلْ يَكُونُ هَذَا رَسُولاً؟ مَا عِنْدَهُ قَصْرٌ وَلا بُسْتَانٌ، وَمَا لَهُ زَرْعٌ وَلا نَخِيلٌ! فَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا رَسُولاً؟

٦ ـ دِعَايَةُ الأَغْنِيَاءِ

وَرَأَى الأَغْنِيَاءُ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَمِيلُونَ إِلى صَالِحٍ فَخَافُوا عَلَى رِيَاسَتِهِمْ وَقَالُوا:

﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾.

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾ .

٧ ـ قَدْ أَخْطَأَ ظَنُّنا

وَكَفَرَ النَّاسُ بِصَالِحٍ وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ .

وَلَمَّا وَعَظَهُمْ صَالِحٌ وَمَنَعَهُمْ مِنْ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ قَالُوا :

يَا صَالِحُ كُنْتَ وَلَداً نَجيباً جِدًّا ، وَكُنْتَ وَلَداً رَشِيداً جِدًّا وَكُنَّا نَظُنُّ أَنَّكَ سَتَكُونُ مِنْ كِبَارِ النَّاسِ وَأَشْرَافِهِمْ . وَكُنَّا نَظُنُّ أَنَّكَ سَتَكُونُ مِثْلَ فُلانٍ وَفُلانٍ فَلَمْ تَكُنْ شَيْئاً . والَّذِينَ كَانُوا فِي سِنِّكَ ، وَكَانُوا دُونَكَ فِي الْعَقْلِ أَصْبَحُوا رِجَالاً كِبَاراً .

وَأَنْتَ يَا صَالِحُ أَخَذْتَ سَبِيلَ الْفَقْرِ ؛ قَدْ أَخْطَأَ ظَنُّنَا فِيكَ ، قَدْ خَابَ رَجَاؤُنَا فِيْكَ .

مِسْكِينٌ أَبُوكَ ، مَا نَالَ خَيْراً مِنْكَ .

مِسْكِينَةٌ أُمُّكَ ، لَقَدْ ضَاعَ تَعَبُهَا فِيْكَ !

سَمِعَ صَالِحٌ كُلَّ هَذَا وَتَأَسَّفَ عَلَى قَوْمِهِ ؛ وَإِذَا مَرَّ صَالِحٌ بِقَوْمٍ قَالُوا : رَحِمَ اللَّهُ أَبَا صَالِحٍ لَقَدْ ضَاعَ ابْنُهُ .

٨ ـ نَصيحَةُ صَالِحٍ

وَلَمْ يَزَلْ صَالِحٌ يَنْصَحُ لِقَوْمِهِ وَيَدْعُوهُمْ إِلى اللَّهِ بِحِكْمَةٍ وَرِفْقٍ.

يَقُولُ: يَا إِخْوَانِي! أَتَظُنُّونَ أَنَّكُمْ هُنَا إِلى الأَبَدِ؟.

أَتَظُنُّونَ أَنَّكُمْ تَسْكُنونَ في هَذِهِ الْقُصُورِ دَائِماً؟.

أَتَظُنُّونَ أَنَّكُمْ لا تَزَالُونَ في هَذِهِ البَسَاتِينِ والأَنْهَارِ؟

وَأَنَّكُمْ لا تَزَالُونَ تَأْكُلُونَ مِنْ هَذِهِ الزُّرُوعِ وَالأَشْجَارِ؟

وَأَنَّكُمْ لا تَزَالُونَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً؟

أَبَداً! أَبَداً! إِنَّ ذَلِكَ لا يَكُونُ! إِنَّ ذَلِكَ لا يَكُونُ! فَلِمَاذَا مَاتَ آباؤُكُمْ يا إِخْوَاني؟!

كَانَتْ لَهُمْ قُصُورٌ، وَكَانَتْ لَهُمْ كَذَلِكَ بَسَاتِينُ وَعُيُونٌ.

وَكَانَتْ لَهُمْ زُرُوعٌ وَنَخِيلٌ، وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً يَسْكُنونَ فِيهَا.

وَلَكِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمْ يَنْفَعْهُمْ! وَلَكِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمْ يَمْنَعْهُمْ! وَوَصَلَ إِلَيْهِمْ مَلَكُ الْموْتِ وَوَجَدَ إِلَيْهِمْ سَبِيلاً! كَذَلِكَ تَمُوتُونَ أَنْتُمْ أَيْضاً وَيَبْعَثُكُمُ اللَّهُ وَيَسْأَلُكُمْ عَنْ هَذَا النَّعِيم.

٩ ـ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ

وَيا إِخْواني لِمَاذا تَفِرُّونَ مِنِّي؟ مَاذَا تَخافُونَ؟ أَنا لا أَنْقِصُ مِنْ مَالِكُمْ شَيْئاً، أَنَا لا أَطْلُبُ مِنْكُمْ شَيْئاً.

أَنَا أَنْصَحُ لَكُمْ وَأُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي.

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

وَيَا إِخْوَانِي لِمَاذَا لا تُطِيعُونَنِي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ؟

وَلِمَاذَا تُطِيعُونَ الَّذِيْنَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَهُمْ؟ والَّذِينَ يَفْجُرُونَ وَيُفْسِدُونَ في الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ!

وَعَجزَ الْقَوْمُ وَلَمْ يَجِدُوا عَلَى ذَلِكَ جَوَاباً.

فَـقَـالُـوا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾.

١٠ ـ نَاقَةُ اللَّهِ

قَالَ صَالِحٌ: وَأَيَّ آيَةٍ تُرِيدُونَ؟

قَالُوا: إِنْ كُنْتَ صَادِقاً فَأَخْرِجْ لَنَا مِنْ هَذَا الْجَبلِ نَاقَةً حَامِلاً!

وَكَانَ النَّاسُ يَعْلَمُونَ أَنَّ النَّاقَّةَ لا تَلِدُهَا إلا النَّاقَةُ وَأَنَّ النَّاقَةَ لا تَنْبُتُ مِنَ الأَرضِ، وَلا تَنْتِجُ مِنَ الحَجَرِ. وَأَيْقَنُوا أَنَّ صَالِحاً سَيَعْجِزُ وَأَنَّهُمْ سَيَنْجَحُونَ!

وَلَكِنَّ صَالِحاً كَانَ قَوِيَّ الإِيْمَانِ بِرَبِّهِ، وَكَانَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

فَدَعَا اللَّهَ صَالِحٌ، وَكَانَ كما طَلَبَ النَّاسُ، خَرَجَتْ مِنَ الجَبَلِ نَاقَةٌ حَامِلٌ وَوَلَدَتْ.

وَتَحَيَّرَ النَّاسُ وَدَهِشُوا، وَلكِنْ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْهُمْ إِلّا وَاحِدٌ.

١١ ـ النَّوْبَةُ

قَالَ صَالِحٌ: هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ، وَهَذِهِ آيَةُ اللَّهِ! سَأَلْتُمْ فَخَلَقَهَا لَكُمْ بِقُدْرَتِهِ.

فَاحْتَرِمُوا هَذِهِ النَّاقَةِ ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾.

وَإِنَّ هَذِهِ النَّاقَةَ تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وتَشْرَبُ وَتَأْتي وَتَذْهَبُ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ عَلَفُهَا وَمَاؤُهَا، فَالْعَلَفُ كَثِيرٌ وَالمَاءُ كَثيرٌ.

وَكَانَتْ هَذِهِ النَّاقَةُ كَبِيرةً جِدًّا وَغَرِيبَةً في الْخَلْقِ، فَكَانَتْ مَاشِيَتُهُمْ تَخَافُهَا وَتَنْفِرُ مِنْهَا.

وَكَانَتْ كُلَّمَا جَاءَتْ تَشْرَبُ نَفَرَتِ الْماشِيَةُ وَفَرَّتْ.

رَأَى صَالِحٌ ذَلِكَ فَقَالَ: لِلنَّاقَةِ يَوْمٌ وَلِمَاشِيَتِكُمْ يَوْمٌ. فَيَوْماً تَشْرَبُ هَذِهِ النَّاقَةُ، وَيَوْماً تَشْرَبُ مَاشِيَتُكُمْ. وَكَذَلِكَ كَانَ، فَإِذَا كَانَتْ نَوْبَةُ النَّاقَةِ ذَهَبَتْ فَشَرِبَتْ. وَإِذَا كَانَتْ نَوْبَةُ مَاشِيَةِ الْقَوْمِ ذَهَبَتْ فَشَرِبَتْ.

١٢ ـ طُغْيَانُ ثَمُودَ

وَلَكِنِ اسْتَكْبَرَ الْقَوْمُ وَطَغَوا، وَقَالُوا لِمَاذَا لا تَشْرَبُ مَاشِيَتُنَا كُلَّ يَوْمٍ.

وَضَجِرَ النَّاسُ مِنْ هَذِهِ النَّاقَةِ الَّتِي تَنْفُرُ مِنْهَا مَاشِيَتُهُمْ. وَكَانَ صَالِحٌ قَدْ حَذَّرَهُمْ مِنْ أَنْ يُهِينُوا هَذِهِ النَّاقَةَ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَحْذَرُوا.

قَالُوا: مَنْ يَقْتُلْ هَذِهِ النَّاقَةَ؟

قَامَ رَجُلٌ وَقَالَ أَنَا!

وَقَامَ الآخَرُ وَقَالَ: أَنَا!

وَذَهَبَ الشَّقِيَّانِ وَجَلَسَا يَنْتَظِرَانِ خُرُوجَ النَّاقَةِ؛ حَتَّى إِذَا خَرَجَتِ النَّاقَةُ رَمَاهَا الأَوَّلُ بِسَهْمٍ، وَنَحَرَهَا الثَّاني فَقَتَلَهَا.

١٣ ـ الْعَذَابُ

وَلَمَّا عَلِمَ صَالِحٌ أَنَّ النَّاقَةَ قَدْ نُحِرَتْ تَأَسَّفَ وَحَزِنَ جِدًّا؛ وَقَالَ لِلنَّاسِ: ﴿تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾.

وَكَانَ في الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رِجَالٍ يُفْسِدُونَ في الأَرْضِ ولا يُصْلِحُونَ؛ فَحَلَفُوا وَقَالُوا نَقْتُلُ صَالِحاً وَأَهْلَهُ في اللَّيْلِ، وَإِذَا سُئِلْنَا نَقُولُ مَا عِنْدَنَا عِلْمٌ، وَلَكِنَّ اللَّهَ حَفِظَ صَالِحاً وَأَهْلَهُ.

وَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ جَاءَهُمُ الْعَذَابُ؛ أَصْبَحُوا كَعَادَتِهِمْ فَإِذَا بِصَيْحَةٍ مَعَ زِلْزَالٍ شَدِيدٍ. صَيْحَةٌ تَفَطَّرَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَزِلْزَالٌ تَهَدَّمَتْ مِنْهُ الْبُيُوتُ وَكَانَ يَوْماً عَلَى ثَمُودَ شَدِيداً.

وَمَاتَ النَّاسُ كُلُّهُمْ وَخَرِبَتْ الْمَدِينَةُ.

وَهَاجَرَ صَالِحٌ وَالْمُؤْمِنُونَ مِن تِلْكَ الْمَدِينَةِ الشَّقِيَّةِ.

وَمَا يَصْنَعُونَ فِيهَا؟

وَخَرَجَ صَالِحٌ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلى قَوْمِهِ وَهُمْ أَمْوَاتٌ، فَقَالَ بِصَوْتٍ حَزِينٍ:

﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

وَلا يَرَى الإِنْسَانُ اليَوْمَ هُنَالِكَ إِلَّا قُصُوراً خَالِيَةً وَبِئْراً مُعَطَّلَةً.

وَلا يَرَى إِلَّا قُرًى مُوحِشَةً لَيْسَ فِيهَا دَاعٍ وَلا مُجِيبٌ.

وَلَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللّهِ ﷺ عَلَى دِيَارِ ثَمُودَ في طَرِيقِهِ إِلى الشَّامِ قَالَ لأَصْحَابِهِ: «لا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ حَذَراً مِنْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ».

﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

١ ـ مِنْ كِنْعَانَ إِلَى مِصْرَ

انْتَقَلَ يَعقُوبُ عليه السلام إلى مِصْرَ وَانْتَقَلَ مَعَهُ أَوْلادُهُ.

انْتَقَلُوا إلى مِصْرَ لِأَنَّ يُوسُفَ بْنَ يَعْقُوبَ عليهما السلام هُوَ سَيِّدُ مِصْرَ، يَأْمُرُ وَيَنْهَى فِيهَا.

وَكَانُو فِي كَنْعَانَ يَرْعَوْنَ الْغَنَمَ، وَيَحْلِبُونَ الشَّاةَ وَيَبِيعُونَ الصُّوفَ.

وَعَبِيدُ يُوسُفَ وَخَدَمُهُ يَأْكُلُونَ وَيَنْعَمُونَ فِي مِصْرَ!

فَمَا يَصْنَعُونَ فِي كَنْعَانَ؟ وَلِمَاذَا لا يَذْهَبُونَ إِلَى مِصْرَ؟

أَرْسَلَ يُوسُفُ إِلى يَعْقُوبَ وَأَهْلِهِ، وَطَلَبَهُمْ مِنْ كِنْعَانَ.

وَكَانَ يُوسُفُ لا يَطِيبُ لَهُ طَعَامٌ وَلا شَرَابٌ حَتَّى يَرى أَبَاهُ وَإِخْوَتَهُ.

وَكَيْفَ يَطِيبُ لَهُ طَعَامٌ وَشَرَابٌ، وَكَيْفَ يَطِيبُ لَهُ عَيْشٌ وَهُوَ وَحِيدٌ فِي مِصْرَ؟

وَمَاذَا يَصْنَعُ بِالْقُصُورِ وَأَبُوهُ وَإِخْوَتُهُ فِي بَيْتٍ صَغِيرٍ فِي كَنْعَانَ؟!

وَجَاءَ يَعْقُوبُ وَأَوْلَادُهُ إِلَى مِصْرَ فَاسْتَقْبَلَهُمْ يُوسُفُ وَفَرِحَ بِهِمْ فَرَحاً عَظِيماً.

وَاسْتَقْبَلَتْ مِصْرُ أُسْرَةَ سَيِّدِهَا وَأُسْرَةَ مَلِكِهَا الْكَرِيمِ، وَفَرِحَتْ بِهَا فَرَحاً عَظِيماً.

وَأَحَبَّ أَهْلُ مِصْرَ هَذَا الْبَيْتَ الْكَرِيمَ، لِأَنَّهُمْ يُحِبُّونَ يُوسُفَ لِكَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَى النَّاسِ.

ولِأَنَّهُمْ رَأَوْا فِي يُوسُفَ أَخاً نَاصِحاً شَفِيقاً، فَرَأَوْا فِي يَعْقُوبَ وَالِداً مَاجِداً كَرِيماً.

وَكَانَ يَعْقُوبُ كَبِيرَ الْبِلَادِ وَشَيْخَ مِصْرَ، وَكَانَ أَهْلُ مِصْرَ لَهُ كَالْأَبْنَاءِ.

وَطَابَتْ لِيَعْقُوبَ وَأَبْنَائِهِ الْإِقَامَةُ فِي مِصْرَ وَصَارَتْ لَهُمْ وَطَناً.

٢ ـ بَعْدَ يُوسُفَ

وَبَعْدَ مُدَّةٍ مَاتَ يَعْقُوبُ فَحَزِنَ عَلَيْهِ يُوسُفُ وَحَزِنَ عَلَيْهِ أَهْلُ مِصْرَ.

وَدَفَنُوا الشَّيْخَ فِي مِصْرَ وَكَأَنَّهُمْ فَقَدُوا أَبَاهُمْ.

وَبَعْدَ مُدَّةٍ مَاتَ يُوسُفُ أَيْضاً فَكَانَ يَوْماً عَلَى أَهْلِ مِصْرَ شَدِيداً.

وَحَزِنَ عَلَيْهِ أَهْلُ مِصْرَ حُزْناً شَدِيداً وَبَكُوا عَلَيْهِ بُكَاءً طَوِيلاً.

وَنَسِيَ النَّاسُ أَحْزَانَهُمْ وَكَأَنَّهُمْ لَمْ تُصِبْهُمْ مُصِيبَةٌ قَبْلَ هٰذَا الْيَوْمِ.

وَدَفَنُوا يُوسُفَ أَيْضاً وَعَزَّى بَعْضُهُمْ بَعْضاً، فَكَانُوا فِي يُوسُفَ سَوَاءً.

كُلُّ صَغِيرٍ فَقَدَ أَبَاهُ وَكُلُّ كَبِيرٍ فَقَدَ أَخَاهُ.

وَمَشَى النَّاسُ إِلى إِخْوَةِ يُوسُفَ وَأَبْنَائِهِمْ يُعَزُّونَهُمْ.

وَيَقُولُونَ لَهُمْ: أَيُّها السَّادَةُ! لَيْسَتْ خَسَارَتُكُمْ اليَوْمَ أَكْبَرَ مِنْ خَسَارَتِنَا نَحْنُ.

فَقَدْ فَقَدْنَا فِي دَفِينِ الْيَوْمِ أَخاً شَفِيقاً، وَسَيِّداً رَحِيماً وَمَلِكاً عَادِلاً.

هُوَ الَّذِي أَرَاحَ الْعِبَادَ، وَأَزَالَ الظُّلْمَ مِنَ الْبِلاَدِ.

هُوَ الَّذِي مَنَعَ الْكَبِيرَ يَظْلِمُ الصَّغِيرَ، وَمَنَعَ الْقَوِيَّ يَأْكُلُ الضَّعِيفَ.

هُوَ الَّذِي أَغاثَ الْمَظْلُومَ، وَأَجَارَ الْخَائِفَ، وَأَطْعَمَ الْجَائِعَ.

هُوَ الَّذِي هَدَانَا إِلى الْحَقِّ، وَدَعَانَا إِلى اللَّهِ وَكُنَّا قَبْلَ قُدُومِهِ بَهَائِمَ لا نَعْرِفُ اللَّهَ وَلا نَعْرِفُ الآخِرَةِ.

هُوَ الَّذِي أَغَاثَنَا أَيَّامَ الْمَجَاعَةِ فَكُنَّا نَأْكُلُ وَنَشْبَعُ، وَالنَّاسُ يَمُوتُونَ فِي الْبِلادِ الأُخْرَى.

إِنَّا لا نَنْسَى مَلِكَنَا الْكَرِيمَ أَبداً وَلا نَنْسَى أَيُّهَا السَّادَةُ أَنَّكُمْ إِخْوَتُهُ وَأَهْلُ بَيْتِهِ.

وَكَمْ فَرِحَ بِكُمْ سَيِّدُنَا يَوْمَ قُدُومِكُمْ إِلى مِصْرَ وَكَمْ فَرِحْنَا بِفَرَحِ سَيِّدِنَا.

فَالْبِلادُ بِلادُكُمْ، وَإِنَّا لَكُمْ أَيُّهَا السَّادَةُ كَمَا كُنَّا فِي حَيَاةِ سَيِّدِنَا.

٣ ـ بَنو إِسْرَائِيلَ فِي مِصْرَ

وَهَكَذَا كَانَ مُدَّةً طَوِيلَةً!

فَقَدْ حَفِظَ أَهْلِ مُصْرَ مَا قَالُوا وَعَرَفُوا لِلْكِنْعَانِيِّينَ الْفَضْلَ.

وَكَانَ هَؤُلاءِ الكَنْعَانِيُّونَ الَّذِينَ كَانِو يُدْعَوْنَ «بني إسرائيل» أَصْحَابَ شَرَفٍ وَأَمْوَالٍ.

وَلَكِنْ تَغَيَّرَتِ الْأَحْوَالُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقَدْ فَسَدَتْ أَخْلاقُهُمْ، وَتَرَكُوا الدَّعْوَةَ إِلى اللَّهِ وَدُعَاءَ الخَلْقِ إِلى اللَّهِ، وسَقَطُوا عَلَى الدُّنْيَا.

وَتَغَيَّرَ لَهُمْ النَّاسُ أَيْضاً وَصَارُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ بِغَيْرِ مَا كَانُوا يَنْظُرُونَ إِلى آبَائِهِمْ.

وَصَارُوا كَسَائِرِ النَّاسِ، لا يَمْتَازُونَ عَنِ النَّاسِ إلا بِالنَّسَبِ.

وَصَارَ النَّاسُ يَحْسُدُونَ الْغَنِيَّ مِنْهُمْ، وَيَحْتَقِرُونَ الْفَقِيرَ مِنْهُمْ.

وَصَارَ أَهْلُ مِصْرَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ كَغَرِيبٍ جَاءَ مِنْ بَلَدٍ آخَرَ.

وَلَيْسَ لَهُ حَقٌّ فِي مِصْرَ.

وَكَانَ أَهْلُ مِصْرَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ هُمْ أَهْلُ الْبِلادِ وَأَنَّ مِصْرَ لِلْمَصْرِيِّينَ.

وَيَرَى بَعْضُ أَهْلِ مِصْرَ أَنَّ يُوسُفَ كَانَ غَرِيباً جَاءَ مِنْ كَنْعَانَ.

وَاشْتَرَاهُ عَزِيزُ مِصْرَ.

وَلَيْسَ لِلْكَنْعَانِيِّ أَنْ يَحْكُمَ مِصْرَ.

وَنَسِيَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَضْلَ يُوسُفَ وَكَرَمَهُ وَإِحْسَانَهُ.

٤ ـ فِرْعَوْنُ مِصْرَ

وَجَاءَ عَلَى عَرْشِ مِصْرَ فَرَاعِنَةٌ «مُلُوكُ مِصْرَ» يُبْغِضُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بُغْضاً شَدِيداً.

وَجَاءَ عَلَى عَرْشِ مِصْرَ مَلِكٌ جَبَّارٌ جِدّاً.

فَكَانَ لا يَرَى أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيل مِنْ أَوْلادِ الأَنْبِيَاءِ وَأَنَّهُمْ مِنْ بَيْتِ يُوسُفَ مَلِك مِصْرَ الْكَرِيم.

بَلْ كَانَ لا يَرَى أَنَّهُمْ بَشَرٌ يَسْتَحِقُّونَ الرَّحْمَةَ وَالإِنْصَافَ.

وَجَاءَ عَلَى عَرْشِ مِصْرَ مَلِكٌ جَبَّارٌ جِدّاً.

وَكَانَ يَرَى أَنَّ قَوْمَهُ «القِبْطَ» مِنْ نَوْعٍ، وَأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ.

الْقِبْطُ مِنْ نَوْعِ الْمُلوكِ خُلِقُوا لِيَحْكُمُوا.

وَبَنُوا إِسْرَائِيلَ مِنْ نَوْعِ الْعَبِيدِ خُلِقُوا لِيَخْدِمُوا.

وَكَانَ فِرْعَوْنُ يُعَامِلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُعَامَلَةَ الْحَمِيرِ وَالدَّوَابِّ يَسْتَخْدِمُهَا الإِنْسَانُ وَلا يُعْطِيهَا إلا قُوتَ يَوْمِهَا.

وَكَان فِرْعَوْنُ مَلِكاً جَبّاراً مُتَكَبِّراً لا يَرَى فَوْقَهُ أَحَداً.

وَكَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ بل كَانَ يَقُولُ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾

وَكَانَ مَغْرُوراً بِمُلْكِهِ وَقُصُورِهِ وَقُوَّتِهِ وَيَقُول: ﴿أَلَيْسَ

لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

وَكَأَنَّهُ كَانَ خَلِيفَةً لِنَمْرُود مَلِكَ بَابِلَ.

وَكَانَ يَغْضَبُ إِذَا عَلِمَ أَحَداً يَرَى فَوْقَهُ أَحَداً.

وَدَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَتِهِ وَالسُّجُودِ لَهُ، وَأَطَاعَهُ النَّاسُ.

وَامْتَنَعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُونَ بِرُسُلِهِ وَاشْتَدَّ غَضَبُ فِرْعَوْنَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ.

٥ ـ ذَبْحُ الْأَطْفَالِ

وذَهَبَ كَاهِنٌ قِبْطِيٌّ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَالَ لَهُ: «يُولَدُ مَوْلُودٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يَذْهَبُ مُلْكُكَ عَلَى يَدِهِ».

وَجُنَّ جُنُونُ فِرْعَوْنَ، وَأَمَرَ الشُّرْطَةَ أَنْ يَذْبَحُوا كُلَّ مَوْلُودٍ يُولَدُ في بَنِي إِسْرَائِيلَ.

وَكَانَ فِرْعَوْنُ يَرَى أَنَّهُ رَبُّ النَاسِ يَذْبَحُ مَنْ يَشَاءُ وَيَتْرُكُ مَنْ يَشَاءُ كَصَاحِبِ الْغَنَمِ يَذْبَحُ مِنْ غَنَمِهِ مَا يَشَاءُ وَيَتْرُكُ مَا يَشَاءُ.

وَانْتَشَرَتْ الشُّرْطَةُ في مِصْرَ يُفَتِّشُونَ وَيَبْحَثُونَ فَإِذَا عَلِمُوا مَوْلُوداً وُلِدَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَخَذُوهُ وَذَبَحُوهُ كَمَا تُذْبَحُ النَّعْجَةُ.

وَعَاشَتْ الذِّئَابُ فِي الْغَابَةِ، وَعَاشَتْ الْحيَّاتُ وَالْعَقَارِبُ فِي الْبَلَدِ، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لَهَا أَحَدٌ.

وَلَكِنْ مَا كَانَ لِمَوْلُودٍ في بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعِيشَ في مَمْلَكَةِ فِرْعَوْنَ.

وَذُبِحَ أُلُوفٌ مِنَ الْأَطْفَالِ أَمَامَ آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ.

وَكَانَ الْيَوْمُ الَّذِي يُولَدُ فِيه مَوْلُودٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يَوماً عَسِيراً.

وَكَانَ يَوْمَ حُزْنٍ وَبُكَاءٍ.

وَكَانَ الْيَوْمَ الَّذِي يُولَدُ فِيهِ مَوْلُودٌ في بَنِي إِسْرَائِيلَ يَوْمَ تَعْزِيَةٍ وَرِثاء.

وَكَانَ يُذْبَحُ مِئَاتٌ مِنَ الْأَطْفَالِ في يَوْمٍ وَاحِدٍ كَعِيدِ الْأَضْحَى.

يُذْبَحُ فِيهِ مِئَاتٌ مِنَ الْغَنَمِ وَالنِّعَاجِ وَالْبَقَرِ.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾.

٦ - وِلادَةُ مُوسىٰ

وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ مَا كَانَ فِرْعَوْنُ يَخَافُهُ وَيَحْذَرُهُ.

وُلِدَ ذَلِكَ الْمَوْلُودُ الَّذِي قَدَّرَ اللَّهُ أَنْ يَذْهَبَ مُلْكُ فِرْعَوْنَ عَلَى يَدِهِ.

وُلِدَ ذَلِكَ الْمَوْلُودُ الَّذِي قَدَّرَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ خَلاصُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى يَدِهِ.

وُلِدَ ذَلِكَ الْمَوْلُودُ الَّذِي قَدَّرَ اللَّهُ أَنْ يُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ عِبَادَةِ النَّاسِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ.

وُلِدَ ذَلِكَ الْمَوْلُودُ الَّذِي قَدَّرَ اللَّهُ أَنْ يُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ.

وُلِدَ مُوسى بْنُ عِمْرَانَ عَلَى رَغْمِ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ.

وَعَاشَ مُوسى ثَلاثَةَ أَشْهُرٍ عَلَى رَغْمِ الشُّرْطَةِ وَرَقَابَتِهِمْ.

٧ ـ فِي النِّيلِ

وَلَكِنْ خَافَتْ أُمُّ مُوسَى عَلَى مَوْلُودِهَا الْجَمِيلِ، وَكَيفَ لا تَخَافُ وَعَدُوُّ الأَطْفَالِ بِمِرْصَادٍ؟

وَكَيْفَ لا تَخَافُ وَقَدْ اخْتَطَفَتِ الشُّرْطَةُ عَشَرَاتٍ مِنَ الأَطْفَالِ مِنْ حِجْرِ الأُمَّهَاتِ فِي أُسْرَتِهَا.

مَاذَا تَصْنَعُ الأُمُّ الْمِسْكِينَةُ، وَأَيْنَ تُخْفِي هَذَا الْمَوْلُودَ الْجَمِيلَ وَالشُّرْطَةُ لَهُمْ عُيُونُ الْغُرَابِ، وَشَامَّةُ النَّمْلِ.

هُنَالِكَ أَغَاثَ اللَّهُ الأُمَّ الْمِسْكِينَةَ وَأَلْهَمَهَا أَنْ تَضَعَهُ فِي صُنْدُوقٍ وَتُلْقِيَهُ فِي النِّيلِ.

اللَّهُ أَكْبَرُ! كَيْفَ تَضَعُ الأُمُّ الْحَنُونُ طِفْلَهَا فِي صُنْدُوقٍ وَتُلْقِيهِ فِي النِّيلِ؟!

مَنْ يُرْضِعُ الطِّفْلَ فِي الصَّنْدُوقِ؟ وَكَيْفَ يَتَنَفَّسُ الطِّفْلُ فِي الصُّنْدُوقِ؟!

كل ذَلِكَ فَكَّرَتْ فِيهِ الأُمُّ الْحَنُونُ وَلَكِنَّهَا تَوَكَّلَتْ عَلَى اللَّهِ، وَاعْتَمَدَتْ عَلَى وَحْيِ اللَّهِ.

وَلَيْسَ الْبَيْتُ أَحْفَظَ لِلطِّفْلِ مِنَ الصُّنْدُوقِ!

هُنَا الشُّرْطَةُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَعَدُوُّ الأَطْفَالِ بِمِرْصَادٍ.

وَالشُّرْطَةُ لَهُمْ عُيُونُ الْغُرَابِ وَشَامَّةُ النَّمْلِ.

وَفَعَلَتِ الأُمُّ المِسْكِينَةُ مَا أَمَرَهَا اللَّهُ وَوَضَعَتْ طِفْلَهَا الْجَمِيلَ فِي صُنْدُوقٍ وَأَلْقَتْهُ فِي النِّيلِ.

وَجَزِعَتِ الأُمُّ الْحَنُونُ ثُمَّ صَبَرَتْ وَتَوَكَّلَتْ عَلَى اللَّهِ.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾.

٨ ـ في قَصْرِ فِرْعَوْنَ

كَانَ فِرْعَوْنُ لَهُ قُصُورٌ كَثِيرَةٌ عَلَى شَاطِئِ النِّيلِ.

وَكَانَ يَتَنَقَّلُ مِنْ قَصْرٍ إِلى قَصْرٍ وَيَتَنَزَّهُ على شَاطِئِ النِّيلِ.

وَكَانَ يَوْماً جَالِساً عَلَى شَاطِئِ النِّيلِ يَتَنَزَّهُ وَيَرَى إِلى النَّهْرِ يَجْرِي تَحْتَ رِجْلَيْهِ.

وَكَانَتْ مَعَهُ مَلِكَةُ مِصْرَ تَتَنَزَّهُ مَعَ الْمَلِكِ وَتَرَى إِلَى النِّيلِ يَجْرِي وَبَيْنَمَا يَتَنَزَّهَانِ إِذْ وَقَعَ بَصَرُهُمَا عَلَى صُنْدُوقٍ

تَلْعَبُ بِهِ أَمْواجُ النِّيلِ كَأَنَّمَا تُقَبِّلُهُ.

هَلْ تَرَى يا سَيِّدِي ذَلِكَ الصُّنْدُوقَ؟

أَيْنَ الصُّنْدُوقُ فِي النِّيلِ؟ إِنَّما هِيَ خَشَبَةٌ سَقَطَتْ فِي النِّيلِ.

لا يَا سَيِّدِي إِنَّمَا هُوَ صُنْدُوقٌ!

وَقَرُبَ الصُّنْدُوقُ، فَقَالَ النَّاسُ: نَعَمْ هَذَا صُنْدُوقٌ!

وَأَمَرَ الْمَلِكُ أَحَدَ الْخَدَمِ، وَقَالَ: إِلَيْكَ هَذَا الصُّنْدُوقَ!

وَذَهَبَ الْخَادِمُ وَأَخْرَجَ الصُّنْدُوقَ!

وفُتِحَ الصّنْدُوقُ فَإِذَا فِيه غُلامٌ جَميلٌ يَبْتَسِمُ.

وَتَحَيَّرَ النَّاسُ، كُلٌّ يَأْخُذُهُ وَيَرَاهُ.

وَتَحَيَّرَ فِرْعَوْنُ وَرَآهُ.

قَالَ بَعْضُ الْخَدَمِ: إِنَّ هَذَا الْغُلاَمُ إسرائيلي وَلا بُدَّ لِلْمَلِكِ أَنْ يَذْبَحَهُ.

وَرَأَتْهُ المَلِكَةُ، وَدَخَلَ حُبُّهُ في قَلْبِهَا فَضَمَّتْهُ إِلَى صَدْرِهَا وَقَبَّلَتْهُ.

وَشَفَعَتْ لَهُ عِنْدَ المَلِكِ وَقَالَتْ: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾.

وَهَكَذَا دَخَلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ قَصْرَ فِرْعَوْنَ، وَعَاشَ عَلَى رَغْمِ فِرْعَوْنَ وَشُرْطَتِهِ.

وَلَمْ يَهْتَدِ الشُّرْطَةُ إِلَى هَذَا المَوْلُودِ الإِسْرَائِيلِيِّ، وَلَهُمْ عُيُونُ الْغُرَابِ وَشَامَّةُ النَّمْلِ.

وَأَرَادَ اللَّهُ أَن يُرَبِّي فِرْعَوْنُ «عَدُوُّ الْأَطْفَالِ» طِفْلاً يَذْهَبُ مُلْكُهُ على يَدِهِ.

مِسْكِينٌ فِرْعَوْنُ! لَقَدْ أَخْطَأَ فِي شَأْنِ مُوسَى.

وَقَدْ أَخْطَأَ مَعَهُ وَزِيرُهُ هَامَانُ وَجُنُودُهُ.

﴿فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾.

٩ ـ مَنْ يُرْضِعُ الطِّفْلَ؟؟

وَكَانَ الطِّفْلُ الجَدِيدُ وَكَانَ الطِّفْلُ الجَمِيلُ لُعْبَةَ الْقَصْرِ وَلَهْوَ الدَّارِ.

كُلٌّ يَأْخُذُهُ وَيُقَبِّلُهُ، وَكُلٌّ يُحِبُّهُ وَيَمْدَحُه، لأَنَّ المَلِكَةَ تُحِبُّهُ حُبّاً عَظِيماً.

فَكَيْفَ لا تُحِبُّهُ سَيِّدَاتُ الْقَصْرِ وَكَيْفَ لا يُحِبُّهُ خَدَمُ الْقَصْرِ.

وَكُلٌّ يَأْخُذُهُ وَيُقَبِّلُهُ، لأَنَّ الطِّفْلَ جَميلٌ.

وَطَلَبَتِ المَلِكَةُ مُرْضِعاً تُرْضِعُ الطِّفْلَ، وَجَاءَتْ وَأَخَذَتِ الطِّفْلَ وَلَكِنَّ الطِّفْلَ يَبْكِي وَيَأْبى.

وَطَلَبَتْ المَلِكَةُ مُرْضعاً أُخْرىٰ، وَحَضَرَتْ وَأَخَذَتِ الطِّفْلَ، وَلَكِنَّ الطِّفْلَ يَبْكِي وَيَأْبى.

وَثَالِثَةٌ وَرَابِعَةٌ وَخَامِسَةٌ وَلَكِنَّ الطِّفْلَ يَبْكِي وَيَأْبى.

عَجباً! لِمَاذَا لا يَرْتَضِعُ الطِّفْلُ، لأيِّ شَيْءٍ يَبْكِي؟

اجْتَهَدَتِ الْمَرَاضِعُ أن تُرْضِعَ الطِّفْلَ لِتُسِرَّ المَلِكَةَ وَتَنَالَ مِنْهَا جَائِزَةً، ولَكِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ.

وَأَصْبَحَ الطِّفْلُ حَديثَ الْقَصْرِ وَشُغْلَ الدَّارِ.

هَلْ رَأَيْتِ يَا أُخْتِي الطِّفْلَ الجَدِيدَ؟!!

نَعَمْ قَدْ رَأَيْتُهُ؛ طِفْلٌ جَمِيلٌ جِدّاً.

وَلَكِنَّهُ طِفْلٌ غَرِيبٌ لَيْسَ كَالْأَطْفَالِ! إِنَّهُ لا يَرْتَضِعُ.
وَإِذَا أَخَذَتهُ مُرْضِعٌ يَبْكِي وَيَأْبَى أَنْ يَرْتَضِعَ؛ مِسْكِيْنٌ كَيْفَ يَعِيشُ؟ إِنَّهُ يَمُوتُ.
نَعَمْ قَدْ مَضَى عَلَيْهِ أَيَّامٌ وَلَمْ يَرْتَضِعْ.

١٠ ـ في حِجْرِ أُمِّهِ

وَقَالَتْ الْأُمُّ الْحَنُونُ لِأُخْتِ مُوسى:
اذْهَبِي يا ابْنَتِي وَانْظُرِي أَخَاكِ لَعَلَّهُ حَيٌّ.
إِنَّ اللَّهَ قَدْ وَعَدَنِي أَنَّهُ يَرُدُّ الطِّفْلَ إِلَيَّ وَأَنَّهُ يَحْفَظُهُ.
وَذَهَبَتْ أُخْتُ مُوسى تَبْحَثُ عَنْ أَخِيهَا.
وَسَمِعَتِ النَّاسَ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ طِفْلٍ جَمِيلٍ في قَصْرِ المَلِكِ.
ذَهَبَتِ السَّيِّدَةُ وَوَقَفَتْ تَسْمَعُ حَدِيثَ النِّسَاءِ فِي الْقَصْرِ.
هَلْ جَاءَتْ الْمُرْضِعُ الْتي طَلَبَتْهَا المَلِكَةُ مِنْ أَسْوَانٍ؟
نَعَمْ يَا سَيِّدَتِي، وَلَكِنَّ الطِّفْلَ أَبَى أَيْضاً وَلَمْ يَرْتَضِعْ.

يَا سَلامُ! مَا شَأْنُ هَذَا الطِّفْلُ؟ لَعَلَّ هَذِهِ هِيَ السَّادِسَةُ الَّتِي جَرَّبَتْهَا المَلِكَةُ.

نَعَمْ وَيَقُولُونَ إِنَّهَا مُرْضِعٌ نَظِيفَةٌ جِدّاً وَكُلٌّ يَرْتَضِعُ مِنْهَا.

سَمِعَتْ أُخْتُ مُوسى هَذَا الْكَلامَ وَقَالَتْ بِأَدَبٍ وَلُطْفٍ:

أَنَا أَعْرِفُ امْرَأَةً فِي الْبَلَدِ، لا بُدَّ أَنْ يَرْتَضِعَ مِنْهَا الطِّفْلُ.

قَالَتْ امْرَأَةٌ: أَنَا لا أُصَدِّقُ قَدْ جَرَّبْنَا سِتَّ مَرَاضِعَ وَلَكِنَّ الطِّفْلَ لَمْ يَرْتَضِعْ.

قَالَتْ أُخْرَى: وَلِمَاذَا لا نُجَرِّبُ السَّابِعَةَ، مَاذَا عَلَيْنَا؟

وَوَصَلَ الْخَبَرُ إِلى الْمَلِكَةِ فَطَلَبَتْ الْجَارِيَةَ وَقَالَتْ:

«اذْهَبِي وَخُذِي مَعَكِ هَذِهِ الْمَرْأَةَ».

وَجَاءَتْ أُمُّ مُوسى، وَجَاءَتْ خَادِمَةٌ وَقَدَّمَتْ إِلَيْهَا مُوسى.

فَاعْتَنَقَ الطِّفْلُ الْمَرْأَةُ وَأَقْبَلَ يَرْتَضِعُ، كَأَنَّهُ كَانَ مِنْهَا عَلَى مِيعَادٍ.

وَلِمَاذَا لا يَرْتَضِعُ وَهِيَ أُمُّهُ الْحَنُونُ؟!

وَلِمَاذَا لا يَرْتَضِعُ وَهُوَ جَائِعٌ مُنْذُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ؟!

وَعَجِبَتِ الْمَلِكَةُ وَعَجِبَ أَهْلُ الْقَصْرِ وَارْتَابَ فِرْعَوْنُ وقَال: لِمَاذَا قَبِلَ هَذَا الطِّفْلِ هَذِهِ الْمَرْأَةُ فَهَلْ هِيَ أُمُّهُ؟

قَالَتْ أُمُّ مُوسى: يا سَيِّدي أَنا امْرَأَةٌ طَيِّبَةُ الرِّيحِ طَيِّبَةُ اللَّبَنِ كُلُّ طِفْلٍ يَقْبَلُنِي.

وَسَكَتَ فِرْعَوْنُ وَأَجْرَى عَلَيْهَا رِزْقاً.

وَرَجَعَتْ أُمُّ مُوسى إلى بَيْتِهَا وَفِي حِجْرِهَا مُوسى.

﴿فَرَدَدْنَهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

١١ ـ إِلَى قَصْرِ فِرْعَوْنَ

وَلَمَّا أَتَمَّتْ أُمُّ مُوسى رَضَاعَتَهُ رَدَّتْهُ إِلى الْقَصْرِ.

وَنَشَأَ مُوسى فِي قَصْرِ الْمَلِكِ كَمَا يَنْشَأُ أَبْنَاءُ الْمُلُوكِ.

وَهَكَذَا زَالَتْ مِنْ قَلْبِ مُوسى مَهَابَةُ الْمُلُوكِ وَالْأَغْنِيَاءِ.

وَرَأَى مُوسى بِعَيْنَيْهِ كَيْفَ يَنْعَمُ فِرْعَوْنُ وَأَهْلُهُ.
وَكَيْفَ يَشْقَى بَنُو إِسْرَائِيلَ لِيَنْعَمَ فِرْعَوْنُ وَأَهْلُهُ.
وَكَيْفَ يَجُوعُ بَنو إِسْرَائِيلَ لِتَشْبَعَ دَوَابُّ فِرْعَوْنَ.
وَكَيْفَ يُعَامِلُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُعَامَلَةَ الْحَمِيرِ والدَّوَابِّ.
وَكَيْفَ يَسْتَخْدِمُونَهُمْ وَيَسُومُونَهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ.
وَكَانَ مُوسى يَرى ذَلِكَ صَبَاحَ مَسَاءَ وَيَسْكُتُ.
وَلَكِنْ كَانَ مُوسى يغِيظُهُ ذَلِكَ.
وَكَيْفَ لا يَغِيظُهُ إِهَانَةُ قَوْمِهِ وَأُسْرَتِهِ.
وَهُمْ أَبْنَاءُ الْأَنْبِيَاءِ، وَهُمْ أَبْنَاءُ الْكِرَامِ.
وَمَا ذَنْبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَلِأَنَّهُمْ لَيْسُوا أَقْباطاً؟!
أَلِأَنَّهُمْ مِنْ كَنْعَانَ؟!
هَذَا لَيْسَ بِذَنْبٍ! هَذَا لَيْسَ بِذَنْبٍ!

١٢ ـ الضَّرْبَةُ الْقَاضِيَةُ

وَلَمَّا كَانَ مُوسى شَاباً قَوِيّاً آتاهُ اللَّهُ حُكْماً وَعِلْماً.
وَكَانَ مُوسى يُبْغِضُ الظَّالِمِينَ وَيَكْرَهُهُمْ، وَيُحِبُّ

الضُّعَفَاءُ وَالْمَظْلُومِينَ وَيَنْصُرُهُمْ وَكَذَلِكَ كُلُّ نَبِيٍّ.

وَدَخَلَ مُوسى مَدِينَةَ فِرْعَوْنَ مَرَّةً وَالنَّاسُ فِي لَهْوٍ وَشُغُلٍ.

وَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهَذَا مِنَ الْأَقْبَاطِ أَعْدَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ.

فَصَرَخَ الْإِسْرَائِيلِيُّ وَنَادَى مُوسى لِنَصْرِهِ وشكا القِبْطِيَّ.

وغَضِبَ مُوسى فَضَرَبَ الْقِبْطِيَّ، فَكَانَتْ الْقَاضِيَةُ.

وَمَاتَ الْقِبْطِيُّ وَنَدِمَ مُوسى جِدّاً، وَعَرَفَ أَنَّ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ.

فَتَابَ مُوسى إلى اللَّهِ وَأَنَابَ وَكَذَلِكَ كلُّ نَبِيٍّ.

﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾.

وَتَابَ اللَّهُ عَلَى مُوسى، لِأَنَّ مُوسى لَمْ يَقْصِدْ أَنْ يَقْتُلَ الْقِبْطِيَّ، بل ضَرَبَهُ وَلَكِنَّهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ.

وَحَمِدَ اللَّهَ مُوسى وقالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْعَمَ عَلَيَّ وَغَفَرَ لِي ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

وَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ وَيَحْذَرُ مَتَى تَجِيئُهُ شُرْطَةُ فِرْعَوْنَ وَلَهُمْ عُيُونُ الْغُرَابِ وَشَامَّةُ النَّمْلِ.

وَأَصْبَحَ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ مَتى تَجِيئُهُ الشُّرْطَةُ وَيَأْخُذُونَهُ إلى الجَبَّارِ.

وَرَأى الشُّرْطَةُ قَتِيلاً قِبْطِياً مِنْ خَدَمِ فِرْعَوْنَ فَفَتَّشُوا عَنِ الْقَاتِلِ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَهْتَدُوا إِلَيْهِ.

وَمَنْ يَدُلُّهُمْ عَلَى الْقَاتِلِ وَلاَ يَعْلَمُهُ إِلَّا مُوسى والإسْرَائِيليُّ؟!

وَأَصْبَحَ الْقَتِيلُ حَدِيثَ الْبَلَدِ وَشُغْلَ الْمَدِينَةِ، كُلٌّ يَتَحَدَّثُ عَنْهُ وَلاَ يَعْلَمُ قَاتِلَهُ.

وَغَضِبَ فِرْعَوْنُ وقَالَ لِلْشُّرْطَةِ: لا بُدَّ أَنْ تُفَتِّشُوا عَنِ الْقَاتِلِ.

١٣ ـ يَظْهَرُ السِّرُّ

وَفِي الْيَوْمِ الثَّانِي يَرَى مُوسى ذَلِكَ الْإِسْرَائِيلِيَّ فِي قِتَالٍ وَخِصَامٍ مَعَ قِبْطِيٍّ آخَرَ.

وَمَا اسْتَحَى الْإِسْرَائِيلِيُّ بَلْ صَرَخَ وَنَادَى مُوسى لِنُصْرَتِهِ.

قَالَ مُوسَى إِنَّكَ رَجُلٌ وَقِحٌ، أَلا تَزَالُ فِي قِتَالٍ وَجِدَالٍ مَعَ النَّاسِ وَلا تَزَالُ تَصْرُخُ وَتُنَادِينِي.

أَلا أَزَالُ أَنْصُرُكَ وَأُسَاعِدُكَ ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾.

وَلَكِنْ أَرَادَ مُوسى أَنْ يُؤَدِّبَ الْقِبْطِيَّ قَلِيلاً وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمَا.

وَرَأَى الْإِسْرَائِيلِيُّ غَضَبَ مُوسى وَسَمِعَ مَلامَهُ.

وَخَافَ أَنْ يَضْرِبَهُ مُوسَى فَتَكُونَ الْقَاضِيَةَ، كَمَا ضَرَبَ الْقِبْطِيَّ فَكَانَتْ الْقَاضِيَةَ.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

هُنَالِكَ عَرَفَ الْقِبْطِيُّ أَنَّ مُوسى هُوَ قَاتِلُ أَمْسِ.

وَذَهَبَ الْقِبْطِيُّ وَأَخْبَرَ الشُّرْطَةَ بِأَنَّ مُوسى هُوَ الْقَاتِلُ.

وَوَصَلَ الْخَبَرُ إِلى فِرْعَوْنَ فَغَضِبَ وَقَالَ: أَذَلِكَ الْفَتَى رَبِيبُ الْقَصْرِ وَرَضِيعُ الْمُلْكِ؟

وَلَكِنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يَنْجُوَ مُوسى مِنْ شَرِّ فِرْعَوْنَ وَشُرْطَتِهِ.

إِنَّ مُوسى لَمْ يَقْصِدْ أَنْ يَقْتُلَ الْقِبْطِيَّ بَلْ ضَرَبَهُ ضَرْبَةً كَانَتِ الْقَاضِيَةَ.

وَلَكِنَّ فِرْعَوْنَ وَشُرْطَتَهُ لا يُسَلِّمُونَ ذَلِكَ وَلا يَقْبَلُونَ لِمُوسَى عُذْراً.

إِنَّ اللَّهَ قَدْ قَدَّرَ أَنْ يَذْهَبَ مُلْكُ فِرْعَوْنَ عَلَى يَدِ مُوسى، إِنَّ اللَّهَ قَدْ قَدَّرَ أَنْ يَكُونَ خَلاصُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى يَدِ مُوسى.

إِنَّ اللَّهَ قَدْ قَدَّرَ أَنْ يُخْرِجَ مُوسى النَّاسَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ يَدُ الشُّرْطَةِ الظَّالِمِينَ.

وَكَانَ رِجَالُ فِرْعَوْنَ وَوُزَرَاؤُهُ يَتَشَاوَرُونَ وَيَعْزِمُونَ عَلَى قَتْلِ مُوسى.

وَكَانَ رَجُلٌ يَسْمَعُ كُلَّ ذَلِكَ وَيَعْرِفُهُ فَجَاءَ إِلَى مُوسى

وَأَخْبَرَهُ بِالْخَبَرِ وَقَالَ: ﴿فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾.

١٤ ـ من مصر إلى مدين

وَلَكِنْ إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ مُوسى، وَمِصْرُ كُلُّها مَمْلَكَةٌ لِفِرْعَوْنَ؟!

وَشُرْطَةُ فِرْعَوْنَ بِالْمِرْصَادِ، وَلَهُمْ عُيُونُ الْغُرَابِ وَشَامَّةُ النَّمْلِ!

أَلْهَمَ اللَّهُ مُوسى أَنْ يَذْهَبَ إِلَى مَدْيَنَ الْبَلَدَ الْعَرَبِيِّ، حَيْثُ لا تَصِلُ إِلَيْهِ يَدُ فِرْعَوْنَ.

إِنَّ مَدْيَنَ بَادِيَةٌ وَقُرَىً لَيْسَ فِيهَا مَدَنِيَّةُ مِصْرَ.

وَلَيْسَ فِيهَا قُصُورُ مِصْرَ وَأَسْوَاقُ مِصْرَ.

وَلَكِنَّهَا بِلادٌ سَعِيدَةٌ لِأَنَّهَا بَعِيدَةٌ مِنْ فِرْعَونَ.

وَإِنَّهَا سَعِيدَةٌ لِأَنَّهَا بِلادٌ حُرَّةٌ لَيْسَتْ تَحْتَ حُكْمِ فِرْعَوْنَ.

يَا حَبَّذَا الْبَدَاوَةُ مَعَ الْحُرِّيَةِ وَالْعَدْلِ.

وَيَا شَقَاوَةَ الْمَدَنِيَّةِ مَعَ الْعُبُودِيَّةِ وَالذُّلِّ.

هُنَالِكَ يُصْبِحُ كُلُّ أَحَدٍ لا يَخَافُ سَطْوَةَ فِرْعَوْنَ وَقَهْرِهِ.

وَهُنَالِكَ يَبِيتُ كُلُّ أَحَدٍ لا يَخَافُ شُرْطَةَ فِرْعَوْنَ وَشَرَّهُ هُنَالِكَ لا تُذْبَحُ الأَبْنَاءُ.

قَصَدَ مُوسى مَدْيَنَ. وَخَرَجَ مِنْ مِصْرَ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ أَيَتْبَعُهُ أَحَدٌ، وَلَكِنْ نَامَ عَنْهُ الشُّرْطَةُ.

خَرَجَ مُوسى عَلَى اسْمِ اللَّهِ يَدْعُو اللَّهَ وَيَطْلُبُ مِنْهُ النَّصْرَ.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾.

١٥ ـ في مَدْيَنَ

وَصَلَ مُوسى إِلى مَدْيَنَ، لا يَعْرِفُ أَحَداً ولا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ.

فَمَنْ يَأْوِي إِلَيْهِ فِي اللَّيْلِ؟ وَأَيْنَ يَبِيتُ.

تَحَيَّرَ مُوسى وَلَكِنَّهُ أَيْقَنَ أَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُهُ.

وَكَانَ هُنَالِكَ بِئْرٌ يَسْقِي عَلَيْهَا النَّاسُ غَنَمَهُمْ وَمَاشِيَتَهُم.

وَوَجَدَ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ غَنَمَهُمَا وَتَنْتَظِرَانَ أَنْ يَسْقِيَ النَّاسُ فَتَسْقِيَا.

رَأَى مُوسَى ذَلِكَ وَفِي قَلْبِهِ حَنَانُ الْكَرِيمِ وَشَفَقَةُ الأَبِ الرَّحِيمِ.

فَقَالَ: لِمَاذَا لا تَسْقِيَانِ؟

قَالَتَا: لا يُمْكِنُ لَنَا أَنْ نَسْقِيَ غَنَمَنَا حَتَّى يَسْقِيَ النَّاسُ، لِأَنَّهُمْ أَقْوِيَاءُ، وَنَحْنُ ضُعَفَاءُ، وَلِأَنَّهُمْ رِجَالٌ وَنَحْنُ إِنَاثٌ.

وَكَأَنَّما عَرَفَتَا أَنَّ مُوسى سَيَسْأَلُهُمَا: فَلِمَاذَا لا يَسْقِيَ أَحَدٌ مِنْ رِجَالِ بَيْتِكُنَّ؟

فَسَبَقَتَا وَقَالَتَا: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾.

وَهَاجَ فِي مُوسى حَنَانُ الْكَرِيمِ وَسَقَى لَهُمَا وَذَهَبَتَا.

وَأَيْنَ يَذْهَبُ مُوسى الْآنَ؟!

وَإِلَى أَيْنَ يَأْوِي فِي اللَّيْلِ وَأَيْنَ يَبِيتُ؟! إِنَّهُ لا يَعْرِفُ أَحَداً وَلا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ!

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

١٦ ـ الطَّلَبُ

وَوَصَلَتِ الْجَارِيَتَانِ إِلى الْبَيْتِ قَبْلَ الْمِيعَادِ فَتَعَجَّبَ أَبُوهُمَا وَسَأَلَهُمَا عَنِ السَّبَبِ.

وَقَالَ لَهُمَا: مَا أَعْجَلَكُمَا يَا بِنْتَيَّ، وَكَيْفَ وَصَلْتُمَا الْيَوْمَ قَبْلَ الْمِيعَادِ؟

قَالَتْ السَّيِّدَتَانِ: قَدْ قَدَّرَ اللَّهُ لَنَا رَجُلاً كَرِيماً سَقَى لَنَا.

تَعَجَّبَ الشَّيْخُ وَعَرَفَ أَنَّهُ رَجُلٌ غَرِيبٌ لِأَنَّ أَحَداً لَمْ يَرْحَمْهُنَّ يَوْماً.

قَالَ الشَّيْخُ: وَأَيْنَ تَرَكْتُمَا الرَّجُلَ؟

قَالَتَا: تَرَكْنَاهُ فِي مَكَانِهِ، رَجُلٌ غَرِيبٌ لَيْسَ لَهُ مَأْوَى!

قَالَ الشَّيْخُ: مَا أَحْسَنْتُما يَا بِنْتَيَّ، رَجُلٌ غَرِيبٌ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْنَا وَلَيْسَ لَهُ مَأْوَى فِي الْبَلَدِ.

إِلَى مَنْ يَأْوِي فِي اللَّيْلِ، وَأَيْنَ يَبِيتُ؟!

إِنَّ لَهُ عَلَيْنَا حَقَّ الضِّيَافَةِ، وَإِنَّ لَهُ عَلَيْنَا حَقَّ الْإِحْسَانِ!

لِتَذْهَبْ إِحْدَاكُمَا وَتَأْخُذْهُ مَعَهَا.

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ﴾.

وَعَرَفَ مُوسى أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَجَابَ دُعَاءَهُ وَبَوَّأَ لَهُ، فَمَا أَبَى.

وَخَرَجَ مُوسى أَمَامَهَا لِئَلَّا يَقَعَ نَظَرُهُ عَلَيْهَا، وَمَشى مُوسى مَشْيَ الْكِرَامِ.

وَلَمَّا وَصَلَ إِلَى الشَّيْخِ سَأَلَهُ عَن اسْمِهِ وَوَطَنِهِ وَخَبَرِهِ.

وَأَخْبَرَ مُوسَى خَبَرَهُ، وَقَصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ.

سَمِعَ الشَّيْخُ كُلَّ ذَلِكَ بِصَبْرٍ وَهُدُوءٍ، وَلَمَّا انْتَهى مُوسى مِنْ قِصَّتِهِ.

﴿قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١٧ ـ الزَّواجُ

وَأَقَامُ مُوسى عِنْدَهُمْ مَقَامَ ضَيْفٍ كَرِيمٍ، بَلْ حَلَّ مِنْهُمْ مَحَلَّ الْوَلَدِ الْعَزِيزِ.

وَقَالَتْ سَيِّدَةٌ لِوَالِدِهَا يَوْماً فِي بَسَاطَةٍ وَطَهَارَةٍ.

﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾.

قَالَ الشَّيْخُ: وَمَا عِلْمُكِ بِقُوَّتِهِ وَأَمَانَتِهِ يَا بِنْتِي؟

قَالَتْ: أَمَّا قُوَّتُهُ فَلِأَنَّهُ رَفَعَ الْغِطَاءَ عَنِ الْبِئْرِ وَحْدَهُ، وَلا يَرْفَعُهُ إِلَّا جَمَاعَةٌ.

وَأَمَّا أَمَانَتُهُ يَا أَبَتِ فَلِأَنَّهُ مَشَى أَمَامِي لا يَنْظُرُ إِلَيَّ طُولَ الطَّرِيقِ.

ولا بُدَّ لِلْأَجِيرِ وَلا بُدَّ لِلْخَادِمِ أَنْ يَكُونَ قَوِياً أَمِيناً.

فَإِذَا لَمْ يَكُنْ قَوِياً ضَعُفَ عَنِ الْعَمَلِ.

وإِذَا لَمْ يَكُنْ أَمِيناً لَمْ تَنْفَعْنَا قُوَّتُهُ مَعَ خِيَانَتِهِ.

وَوَافَقَ كَلامُ السَّيِّدَةِ هَوىً فِي قَلْبِ الشَّيْخِ وَلَكِنَّهُ فَكَّرَ فِي الْمَسْأَلَةِ كَوَالِدٍ.

وَفَكَّرَ فِي الْمَسْأَلَةِ كَشَيْخٍ عَاقِلٍ.

قَالَ الشَّيْخُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا يَكُونُ أَحَقَّ مِنْ هَذا الْفَتَى بِأَنْ يَكُونَ صِهْراً لِي.

وَأَيْنَ أَجِدُ فِي الدُّنْيَا أَفْضَلَ مِنْ هَذا الشَّابِّ؟!

أَمَّا في مَدْيَنَ فَلَمْ أَجِدْ أَحَداً أَهْلاً لِذَلِكَ!

وَلَعَلَّ اللَّهَ قَدْ سَاقَ إِلَيَّ هَذَا الْفَتَى لِيَكُونَ لِي صِهْراً وَوَزِيراً.

فَقَالَ في وَقَارٍ وَشَفَقَةٍ وَحِكْمَةٍ:

﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ﴾.

وَهَذَا هُوَ صِدَاقُكَ، أَمَّا هَذِهِ السَّنَوَاتُ الثَّمَانِي فَلا بُدَّ مِنْهَا.

﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.

خَافَ الشَّيْخُ أَنْ يَذْهَبَ الشَّابُّ بِبِنْتِهِ وَيَبْقَى وَحِيداً.

وَرَأَى الشَّيْخُ أَنْ يُجَرِّبَ الشَّابَّ أَيْضاً حَتَّى إِذَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ وَدَّعَهُ.

وَافَقَ مُوسى عَلَى ذَلِكَ وَرَأَى أَنَّ هَذَا مِنَ اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ سَيُبَارِكُ فِي ذَلِكَ.

إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَاقَهُ إِلَى مَدْيَنَ وَأَرْسَلَهُ إِلى الشَّيْخِ وَأَلْقَى فِي قَلْبِهِ حَنَاناً وَحُبّاً.

فَقَالَ: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾.

وَلَكِنْ أَرَادَ مُوسَى - بِحِكْمَتِهِ وَعَقْلِهِ - أَنْ يَحْفَظَ لَهُ حَقَّ الْخِيَارِ لَعَلَّهُ يَسْأَمُ فَقَالَ:

﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

١٨ - إِلَى مِصْرَ

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ وَوَدَّعَ الشَّيْخَ وَوَدَّعَهُ الشَّيْخُ وَدَعَا لَهُ:

عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ يَا وَلَدِي! في أَمَانِ اللَّهِ يَا بِنْتِي!

وَسَافَرَ مُوسى بِأَهْلِهِ، وَاللَّيْلُ كُلُّهُ بَرْدٌ وَظَلامٌ.

وَلَكِنْ أَيْنَ النَّارُ في الصَّحْرَاءِ؟

وَمَاذَا يَصْنَعَانِ إِذَا لَمْ يَجِدَا نَاراً يَصْطَلِيَانِ بِهَا، وَلَمْ يَجِدَا نُوراً يَهْتَدِيَانِ بِهِ؟!

وَبَيْنَمَا هُمَا يَسِيرَانِ وَمُوسَى يَبْحَثُ عَنْ نَارٍ ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾.

وَسَارَ مُوسى قِبَلَ النَّارِ عَلَى جَنَاحِ الشَّوْقِ.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.

هُنَالِكَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسى وَأَوْحَى إِلَيْهِ.

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾.

وَكَانَ في يَدِ مُوسى عَصاً كَانَ يَحْمِلُهَا وَيَسْتَعِينُ بِهَا.

فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾.

وَأَجَابَ مُوسى في بَسَاطَةٍ وَسَذَاجَةٍ:

﴿هِيَ عَصَايَ﴾.

وَأَخَذَ مُوسى يَعُدُّ فَوَائِدَ هَذِهِ الْعَصَا فِي تَفْصِيلٍ لِأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُكَلِّمَ اللَّهَ وَيَكُونَ حَدِيثُهُ طَوِيلاً.

﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾.

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

وَمَنَحَ مُوسى آيَةً ثَانِيَةً، هِيَ الْيَدُ الْبَيْضَاءُ فَقَالَ:

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾.

١٩ ـ اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى

وَأَمَرَ اللَّهُ مُوسى بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنْ يَشْرَعَ عَمَلَهُ الَّذِي خَلَقَهُ لِأَجْلِهِ.

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ، إِنَّ فِرْعَوْنَ أَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ.

إِنَّ قَوْمَ فِرْعَوْنَ كَفَرُوا بِاللَّهِ، إِنَّ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَفْسَدُوا فِي أَرْضِ اللَّهِ.

إِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ.

فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَذْهَبَ مُوسى إِلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

لَكِنْ كَيْفَ يَذْهَبُ مُوسَى إِلَى فِرْعَوْنَ وَكَيْفَ يُوَاجِهُ الْجَبَّارَ.

وَهُوَ الَّذِي قَتَلَ الْقِبْطِيَّ بِالْأَمْسِ وَمَا أَمْسِ بِبَعِيدٍ!

وَهُوَ الَّذِي خَرَجَ مِنْ مِصْرَ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ، وَيَعْرِفُهُ الشُّرْطَةُ وَيَعْرِفُهُ أَهْلُ الْقَصْرِ.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾.

وَذَكَرَ مُوسى أَنَّ فِي لِسَانِهِ حُبْسَةً.

وَلَكِنَّ اللَّهَ كَانَ يَعْرِفُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُرِيدُ أَنْ يَذْهَبَ مُوسى رَغْمَ ذَلِكَ كُلِّهِ.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾.

وَأَوْصَى اللَّهُ مُوسى وَهَارُونَ بِاللِّينِ وَالرِّفْقِ مَعَ فِرْعَوْنَ.

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ مَعَ أَعْدَائِهِ إِلى حَدٍّ فَقَالَ:

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾.

٢٠ ـ أمامَ فِرْعَوْن

وَجَاءَ مُوسى وَهَارُونُ إِلى فِرْعَوْنَ وَقَامَا فِي مَجْلِسِهِ يَدْعُوَانِهِ إِلى اللَّهِ.

وَغَضِبَ الْجَبَّارُ مِنْ جَرَاءَةِ مُوسى وَقَالَ فِي عُلُوٍّ وَكِبْرٍ:

مَنْ تَكُونُ أَيُّهَا الشَّابُّ حَتَّى تَقُومَ فِي مَجْلِسِي وَتَعِظُنِي. أَلَسْتَ ذَلِكَ الْغُلَامُ الَّذِي الْتَقَطْنَاهُ مِنَ الْبَحْرِ؟!

﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾.

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩)﴾.

وَلَمْ يَغْضَبْ مُوسى وَلَمْ يَكْذِبْ وَلَمْ يَجْحَدْ وَلَمْ يَعْتَذِرْ بَلْ أَجَابَ فِي صَرَاحَةٍ وَوَقَارٍ.

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١)﴾،

وَقَالَ مُوسَى: إِنَّكَ يَا فِرْعَوْن تَمُنُّ عَلَيَّ بِالتَّرْبِيَةِ وَلَكِنْ لا تَنْظُرُ لِمَاذَا وَقَعْتُ بِيَدِكَ وَكَيْفَ أَمْكَنَكَ أَنْ تُرَبِّيَنِي؟.

إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَأْمُرْ بِقَتْلِ الأَطْفَالِ لَمَا أَلْقَتْنِي أُمِّي فِي النِّيلِ وَمَا وَقَعْتُ بِيَدِكَ.

وَهَلْ هَذِهِ نِعْمَةٌ تُعَدُّ وَتُذْكَرُ فِي جَنْبِ ظُلْمِكَ وَقَسَاوَتِكَ؟

إِنَّكَ عَامَلْتَ قَوْمِي كُلَّهُمْ مُعَامَلَةَ الْحَمِيرِ وَالدَّوَابِّ.

وَكُنْتَ تَزْجُرُهُمْ زَجْرَ الْكِلابِ.

وَكُنْتَ تَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ.

فَأَيُّ فَضْلٍ لَكَ إِذَا كَفَلْتَ طِفْلاً مِنْهُمْ؟! وَذَلِكَ أَيْضاً عَنْ جَهْلٍ وَخَطَإٍ!

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾.

٢١ ـ الدَّعْوَةُ إِلى اللَّهِ

وَعَجِزَ فِرْعَوْنُ وَلَمْ يَجِدْ جَوَاباً، فَأَرَادَ أَنْ يَتَخَلَّصَ فَقَالَ:

﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الَّذِي أَسْمَعُكَ تَذْكُرُهُ؟

﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾.

غَضِبَ فِرْعَوْنُ مِنْ هذَا الْجَوَابِ وَأَرَادَ أَنْ يَغْضَبَ أَهْلُ الْمَجْلِسِ وَيَتَعَجَّبُوا.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾؟!!

وَلَمْ يَقْطَعْ مُوسى الْكَلامَ بَلْ ضَرَبَ فِرْعَوْنَ ضَرْبَةً ثَانِيَةً.

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

واشْتَدَّ غَضَبُ فِرْعَوْنَ وَلَمْ يَصْبِرْ وَقَالَ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

وَلَمْ يَقْطَعْ مُوسى الْكَلامَ وَضَرَبَ فِرْعَوْنَ ضَرْبَةً ثَالِثَةً.

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

وَأَرَادَ فِرْعَوْنُ أَنْ يَشْغَلَ مُوسى عَنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ الْمُرِّ.

وَأَرَادَ فِرْعَوْنُ أَنْ يُثِيرَ غَضَبَ مَلَئِه.

فَقَالَ: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾؟!

قَالَ فِرْعَوْنُ فِي نَفْسِهِ: إِذَا قَالَ مُوسى إِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْحَقِّ.

قُلْت: فَإِنَّهُم كَانُوا يَعْبُدُونَ الأَصْنَامَ!

وَإِذَا قَالَ مُوسى إِنَّهُمْ كَانُوا فِي ضَلَالَةٍ وَسَفَاهَةٍ، غَضِبَ أَهْلُ المَجْلِسِ وَقَالُوا إِنَّ مُوسى سَبَّ آبَاءَنَا.

ولَكِنَّ مُوسى كَانَ أَعْقَلَ مِنْ فِرْعَوْنَ وَكَانَ مُوسى عَلَى نُورٍ من رَبِّه، فَقَالَ:

﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ .

ثُمَّ أَنْشَأَ مُوسى يَقُولُ مَا كَانَ فِرْعَوْنُ يَفِرُّ مِنْهُ وَيَتَخَلَّصُ :

﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ .

وَتَحَيَّرَ فِرْعَوْنُ وَبُهِتَ وَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ فَقَالَ مَا تَقُولُهُ الْمُلُوكُ كُلُّهُمْ إِذَا عَجَزُوا وَغَضِبُوا .

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ .

٢٢ ـ مُعْجِزَاتُ مُوسى

وَلَمَّا أَطْلَقَ فِرْعَوْنُ سَهْمَهُ ، أَرَادَ مُوسى أَنْ يَرْمِيَهُ بِسَهْمِ اللَّهِ .

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ ؟!

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ .

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ .

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ .

وَوَجَدَ فِرْعَوْنُ مَقَالاً يَقُولُهُ لِجُلَسَائِهِ.

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

وَوَافَقَ أَهْلُ الْمَجْلِسِ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

وَرَمى فِرْعَوْنُ مُوسى بِسَهْمٍ آخَرَ فَقَالَ:

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

وَأَرَادَ فِرْعَوْنُ أَنْ يُخَوِّفَ الْمَلأَ مِنْ مُوسى فِعْلَ الْمُلُوكِ.

فَقَالَ: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

أَشَارَ الْمَلأُ عَلَى الْمَلِكِ أَنْ يَجْمَعَ السَّحَرَةَ مِنْ مَمْلَكَتِهِ وَيَرْمِيَ بِهِمْ مُوسى.

وَهَكَذَا كَانَ: نُودِيَ في مَمْلَكَةِ مِصْرَ «أَلا مَنْ كَانَ يَعْرِفُ السِّحْرَ فَلْيَحْضُرْ إِلَى الْمَلِكِ».

وَاجْتَمَعَ السَّحَرَةُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِي الْمَمْلَكَةِ.

وَكَانَ يَوْمُ الزِّينَةِ هُوَ الْمِيعَادَ.

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾؟.

٢٣ - إلى المَيْدانِ

وَتَرَى النَّاسَ يَخْرُجُونَ مِنْ بُيُوتِهِمْ ضُحىً! وَيَمْشُونَ إِلَى الْمِيدَانِ أَفْوَاجاً.

وَيَمْشُونَ إِلى الْميدَانِ أَطْفَالاً، وَشُبَّاناً وَشُيُوخاً، وَرِجَالاً وَنِسَاءً.

وَلَمْ يَبْقَ فِي البَيْتِ إِلَّا مَرِيضٌ أَوْ عَاجِزٌ.

وَلا تَسْمَعُ في الْمَطَرِيَّةِ[١] إِلَّا حَدِيثَ السِّحْرِ وَأَسْمَاءَ السَّحَرَةِ.

هَلْ جَاءَ سَاحِرُ أَسْوَانَ[٢] الأَكْبَرُ أَيْضاً؟

نَعَمْ وَسَاحِرُ الأُقْصُرِ[٣] وَسَاحِرُ الْجِيزَةِ[٤] الشَّهِيرُ!

---

(١) قصبة مصر أيام الفراعنة.

(٢)(٣)(٤) مدن مصر القديمة.

مَاذَا تَرَى يَا أَخِي مَنْ يَغْلِبُ؟

إِنَّ مِصْرَ قَدْ أَلْقَتْ أَفْلاذَ كَبِدِهَا تَرَى يَغْلِبُهُمْ أَحَدٌ!

وَكَيْفَ يَغْلِبُهُمْ مُوسى وَأَخُوهُ وَأَيْنَ تَعَلَّمَا السِّحْرَ؟

نَشَأَ فِي قَصْرِ الْمَلِكِ ثُمَّ خَرَجَ مِنْ مِصْرَ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ وَكَانَ فِي مَدْيَنَ سِنِينَ.

فَأَيْنَ تَعَلَّمَا السِّحْرَ؟

أَفِي مِصْرَ؟ لَا!

أَفِي مَدْيَنَ؟ مَا سَمِعْنَا أَنَّ هُنَالِكَ فَنّاً!

وَجَاءَ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَهُمْ بَينَ يَأْسٍ وَرَجَاء وَلَعَلَّ الْيَأْسَ أغْلَبُ، اللَّهُ يَرْحَمُ ابْنَ عِمْرَانَ! اللَّهُ يَنْصُرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

وَجَاءَ السَّحَرَةُ وَأَقْبَلُوا بِخُيَلَائِهِمْ وَفَخْرِهُمْ.

وَخَرَجُوا فِي مَلَابِسَ مُلَوَّنَةٍ وَخَرَجُوا يَحْمِلُونَ الْعِصيَّ وَالْحِبَالَ.

وَخَرَجُوا يَضْحَكُونَ وَيَمْرَحُونَ، اليوم يوم الْفَنِّ!

الْيَوْمَ يَرَى الْمَلِكُ صَنِيعَنَا، الْيَوْمَ يَرَى الْقَوْمُ فَضْلَنَا!

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

وَهَذِهِ هِيَ جَائِزَةُ الْمُلُوكِ! وَهَذَا عَطَاءُ الْمُلُوكِ!

وَهَذَا الَّذِي يُخْدَعُ بِهِ الرِّجَالُ! وَهَذا الَّذِي يُصَادُ بِهِ الأَبْطَالُ!

وَفَرِحَ السَّحَرَةُ بِمَوَاعِيدِ فِرْعَوْنَ.

٢٤ ـ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾.

﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

وَرَأَى النَّاسُ عَجَباً، حَيَّاتٌ تَسْعَى فِي الْميدانِ، وَدُهِشَ النَّاسُ وَتَراجَعُوا إِلَى الْخَلْفِ وَهَتَفُوا: حَيَّاتٌ! حَيَّاتٌ!

وَصَاحَتِ النِّسَاءُ وَبَكَتِ الأَطْفَالُ وَعَلَا الهُتَافُ فِي الْمَيْدَانِ: حَيَّاتٌ! حَيَّاتٌ!

وَرَأى مُوسى مَا رَأى النَّاسُ وَتَعَجَّبَ ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾.

وَخَطَرَ فِي قَلْبِ مُوسى خَاطِرُ خَوْفٍ! وَلِمَاذَا لا يَخَافُ مُوسى؟

هذَا يَوْمُ الرِّهَانِ! وَعِنْدَ الامْتِحَانِ يُكْرَمُ الرَّجُلُ أَوْ يُهَانُ!

وَإِذَا غَلَبَ السَّحَرَةُ ـ لَا قَدَّرَ اللَّهُ ذَلِكَ.

وَإِذَا غُلِبَ مُوسَى ـ لا سَمَحَ اللَّهُ بِذَلِكَ.

فَمَاذَا يَكُونُ؟ الْعِيَاذُ بِاللَّهِ!!

وَلَيْسَ غَلَبُ مُوسى غَلَبَ رَجُلٍ، بَلْ هُوَ غَلَبُ دِينٍ أَمَامَ مَلِكٍ.

بَلْ هُوَ غَلَبُ حَقٍّ أَمَامَ بَاطِلٍ.

لَا قَدَّرَ اللَّهُ ذَلِكِ! لا سَمَحَ اللَّهُ بِذَلِكَ!

ولَكِنَّ اللَّهُ شَجَّعَهُ وَقَالَ:

﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

ودَهِشَ السَّحَرَةُ وَبُهِتُوا.

أَيُّ شَيْءٍ هَذَا؟ إِنَّا نَعْرِفُ السِّحْرَ وَأَصْلَهُ وَإِنَّا نَعْرِفُ السِّحْرَ وَأَنْوَاعَهُ.

وَنَحْنَ أَسَاتِذَةُ الْفَنِّ! وَنَحْنُ أَئِمَّةُ الْفَنِّ!

هَذَا لَيْسَ مِنَ السِّحْرِ! هَذَا لَيْسَ مِنَ السِّحْرِ!

لَوْ كَانَ مِنَ السِّحْرِ لَضَرَبْنَا السِّحْرَ بالسِّحْرِ وَقَرَعْنَا الْفَنَّ بِالْفَنِّ!

وَلَكِنِ اضْمَحَلَّ فَنُّنَا أَمَامَ هَذَا، وَذَابَ كَمَا يَذُوبُ النَّدَى أَمَامَ الشَّمْسِ.

فَمِنْ أَيْنَ هَذَا؟ هَذَا مِنَ اللَّهِ!

اقْتَنَعَ السَّحَرَةُ بِأَنَّ مُوسى نَبِيٌّ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ مَنَحَهُ مُعْجِزَةً فَصَرَخُوا وَهَتَفُوا:

﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾.

﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (١٢٠) قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١٢٢)﴾.

٢٥ ـ وَعِيدُ فِرْعَوْنَ

وَجُنَّ جُنُونُ فِرْعَوْنَ!

وَقَامَ فِرْعَوْنُ وَقَعَدَ وَبَرَقَ فِرْعَوْنُ وَرَعَدَ.

مِسْكِينٌ فِرْعَوْنُ وَقَعَ مَا لَمْ يَكُنْ يَرْجُوهُ!

إِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَهْزِمَ مُوسى بِالسَّحَرَةِ فَأَصْبَحَ السَّحَرَةُ جُنْدَ مُوسى.

إِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَصُدَّ النَّاسَ عَنْ مُوسى فَجَاءَ بِالسَّحَرَةِ فَإِذَا بِهِمْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ!

إِنَّ سِهَامَهُ ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ.

وَكَانَ فِرْعَوْنُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ مَلِكُ الْعُقُولِ كَمَا أَنَّهُ مَلِكُ الأَجْسَامِ.

وَأَنَّ لَهُ سُلْطَاناً عَلَى الْقُلُوبِ كَمَا أَنَّ لَهُ سُلْطَاناً عَلَى الْأَلْسِنَةِ.

وَلَيْسَ لأَحَدٍ فِي مِصْرَ أَنْ يَعْتَقِدَ شَيْئاً أَوْ يُؤْمِنَ بِشَيْءٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَقَالَ فِي كِبْرٍ وَجَبَرُوتٍ.

﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؟!

وَرَمَاهُمْ فِرْعَوْنُ بِسَهْمٍ مِنْ سِهَامِ الْمُلُوكِ فَقَالَ:

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾!

وَرَمَاهُمْ بِسَهْمٍ ثَانٍ فَقَالَ:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾!!

وَرَمَاهُمْ بِسَهْمٍ ثَالِثٍ مَسْمُومٍ هُوَ السَّهْمُ الأَخِيرُ في كِنَانَةِ الْمُلُوكِ.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

وتَلَقى الْمُؤْمِنُونَ السِّهَامَ كُلَّهَا بِجُنَّةِ الإِيمَانِ وَالصَّبْرِ وَقَالُوا:

﴿لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾.

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾.

وَقَالُوا في إِيمَانٍ وَحَمَاسَةٍ:

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾.

٢٦ ـ سَفَاهَةُ فِرْعَوْنَ

وَاهْتَمَّ فِرْعَوْنُ بِأَمْرِ مُوسى كَثِيراً وَطَارَ نَوْمُهُ.

وَبَقِي فِرْعَوْنُ لا يَطِيبُ لَهُ طَعَامٌ وَلا شَرَابٌ.

وَأَثَارَ غَضَبَهُ الآخَرُونَ أَيضاً وَقَالُوا:

﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ﴾؟!

وَغَضِبَ فِرْعَوْنُ وَثَارَ.

﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾.

وَأَرَادَ فِرْعَوْنُ أَنْ يَصُدَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَهْلَ مِصْرَ عَنْ مُوسى بِكُلِّ حِيلَةٍ.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾!

وَقَالَ فِرْعَوْنُ فِي رَزَانَةٍ وَحِلْمٍ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾!!

كَأَنَّهُ فَتَّشَ كَثِيراً وَفَكَّرَ كَثِيراً وَنَصَحَ لِقَوْمِهِ.

وَقَالَ فِي سَفَاهَةٍ وَجُنُونٍ:

﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾

وَأَوْقَدَ هَامَانُ عَلَى الطِّينِ، وَبَنَى صَرْحاً وَلَكِنْ إِلَى أَيْنَ؟ تَعِبَ هَامَانُ وَتَعِبَ الْبَنَّاؤُونَ وَنَفِدَ الطِّينُ وَالآجُرُّ.

وَلَا يَزَالُ فِرْعَوْنُ بَعِيداً لَمْ يَصِلْ إِلَى السَّحَابِ فَضْلاً عَنِ الْقَمَرِ.

وَلَمْ يَصِلْ إِلَى الْقَمَرِ فَضْلاً عَنِ الشَّمْسِ.

وَلَمْ يَصِلْ إِلَى الشَّمْسِ فَضْلاً عَنِ الْكَوَاكِبِ.

وَلَمْ يَصِلْ إِلَى الْكَوَاكِبِ فَضْلاً عَنِ السَّمَاءِ.

وَخَابَ فِرْعَوْنُ وَخَجِلَ وَعَجَزَ فِرْعَوْنُ وَقَعَدَ.

مِسْكِينٌ أَلا يَدْرِي أَنَّ اللَّهَ ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾.

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾.

وَلَمْ يَجِدْ فِرْعَوْنُ حِيلَةً إِلَّا أَنْ يَقْتُلَ مُوسى وَحُجَّتَهُ أَنَّ مُوسى يُظْهِرُ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

١ ـ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ

وَلَمَّا أَرَادَ فِرْعَوْنُ أَنْ يَقْتُلَ مُوسى قَامَ رَجُلٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ وَقَالَ:

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

وَقَالَ الرَّجُلُ الرَّشِيدُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ: لِمَاذَا تَتَعَرَّضُونَ لِمُوسى وَلِمَاذَا تُؤْذُونَهُ؟

إِذَا لَمْ تُؤْمِنُوا بِهِ فَاتْرُكُوهُ وَشَأْنَهُ وَخَلُّوا سَبِيلَهُ.

﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾.

وَإِذَا آذَيْتُمُوهُ وَوَقَعْتُمْ بِهِ وَكَانَ نَبِيًّا فَلَكُمْ الْوَيْلُ.

﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾.

وَيَا إِخْوَانِي لا تَغْتَرُّوا بِمُلْكِكُمْ، وَلا تَغْتَرُّوا بِقُوَّتِكُمْ وَجُنُودِكُمْ.

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾؟!

وَكَانَ جَوَابُ فِرْعَوْنَ أَنْ قَالَ:

﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

وَأَرَادَ الرَّجُلُ الرَّشِيدُ أَنْ يُحَذِّرَ قَوْمَهُ سُوءَ الْعَاقِبَةِ وَمَصِيرَ الظَّالِمِينَ فَقَالَ:

﴿يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾.

وَخَوَّفَهُمُ الرَّجُلُ الرَّشِيدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَمَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ؟

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾.

يَوْمَ يُنَادِي المَلِكُ الجَبَّارُ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

يَوْمَ يَفْزَعُ النَّاسُ وَيَصْرُخُونَ، وَيُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وَيَوْمَ يُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَالَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ.

فَقَالَ الرَّجُلُ الرَّشِيدُ:

﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾.

وَقَالَ الرَّجُلُ الرَّشِيدُ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ وَهَبَكُمْ نِعْمَةً وَلَكِنَّكُمْ مَا عَرَفْتُمْ فَضْلَهَا وَمَا قَدَّرْتُمُوها حَقَّ قَدْرِهَا حَتَّى إِذَا ذَهَبَتْ تَأَسَّفْتُمْ عَلَيْهَا.

ذَلِكَ يُوسُفُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ صَلَاةُ اللَّهِ وَسَلامُهُ الَّذِي مَا عَرَفْتُمُوهُ وَلَمْ تَقْدِرُوهُ قُدْرَهُ.

ولكِنَّهُ لَمَّا مَاتَ قُلْتُمْ: سُبْحَانَ اللَّهِ نبيٌّ ولا كَيُوسُفَ.

مَلِكٌ وَلا كَيُوسُفَ! رَجُلٌ ولا كَيُوسُفَ!

وَمَنْ لَنَا بِنَبِيٍّ بَعْدَهُ؟! مَنْ لَنَا بِمِثْلِهِ؟!

أَبَداً! لَنْ يَأْتِيَ مِثْلُهُ!

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾.

كَذَلِكَ تَفْعَلونَ بَعْدَ هَذا النَّبيِّ أَيْضاً! وَتَنْدَمُونَ!

٢ ـ نَصِيحَةُ الرَّجُلِ

وَوَعَظَ الرَّجُلُ قَوْمَهُ وَبَذَلَ لَهُمْ وُدَّهُ وَنَصِيحَتَهُ.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾.

وَعَلِمَ الرَّجُلُ الرَّشِيدُ أَنَّ الْقَوْمَ فِي سَكْرَةٍ مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا.

وأَنَّ فِرْعَوْنَ مَغْرُورٌ بِمُلْكِهِ وَقُوَّتِهِ.

وَلكِنَّ هذِهِ الْحَياةَ حُلْمٌ مِنَ الأَحلامِ وَأَنَّ الدُّنْيا ظِلٌّ زائِلٌ.

وَعَرَفَ الرَّجُلُ مَا يَمْنَعُ الْقَوْمَ مِنِ اتِّباعِ مُوسى،

ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ سُكَارَى بِسَكْرَةِ الدُّنْيَا.

وَالسَّكْرَانُ مَا يَسْمَعُ وَمَا يَشْعُرُ.

ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ حَيْثُ لا يَسْمَعُونَ صَوْتَ مُوسى.

فَأَرَادَ أَنْ يُنَبِّهَهُمْ مِنْ غَفْلَتِهِمْ فَقَالَ:

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾.

وَطَفِقَ الجُهَّالُ مِنْ قَوْمِهِ يَدْعُونَهُ إِلى الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ وَيَدْعُونَهُ إِلى دِينِ الآبَاءِ.

فَإِذَا قَالَ لَهُمْ تَعَالُوا إِلى اللَّهِ! قَالُوا لَهُ ارْجِعْ إِلى دِينِ الآبَاءِ!

وَلَمَّا بَالَغُوا في الدَّعْوَةِ قَالَ لَهُمْ:

﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾.

﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾.

وَقَالَ لَهُمُ الرَّجُلُ الرَّشِيدُ: أَيُّ نَبِيٍّ جَاءَ مِنْ آلِهَتِكُمْ؟

وَأيُّ كِتَابٍ نَزَلَ؟ وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ؟

﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾.

وَهؤُلاءِ رُسُلُ اللَّهِ دَعَوْا إلى اللَّهِ، ذلِكَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ وَيُوسُفُ وَهَذا نَبِيُّ اللَّهِ مُوسى.

وَفي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ! وَفِي كُلِّ مَكَانٍ لَهُ دَعْوَةٌ.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

ولَمَّا يَئِسَ الرَّجُلُ من هِدَايَتِهِمْ وَسَئِمَ الرَّجُلُ مِنْ بَلادَتِهِمْ تَرَكَهُمْ وَقالَ لَهُمْ:

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾.

وَغَضِبَ النَّاسُ وأَرَادَ آلُ فِرعَوْنَ أَنْ يَقْتُلُوهُ وَلكِنَّ اللَّهَ عَصَمَهُ وَأَهْلَكَ أَعْدَاءَهُ.

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾.

٣ - زوج فرعون

وَكَان فِرْعَوْنُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ مَلِكُ الْعُقُولِ كَمَا أَنَّهُ مَلِكُ الأَجْسَام.

وَأَنَّ لَهُ سُلْطَاناً عَلَى الْقُلُوبِ كَمَا أَنَّ لَهُ سُلْطَاناً على الأَلْسِنَةِ.

وَلَيْسَ لأَحَدٍ فِي مِصْرَ أَنْ يَعْتَقِدَ شَيْئاً أَوْ يُؤْمِنَ بِشَيْءٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ.

وَكَانَ إِذَا آمَنَ أَحَدٌ بِمُوسى في أَقْصى مَمْلَكَةِ مِصْرَ جُنَّ جُنُونُ فِرْعَوْنَ.

وَقَامَ فِرْعَوْنُ وَقَعَدَ، وَبَرَقَ فِرْعَوْنُ وَرَعَدَ.

وَقَالَ كَيْفَ يَكُونُ لَهُ أَنْ يُؤْمِنَ بِمُوسَى قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَهُ؟!

يَعِيشُ فِي مَمْلَكَتِي وَيَعْصِينِي، وَيَأْكُلُ رِزْقِي وَيَكْفُرُنِي؟!

أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ رَجُلٍ فِي مِصْرَ مِنْ نَفْسِهِ!

وَيَنْسَى فِرْعَوْنُ أَنَّهُ يَعِيشُ في مَمْلَكَةِ اللَّهِ وَيَعْصِيهِ، وَيَأْكُلُ رِزْقَ اللَّهِ وَيَكْفُرُ بِهِ.

وَأَرَاهُ اللَّهُ آيَةً فِي بَيْتِهِ، آيَةً فِي أَهْلِهِ.

أَرَاهُ اللَّهُ أَنَّهُ مَلِكُ الْعُقُولِ كَمَا أَنَّهُ مَلِكُ الأَجْسَامِ.

وَأَنَّ لَهُ سُلْطَاناً عَلَى الْقُلُوبِ كَمَا أَنَّ لَهُ سُلْطَاناً على الأَلْسِنَةِ.

وَأَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الرَّجُلِ وَأَهْلِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ.

دَخَلَ الإيمَانُ فِي بَيْتِ فِرْعَوْنَ وَهُوَ لاَ يَشْعُرُ، وَلا يَمْلِكُ شَيْئاً.

وَآمَنَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ بِاللَّهِ وَكَفَرَتْ بِفِرْعَوْنَ.

وَآمَنَتْ بِمُوسَى عَلَى رَغْمِ زَوْجِهَا مَلِكِ مِصْرَ.

آمَنَتْ بِمُوسى أَعْلَمُ خَلْقِ اللَّهِ بِفِرْعُونَ وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْهِ.

وَلَمْ يَصْنَعْ شُرْطَةُ فِرْعَوْنَ شَيْئاً، وَلَمْ يَشْعُرُوا بِذلِكَ وَلَهُمْ شَامَّةُ النَّمْلِ وَعُيُونُ الْغُرَابِ.

وَلَمْ يَشْعُرْ بِذَلِكَ فِرْعَوْنُ وَهُوَ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهَا.

وَلَوْ عَلِمَ بِذَلِكَ فِرْعَوْنُ مَاذَا فَعَلَ؟ إِنَّهُ يَمْلِكُ الْجِسْمَ وَلَكِنَّهُ لاَ يَمْلِكُ الْعَقْلَ.

وَإِنَّ لَهُ سُلْطَاناً عَلَى اللِّسَانِ وَلَيْسَ لَهُ عَلَى الْقَلْبِ سُلْطَانٌ.

عَلَى الْمَرْأَةِ أَنْ تُطِيعَ زَوْجَهَا وَلَكِنْ لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ.

عَلَى الْوَلَدِ أَنْ يُطِيعَ أَبَوَيْهِ وَأَنْ يَكُونَ بِهِمَا بَارّاً رَشِيداً وَلكِنْ لَيْسَ لَهُ أَنْ يُطِيعَهُمَا فِي الشِّرْكِ.

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾.

واستقامت امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ عَلَى الإِيمَانِ، وَكَانَتْ تَعْبُدُ اللَّهَ فِي بَيْتِ عَدُوِّ اللَّه.

وَكَانَتْ تَخَافُ اللَّهَ وَتَتَبَرَّأُ إلى اللَّهِ ممَّا يَعْمَلُ فِرْعَوْنُ.

وَرَضِيَ اللَّهُ عَنِ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ وَأَنْجَاهَا اللَّهُ مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَضَرَبَهَا اللَّهُ مَثَلاً لِلْمُؤْمِنِينَ لإِيمَانِهَا وَشَجَاعَتِهَا.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ

رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾.

٤ ـ مِحْنَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ

وَلَمَّا عَلِمَ النَّاسُ عَدَاوَةَ فِرْعَوْنَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، تَقَرَّبُوا إِلَى فِرْعَوْنَ بِعَدَاوَتِهِمْ وَإِيذَائِهِمْ.

وَاجْتَرَأَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الأَطْفَالُ وَهَرَّتْهُمُ الْكِلابُ.

فَفِي كُلِّ يَوْمٍ مِحْنَةٌ جَدِيدَةٌ! وَفِي كُلِّ يَوْمٍ بَلِيَّةٌ نَازِلَةٌ.

وَمُوسى عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلامُ يُسَلِّيهِمْ وَيُوصِيهِمْ بِالصَّبْرِ، وَيَقُولُ لَهُمْ:

﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وسَئِمَ بَنُوا إِسْرَائِيلَ هَذِهِ الْمِحْنَةَ وَهَذَا الأَذَى وَقَالُوا لِمُوسى:

لَمْ تَنْفَعْنَا شَيْئاً! لَمْ تُغْنِ عَنَّا شَيْئاً!

﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾.

وَلَكِنَّ مُوسى لَمْ يَجْزَعْ! ولَكِنَّ مُوسى لَمْ يَيْأَسْ!

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

وَكَانَ فِرْعَوْنُ يَمْنَعُ بَني إِسْرَائِيلَ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَيَغْضَبُ إِذَا رَآهُمْ يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَيُصَلُّونَ لَهُ.

وَكَانَ يَمْنَعُهُمْ مِنَ أَنْ يَتَّخِذُوا مَسَاجِدَ للَّهِ في أَرْضِهِ، وَكَانَ يَغْضَبُ أَنْ يُعْبَدَ اللَّهُ فِي أَرْضِهِ.

مَا أَجْهَلَ فِرْعَوْنَ! الأَرْضُ للَّهِ لا لِفِرْعَوْنَ!

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ عِبَادَ اللَّهِ أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ عَلَى أَرْضِ اللَّهِ؟!

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ دَعَا إِلى عِبَادَتِهِ عَلَى أَرْضِ اللَّهِ؟!

وَلَكِنَّ فِرْعَوْنَ مَا كَانَ يَقْدِرُ أَنْ يَمْنَعَ أَحداً يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ فِي بَيْتِهِ!

فَأَمَرَ اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ مُوسى: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

وَعَجِزَ فِرْعَوْنُ وَعَجِزَتْ شُرْطَتُهُ أَنْ يَحُولُوا بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَعِبَادَةِ اللَّهِ!

وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ؟! وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَ الْمُسْلِمِ وَعِبَادَةِ اللَّهِ؟!

٥ ـ الْمَجَاعَاتُ

وَلَمَّا طَغَى فِرْعَوْنُ وَأَسْرَفَ فِي الْغَفْلَةِ وَالْعِنَادِ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُنَبِّهَهُ.

إِنَّ اللَّهَ لاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ! إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ!

وَكَانَ فِرْعَوْنُ بَلِيداً جدّاً، ضَاعَتْ فِيهِ الْحِكْمَةُ وَالْمُوعِظَةُ.

وَالْحِمَارُ لا يَتَنَبَّهُ حَتَّى يُضْرَبَ!

فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُنَبِّهَهُ!

وَمِصْرُ بِلادٌ مُخْصِبَةٌ خَضْرَاءُ، بِلادُ الْخَيْرَاتِ والأَثْمَارِ وَبِلادُ الْحُبُوبِ.

وقَدْ عَلِمْتُمْ كَيْفَ أَنْجَدَتْ مِصْرُ بِلاداً بَعِيدَةً أَيَّامَ الْمَجَاعَةِ فِي عَهْدِ يُوسُفَ عليه السلام.

وَكَيْفَ أَنْجَدَتْ مِصْرُ أَهْلَ الشَّامِ وَأَهْلَ كَنْعَانَ!

وَالنِّيلُ هُوَ الَّذي يُرْوِي أَرْضَ مِصْرَ وَيَسْقِي زُرُوعَهُمْ.

وَهُوَ مَنْبَعُ السَّعَادَةِ وَالْخَيْرِ فِي مِصْرَ.

وَكَانَ فِرْعَوْنُ وَأَهْلُ مِصْرَ يَظُنُّونَ أَنَّ النِّيلَ هُوَ مِفْتَاحُ الرِّزْقِ.

وَأَنَّ مِصْرَ غَنِيَّةٌ بِالنِّيلِ عَنِ الْمَطَرِ وَعَنْ كُلِّ شَيْءٍ.

وَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ مَفَاتِيحَ الرِّزْقِ.

وَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ.

وَأَنَّ النِّيلَ يَجْرِي بِأَمْرِهِ وَيَفِيضُ بِأَمْرِهِ.

وَأَمَرَ اللَّهُ النِّيلَ فَغَاضَ مَاؤُهُ وَذَهَبَ فِي الأَرْضِ.

فَمَاذَا يَرْوِي زُرُوعَ أَهْلِ مِصْرَ؟!

نَقَصَتْ ثَمَرَاتُهُمْ وَنَقَصَتْ حُبُوبُهُمْ وَكَانَتْ مَجَاعَةٌ بَعْدَ مَجَاعَةٍ!

وَعَجِزَ فِرْعَوْنُ وَعَجِزَ هَامَانُ وَعَجِزَتْ شُرْطَةُ فِرْعَوْنَ عَنْ كُلِّ حِيلَةٍ.

هُنَالِكَ عَلِمَ أَهْلُ مِصْرَ أَنَّ فِرْعَوْنَ لَيْسَ رَبَّهُمْ، وَأَنَّ الرِّزْقَ بِيَدِ اللَّهِ!

وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَنْفَعْ فِرْعَوْنَ، وَلَمْ يَنْفَعْ أَهْلَ مِصْرَ وَلَمْ يُنَبِّهْهُمْ!

وَحَالَ الشَّيْطَانُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُوعِظَةِ والْعِبْرَةِ.

قَالُوا هِذِهِ الْمَجَاعَاتُ وَهَذِهِ السِّنُونَ مِنْ شُؤْمِ مُوسى وَقَوْمِهِ!

يَا لَلْعَجَبِ! أَلَمْ يَكُنْ مُوسى مِنْ قَبْلُ؟! أَلَمْ يَكُنْ بَنُو إِسْرَائِيلَ مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ؟!

بَلْ ذَلِكَ مِنْ شُؤْمِ أَعْمَالِهِمْ!! بَلْ ذَلِكَ مِن شُؤْمِ كُفْرِهِمْ!

وَعَانَدَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَقَالُوا إِنَّا لا نَخْضَعُ لِهذَا السِّحْرِ.

﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾.

٦ ـ خَمْسُ آيَاتٍ

وَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ آيَةً أُخْرَى.

أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ الْأَمْطَارَ، فَفَاضَ النِّيلُ.

وَأَمْطَرَتِ السَّمَاءُ وَأَمْطَرَتْ وَأَمْطَرَتْ وَأَمْطَرَتْ.

حَتَّى غَرِقَتِ الزُّرُوعُ وَالْحُقُولُ، وَتَلِفَتِ الْحُبُوبُ وَالثِّمَارُ.

وَعَادَ الْمَطَرُ عَلَيْهِمْ وَبَالاً.

وَبَيْنَمَا هُمْ يَشْكُونَ قِلَّةَ الْمَاءِ إِذَا هُمْ يَشْكُونَ كَثْرَةَ الْمِيَاهِ.

ثُمَّ أَرْسَلَ عَلَيْهِمُ الْجَرَادَ يَأْكُلُ الزُّرُوعَ وَالْحُقُولَ وَيَقَعُ عَلَى الأَشْجَارِ فَلا يَذَر مِنْهَا شَيْئاً.

وَعَجِزَتْ جُنُودُ فِرْعَوْنَ وَشُرْطَتُهُ عَنْ قِتَالِ جُنْدِ اللَّهِ.

وَكَيْفَ يُقَاتِلُونَهُ وَلا تَعْمَلُ فِيهِ السُّيُوفُ وَلا تَعْمَلُ فِيهِ السِّهَامُ.

هُنَالِكَ عَلِمَ أَهْلُ مِصْرَ ضَعْفَ فِرْعَوْنَ، وَعَجْزَ هَامَانَ، وقِلَّةَ حِيلَةِ الشُّرْطَةِ.

وَلكِنَّهُمْ لَمْ يَعْتَبِرُوا! وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَتَنَبَّهُوا!

فَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ جُنْداً آخَرَ، ذلِكَ هُوَ الْقَمَّلُ.

وَتَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ الْقُمَّلُ، فالْعِيَاذُ باللَّهِ! الْقُمَّلُ فِي الْفِرَاشِ، وَالْقُمَّلُ فِي الثِّيَابِ، والْقُمَّلُ فِي الرَّأْسِ، وَالْقُمَّلُ فِي الشَّعْرِ.

فَطَارَ نَوْمُهُمْ وَبَاتُوا يَقْصَعُونَ[1] الْقُمَّلَ وَيَسُبُّونَهُ، حَتَّى يُصْبِحُوا.

وَكَيْفَ يُقَاتِلُونَهُ وَالْقُمَّلُ لا تَعْمَلُ فِيهِ السُّيُوفُ وَلا تَعْمَلُ فِيهِ السِّهَامُ، ولا يُنْجِدُهُمْ في ذِلَكَ جُنُودَهُمْ وَشُرْطَتُهُمْ.

---

(١) قصع القملة بظفره: قتلها.

ثُم بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ الضَّفَادِعَ، فَفي الطَّعَامِ ضَفَادِعُ، وفِي الشَّرَابِ ضَفَادِعُ، وَبَيْنَ مَلابِسِهِمْ ضَفَادِعُ.

وَسَئِمُوا هَذِهِ الضَّفَادِعَ وَتَنَغَّصَ عَيْشُهُمْ.

وانْتَشَرَتِ الضَّفَادِعُ وَفَشَتْ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْبَيْتِ.

تِلْكَ تَنِقُّ(١) وَهَذِهِ تَثِبُ هُنَا وَتِلْكَ تَقْفِزُ هُنَاكَ.

وَلا يَقْتُلُونَ وَاحِدَةً إِلَّا وَتَأْتِي عَشْرٌ وَلا يُخْرِجُونَ وَاحِدَةً إلاَّ وَتَظْهَرُ خَمْسٌ كَأَنَّهَا تُولَدُ فِي الْبَيْتِ.

عَجِزَتِ الْحُرَّاسُ وَعَجِزَتِ الشُّرْطَةُ عَنِ الضَّفَادِعِ.

وَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ آيَةً خَامِسَةً، ذلِكَ هُوَ الدَّمُ.

فَسَالَ الرُّعَافُ مِنْ آنَافِهِمْ وَضَعُفُوا وَتَعِبُوا جِدّاً.

وَعَجِزَ الأَطِبَّاءُ عَنِ الْعِلاَجِ وَلَمْ يَنْفَعْهُمْ دَوَاءٌ.

وَكُلَّمَا رَأَوْا آيَةً قَالُوا لِمُوسى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ أَنْ يَكْشِفَ عَنَّا الْبَلاءَ وَنَتُوب وَنُؤْمِنُ وَنُرْسِلَ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

فَلَما كَشَفَ اللَّهُ عَنْهُمُ الْبَلاءَ نَكَثُوا عَهْدَهُمْ.

---

(١) تصوت.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

٧ ـ الْخُرُوجُ

وَضَاقَتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَرْضُ مِصْرَ وَهِيَ وَاسِعَةٌ.

وَمَا يَصْنَعُونَ بِخِصْبِ مِصْرَ وَخَيْرَاتِهَا وَهُمْ فِي سِجْنٍ يَذُوقُونَ كُلَّ يَوْمٍ صُنُوفاً مِنَ الْعَذَابِ وَالْهَوَانِ؟!

إِلَى مَتَى يَصْبِرُونَ، أَلَيْسُوا بَنِي آدَمَ يَشْعُرُونَ بِالأَذَى وَالأَلَمِ؟!

وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى أَنْ يَسْرِيَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ لَيْلاً وَيَخْرُجَ بِهِمْ مِنْ مِصْرَ.

وَأَحَسَّ بِذَلِكَ شُرْطَةُ فِرْعَوْنَ وَلَهُمْ عُيُونُ الْغُرَابِ وَشَامَّةُ النَّمْلِ وَأَخْبَرُوا بِذَلِكَ فِرْعَوْنَ.

سَارَ مُوسَى بِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي اللَّيْلِ نَحْوَ الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ وَهُمْ اثْنَا عَشَرَ سِبْطاً كُلُّ سِبْطٍ عَلَيْهِ أَمِيرٌ.

وَالطَّرِيقُ إِلَى الشَّامِ طَرِيقٌ وَاضِحٌ مَعْلُومٌ، بَرٌّ يَصِلُ بَيْنَ

الْبَرَّيْنِ وَقَدْ جَازَهُ مُوسى مَرَّتَينِ[1].

وَلَكِنَّ مُوسى أَرَادَ أَمْراً وَأَرَادَ اللَّهُ أَمْراً وَكَانَ مَا أَرَادَهُ اللَّهُ.

أَخْطَأَ مُوسى الطَّرِيقَ، وَحَيْثُ أَخْطَأَ مُوسى أَصَابَ الْقَدَرُ.

ظَنَّ مُوسى أَنَّهُ يَسِيرُ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى جَانِبِ الشَّمالِ.

فَإِذَا بِهِمْ فِي ظَلامِ اللَّيْلِ إِلَى جَانِبِ الشَّرْقِ[2].

وَإِذَا بِهِمْ أَمَامَ الْبَحْرِ الأَحْمَرِ تَتلاطَمُ أَمْوَاجُهُ.

يَا حَافِظُ! يَا سَاتِرُ! أَيْنَ نَحْنُ؟

كَانَ الْجَوَابُ إِنَّنَا أَمَامَ الْبَحْرِ!

وَالْتَفَتُوا إِلَى الْوَرَاءِ فَإِذَا بِغُبَارٍ سَاطِعٍ!

وَإِذَا بِجُنْدٍ عَظِيمٍ قَدْ سَدَّ الأُفُقَ!

هُنَالِكَ ارْتَفَعَتْ الأَصْوَاتُ.

---

(١) مرة ذهاباً إلى مدين، ومرة إياباً إلى مصر.

(٢) يحسن بالمعلم أن يستلفت الطلبة إلى خارطة مصر.

يَا ابْنَ عِمْرَانَ! مَاذَا أَنْكَرْتَ مِنَّا حَتَّى دَبَّرْتَ قَتْلَنَا!

وَجِئْتَ بِنَا إِلَى شَطِّ الْبَحْرِ لِيَقْتُلَنَا فِرْعَوْنُ قَتْلَ الْفِيرَانِ حَيْثُ لا فِرَارَ وَلا نَجَاةَ.

لا نَذْكُرُ إِلَيْكَ سُوءاً فَلِمَاذَا هَذَا الانْتِقَامُ؟!

أَلم يَكْفِكَ مَا أَصَابَنَا مِنَ الْجُهْدِ وَالْبَلَاءِ لأَجْلِكَ حَتَّى جِئْتَ بِنَا إِلَى هُنَا؟!

هَا هُوَ الْبَحْرُ أَمَامَنَا، وَهَا هُوَ الْعَدُو وَرَاءَنَا، وَلَيْسَ لَنَا إِلَّا الْمَوْتُ!

هُنَالِكَ أَظْلَمَتِ الدُّنْيَا في عُيُونِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَزَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَاسْتَوْلَى الْيَأْسُ ثُمَّ خَفَتَتِ الْأَصْوَاتُ.

هُنَالِكَ تَزَلْزَلَ كُلُّ أَحَدٍ، وَحُقَّ لِلْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ أَنْ تَتَزَلْزَلَ.

ولكِنَّ إِيمانَ مُوسى بِرَبِّهِ لَمْ يَتَزَلْزَلْ وَسَمِعَ النَّاسُ صَوْتاً فيه جَلَالُ النُّبُوَّةِ.

﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾.

وَأَمَرَ اللَّهُ مُوسى أَنْ يَضْرِب بِعَصَاهُ الْبَحْرَ، فَضَرَبَ

فَانْفَلَقَ الْبَحْرُ وَقَامَ المَاءُ على كُلِّ جَانِبٍ كَالْجَبَلِ.

وَإِذَا اثْنَا عَشَرَ طَرِيقاً لاثْنَي عَشَرَ سِبْطاً لِكُلِّ سِبْطٍ طَرِيقٌ.

وَسَارَ الْقَوْمُ آمِنِينَ وَوَصَلُوا إِلَى بَرِّ الأَمْنِ وَالسَّلامِ.

٨ ـ غَرَقُ فِرْعَوْن

وَرَأَى فِرْعَوْنُ كَيْفَ سَارَ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَعَبَرُوا الْبَحْرَ آمِنِينَ.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ لِجُنُودِهِ انْظُرُوا إِلَى الْبَحْرِ كَيْفَ انْفَلَقَ طَوْعاً لأَمْرِي حَتَّى آخُذَ هؤلاءِ الْفَارِّينَ.

وَتَقَدَّمَ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ، فَجَزَعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مَرَّةً أُخْرَى.

هَا هُوَ الْعَدُوُّ هَا هُوَ الظَّالِمُ يُرِيدُ أَنْ يَعْبُرَ الطَّرِيقَ إِلَيْنَا.

وَلا يَمْنَعُهُ مِنَّا شَيْءٌ، وَسَيَلْحَقُنَا وَيَأْخُذُنَا إِلى مِصْرَ مَأْسُورِينَ أَذِلَّاءَ أَوْ يَقْتُلُنَا في هَذِهِ الْبَرِّيَّةِ غُرَبَاءَ.

وَأَرَادَ مُوسى أَنْ يَضْرِبَ بِعَصاهُ الْبَرَّ فَيَعُودُ بَحْراً كَمَا كَانَ وَلَكِنْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: اتْرُكِ الْبَحْرَ سَاكِناً ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾.

وَلَمَّا وَصَلَ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ إِلى عَرْضِ الْبَحْرِ (وَهُوَ بَرٌ) انْطَبَقَ عَلَيْهِمْ.

وَلَمَّا رَأى فِرْعَوْنُ الْجِدَّ زَالَتْ سَكْرَتُهُ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

ولَكِنْ هَيْهَاتَ ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّى تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾.

﴿يَوۡمَ يَأۡتِى بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرًاۗ﴾.

فَقِيلَ لَهُ: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾.

وَمَاتَ فِرْعَوْنُ فِي الْبَحْرِ غَرَقاً.

مَاتَ الْجَبَّارُ الَّذِي قَتَلَ أُلُوفاً مِنَ الأَطْفَالِ وَالرِّجَالِ حاً وَخَنْقاً.

مَاتَ الطَّاغِيَةُ الَّذِي قَتَلَ أُلُوفَ آلافٍ صَبْراً وَشَنْقاً.

مَاتَ مَلِكُ مِصْرَ بَعِيداً عَنْ عَرْشِهِ بَعِيدَاً عَنْ قَصْرِهِ، عِيداً عَنْ سُلْطَانِهِ لا طَبِيبٌ يُدَاوِيهِ وَلا صَدِيقَ يُوَاسِيهِ، لا عَيْنَ تَبْكِيهِ.

وَكَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي شَكٍّ عَنْ مَوْتِهِ يَقُولُونَ إِنَّ رْعَوْنَ لا يَمُوتُ.

أَمَا كُنَّا نَرَاهُ يَقْضِي أَيَّاماً وَلا يَأْكُلُ وَلا يَشْرَبُ؟!

وَقَذَفَ الْبَحْرُ جُثَّتَهُ فَأَيْقَنُوا بِمَوْتِهِ.

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِفِرْعَوْنَ ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ وَكَانَتْ جُثَّةُ فِرْعَوْنَ آيَةً لِلنَّاظِرِينَ وَعِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ.

وَغَرِقَ جُنْدُ فِرْعَوْنَ عَنْ آخِرِهِ وَمَا نَجَا مِنْهُمْ أَحَدٌ.

وَخَلَّفُوا مِصْرَ وَرَاءَهُمْ وَلَمْ يَجِدُوا فِي أَرْضِهَا الْوَاسِعَةِ ذِرَاعاً لِمَدْفَنٍ.

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ .

٩ ـ في الْبَرِّيَّةِ!

وَصَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلى بَرِّ الْأَمْنِ وَالسَّلامِ وَتَنَفَّسُوا في هَوَائِهِ كَالْأَحْرَارِ الأَشْرَافِ .

هُنَالِكَ لا يَخَافُونَ فِرْعَوْنَ وَلا يَخَافُونَ هَامَانَ وَلا يَخَافُونَ شُرْطَتَهُ .

هُنَالِكَ يَمْشُونَ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ لا يَخْشُونَ أَحداً إلا الله .

وَلكِنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ الْحَضَرِ وَكَانَتِ الشَّمْسُ تُؤْذِيهِمْ فِي الْبَرِّيَّةِ .

وَكَانُوا ضُيُوفَ اللَّهِ! أَلَمْ تَرَ إِلى الْمُلُوكِ كَيْفَ يُكْرِمُونَ ضُيُوفَهُمْ؟!

وَكَيْفَ يَضْرِبُونَ لَهُمُ الْخِيَامَ تَقِيهِمْ حَرَّ الشَّمْسِ؟!

إِنَّ كَرَامَةَ الله فَوْقَ كُلِّ كَرَامَةٍ!

وَأَمَرَ اللَّهُ الْغَمَامَ أَنْ يُظِلَّهُمْ، فَكَانُوا يَمْشُونَ فِي ظِلِّ الْغَمَامِ، وَكَانَ الْغَمَامُ يَسِيرُ مَعَهُمْ حَيْثُ سَارُوا وَيَقِفُ أَيْنَمَا وَقَفُوا.

وَعَطِشَ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَلا مَاءَ في الْبَرِّيَّة، وَلاَ نَهْرَ وَلا بِئْرَ.

ذَهَبُوا إِلى مُوسى، يَشْكُونَ إِلَيْهِ الْعَطَشَ كَمَا يَشْكُو الطِّفْلُ إِلى أُمِّهِ وَيسْتَغِيثُهَا.

وَدَعَا مُوسى رَبَّهُ! وَمَنْ لَهُ غَيْرُهُ؟!

فَقَال: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾.

﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾.

وَجَاعَ بَنُو إسرائيل فَشَكَوا إِلى مُوسى الْجُوعَ كَمَا يَشْكُو الطِّفْلُ إِلى أُمِّهِ وَيَسْتَغِيثُهَا.

وَقَالُوا إِنَّكَ أَخْرَجْتَنَا مِنْ مِصْرَ أَرْضِ الْفَوَاكِهِ وَالثَّمَرَاتِ وَأَرْضِ الْخَيْرَاتِ وَالطَّيِّبَاتِ فَمَنْ لَنَا بِطَعَامٍ في هذِهِ الْبَرِّيَّةِ؟

دَعَا مُوسى رَبَّهُ! وَمَنْ لَهُ غَيْرُه؟! فَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ الطَّعَامَ.

أَنْزَلَ لَهُمْ عَلَى أَوْرَاقِ الأَشْجَارِ مِثْلَ الْحَلْوَى، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ طَيْراً يَأْخُذُونَهُ مِنَ الأَشْجَارِ بِسُهُولَةٍ.

ذَلِكَ هُوَ الْمَنُّ وَالسَّلْوَى، ضِيَافَةُ اللَّهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْبَرِّيَّةِ.

١٠ ـ كُفْرانُ بَنِي إِسْرَائِيلَ

وَلكِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَفْسَدَ ذَوْقَهُمْ وَخُلُقَهُمْ الْعُبُودِيَّةُ الطَّوِيلَةُ.

وَكَانُوا لا يَقِرُّونَ عَلَى شَيْءٍ، وَكَانُوا لا يَسْكُنُونَ إِلَى شَيْءٍ وَكَانُوا فِي طِبَاعِهِمْ أَطْفالاً.

وَكَانُوا قَلِيلِي التَّشكُّرِ كَثِيري التَّشَكِّي سَرِيعِي السَّآمَةِ يُحِبُّونَ مَا مُنِعُوا وَيَكْرَهُونَ مَا أُعْطُوا.

وَلَمْ يَلْبَثُوا قَليلاً أَنْ قَالُوا لِمُوسى قَدْ سَئِمْنَا هَذَا الطَّعَامَ الْوَاحِدَ، وَقَدْ سَئِمْنَا هَذَا اللَّحْمَ وَهَذِهِ الْحَلْوَى.

وَقَدْ اشْتَهَيْنَا الْخُضَرَ وَالْبُقُولَ.

﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾.

تَعَجَّبَ مُوسى مِنْ هذَا السُّؤَالِ الْغَرِيبِ وَقَالَ بِصَوْتٍ فيه الإِنْكَارُ وَفِيهِ الاسْتِعْجَابُ وَفِيهِ الْعِتَابُ.

﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾؟!

أَبُقُولاً وَخُضَرَ مَكَانَ طُيُورٍ وَحَلْوَى لَمْ تَمَسَّهَا يَدُ إِنْسَانٍ؟!

أَطَعَامَ الْفَلَّاحِينَ بَدَلَ طَعَامِ الْمُلُوكِ؟

يَا لَفَسَادِ الذَّوْقِ! يَا لَسُوءِ الاخْتِيَارِ!

وَلَكِنَّ بَنِي إِسَرَائِيلَ لَمْ يَتَنَازَلُوا عَنْ سُؤَالِهِمْ، وَلَمْ يَزَالُوا يَطْلُبُونَ الْخُضَرَ وَالْبُقُولَ.

فَقَالَ مُوسى إِنَّ مَا سَأَلْتُمْ يُوجَدُ فِي كُلِّ قَرْيَةٍ وَمِصْرٍ.

﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾.

١١ ـ عِنادُ بَنِي إِسْرَائِيلَ

وَكَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي طِبَاعِهِمْ أَطْفَالاً، وَأَطْفَالاً مُعَانِدِينَ.

وَكُلَّمَا أُمِرُوا بِأَمْرٍ يُخَالِفُونَهُ إِلى ضِدِّهِ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ.

كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ مِنَ الْوَاجِبِ أَنْ يُبَدِّلُوا مَا يُقَالُ لَهُمْ.

كَطِفْلٍ عَنِيدٍ يُقَالُ لَهُ قُمْ فَيَجْلِسُ وَيُقَالُ لَهُ اجْلِسْ فَيَقُومُ، وَيُقَالَ لَهُ اسْكُتْ فَيَتَكَلَّمُ وَيُقَالُ لَهُ تَكَلَّمْ فَيَسْكُتُ.

وَكَانَ فِيهِمْ عِنَادُ الْأَطْفَالِ فِي خُبْثِ الأَشْرَارِ فِي هُزْءِ الْأَعْدَاءِ فِي سَفَاهَةِ الْمَجَانِينَ.

كَانُوا يُرِيدُونَ أَنْ يَسْكُنُوا قَرْيَةً وَيَأْكُلُوا طَعَامَهُمُ الشَّهِيَّ مِنَ الْخُضَرِ وَالْبُقُولِ.

وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا قِيلَ لَهُمْ ﴿ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

غَضِبُوا مِنْ هذا الأمر الإِلهيّ، وَدَخلوا الْقَرْيَةَ كُرْهاً وَهُزُواً يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بَلاءً وَبَعَثَ عَلَيْهِمْ وَبَاءً مَاتُوا مِنْهُ مَوْتَ الفِئْرَانِ.

وَإِذَا أُمِرُوا بِأَمْرٍ أَكْثَرُوا السُّؤَالَ وَالتَّنْقِيرَ.

شَأْنَ رَجُلٍ لا يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ فَيُكْثِرُ السُّؤَالَ وَالتَّنْقِيرَ.

حَدَثَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ حَادِثُ قَتْلٍ، فَأَهَمَّ ذلِكَ بَنِي إِسرَائِيلَ.

وَلَمْ يَهْتَدُوا إِلى الْقَاتِلِ، وَكَانَ السُّؤَالُ عَنِ الْقَاتِلِ حَدِيثَ النَّاسِ.

جَاءُوا إِلى مُوسى - عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ - وَقَالُوا أَعِنَّا يَانَبِيَّ الله في هَذِهِ الْقَضِيَّةِ وَادْعُ اللَّهَ يُبَيِّنْ لَنَا الْقَاتِلَ.

١٢ ـ الْبَقَرَة

وَدَعَا مُوسى رَبَّهُ فَأَوْحَى إِلَيْهِ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِذَبْحِ بَقَرَةٍ.

هُنَالِكَ حَلَّتْ الْمُصِيبَةُ، وَبَدَأَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَسْأَلُونَ وَيَسْخَرُونَ.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾.

﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾.

﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

وَهُنَا أَرْسَلُوا الأَسْئِلَةَ.

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾؟

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾.

وَلَمْ يَقِفُوا على هذَا السُّؤَالِ، بَلْ بَدَأُوا يَسْأَلُونَ عَنْ لَوْنِهَا.

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾.

وَلَمْ يَجِدُوا سُؤَالاً فَأَطْلَقُوا السُّؤَالَ.

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾.

وَوُفِّقُوا في هذِهِ الْمَرَّةِ لأَنَّهُمْ قَالوا ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ فَاهْتَدَوْا.

وَلَكِنَّ أَسْئِلَتَهُمْ ضَيَّقَتْ عَلَيْهِمُ الأَمْرَ، فَلَوْ ذَبَحُوا أَيَّ بَقَرَةٍ لَكَانَتْ كَافِيَةً، وَلَكِنَّهُمْ شَدَّدُوا فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.

وَفَتَّشُوا عَنِ الْبَقَرَةِ الْعَوَانِ الصَّفْرَاءِ الْفَاقِعِ لَوْنُهَا الَّتِي لا تُثِيرُ الأَرْضَ، وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ، الْمُسَلَّمَةِ الَّتِي لا شِيَةَ فِيهَا.

وَنَدَرَ وُجُودُ هذِهِ الْبَقَرَةَ الْغَرِيبَةِ فَإِمَّا بَقَرَةٌ فَارِضٌ وَإِمَّا بَقَرَةٌ بِكْرٌ.

وَإِمَّا عَوَانٌ وَلَكِنْ غَيْرُ صَفْرَاءَ.

وَإِمَّا بَقَرَةٌ عَوَانٌ صَفْرَاءُ وَلَكِنْ لَوْنُهَا غَيْرُ فَاقِعٍ.

وَإِمَّا بَقَرَةٌ عَوَانٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا وَلَكِنَّهَا بَقَرَةٌ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ.

وَإِمَّا بَقَرَةٌ عَوَانٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا لا تُثِيرُ الأَرْضَ وَلَكِنَّهَا تَسْقِي الْحَرْثَ.

وَفَتَّشُوا وَفَتَّشُوا وَعَلِمُوا عَاقِبَةَ هَذَا التَّنْقِيرِ، مَا هِيَ؟ مَا لَوْنُهَا؟ مَا هِيَ! وَتَعِبُوا.

وَأَرَادَ اللَّهُ بِيَتِيمٍ خَيْراً فَوَجَدُوا هٰذِهِ الْبَقَرَةَ الَّتِي وَصَفَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ فَاشْتَرَوْهَا بِثَمَنٍ غَالٍ جِدّاً ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾.

وَأَمَرَ اللَّهُ أَنْ يُضْرَبَ الْمَقْتُولُ بِجُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ الْبَقَرَةِ فَيَحْيَا وَيُخْبِرَ بِاسْمِ الْقَاتِلِ.

وَهَكَذَا كَانَ. . . .

١٣ ـ الشَّرِيعَةُ

وَخَرَجَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ عَيْشِ الْبَهَائِمِ إِلَى عَيْشِ النَّاسِ.

وَصَارُوا يَعِيشُونَ فِي الْبَرِّيَّةِ كَالأَحْرَارِ الأَشْرَافِ.

هُنَالِكَ احْتَاجُوا إِلى شَرِيعَةٍ إِلٰهِيَّةٍ تَحْكُمُ بَيْنَهُمْ وَتُنِيرُ لَهُمُ السَّبِيلَ.

إِنَّ الإِنْسَانَ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعِيشَ كَإِنْسَانٍ إِلَّا بِشَرِيعَةٍ إِلٰهِيَّةٍ وِإِلَّا بِنُورٍ مِنْ رَبِّهِ.

الْعَالَمُ كُلُّهُ ظلامٌ في ظَلامٍ إِلَّا مَنْ أَشْرَقَ لَهُ نُورٌ مِنْ رَبِّهِ.

وَذٰلِكَ النُّورُ هُوَ نُورُ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِي يَهْتَدِي بِهِ النَّاسُ.

وَمَنْ لَمْ يَهْتَدِ بِهٰذَا النُّورِ كَانَ فِي ضَلَالٍ يَخْبِطُ خَبْطَ عَشْوَاءَ.

فَالْعَقَائِدُ - بِغَيْرِ هٰذَا النُّورِ - أَوْهَامٌ وَخُرَافَاتٌ يَضْحَكُ مِنْهَا الأَطْفَالُ.

أَمَا سَمِعْتُمْ عَقَائِدَ الْمُشْرِكِينَ وَالْكُفَّارِ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَخُرَافَاتِهِمْ وَأَسَاطِيرَهُمْ؟!

وَالْعِلْمُ جَهْلٌ وَظَنٌّ وَتَخْمِينٌ وَشَكٌّ ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

والْأَخْلَاقُ تَفْرِيطٌ وَإِفْرَاطٌ وَتَقْصِيرٌ وَإِسْرَافٌ أَمَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ لا يَتَّبِعُونَ الأَنْبِيَاءَ كَيْفَ يَهْضِمُونَ الْحُقُوقَ وَكَيْفَ يُجَاوِزُونَ الْحُدُودَ وَكَيْفَ يَتَّبِعُونَ الْهَوَى؟!

وَالْحُكْمُ وَالسِّيَاسَةُ ظُلْمٌ وَاسْتِبْدَادٌ وَخَبْطٌ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ وَحُقُوقِهِمْ وَدِمَائِهِمْ.

أَمَا رَأَيْتُمْ أُولِي الأَمْرِ ـ مِمَّنْ لَا يَخَافُونَ اللَّهَ وَلَا يَتَّبِعُونَ الشَّرِيعَةَ ـ كَيْفَ يَخُونُونَ الْأَمَانَاتِ وَكَيْفَ يَعْبَثُونَ بِأَمْوَالِ اللَّهِ، وَكَيْفَ يَعْبَثُونَ بِدِمَاءِ النَّاسِ وَحُقُوقِهِمْ؟!

وَكَيْفَ اسْتَعْبَدُوا النَّاسَ وَجَعَلُوهُم شِيَعاً يُذَبِّحُونَ رِجَالَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ، أَتَعْلَمُ كَمْ قُتِلَ فِي الْحَرْبِ الْأُولَى وَكَمْ قُتِلَ فِي الْحَرْبِ الثَّانِيَةِ[1]؟!

فَالْعَالَمُ كُلُّهُ ظَلَامٌ فِي ظَلَامٍ إِلَّا مَنْ أَشْرَقَ لَهُ نُورٌ مِنْ رَبِّهِ.

﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.

(١) للمعلم: عدد المصابين في الحرب الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) على ما حققه الإنكليزي السياسي الخبير أي ـ أليس تاونسند أكثر من سبعة وثلاثين مليوناً ٣٧٥١٣٨٨٦ رجلاً، المقتولون منهم ٨٥٤٤٣٥١٥ نسمة، وقدر النائب البريطاني المستر ميكستن أن عدد المصابين في الحرب الثانية الكبرى لا يقل عن خمسين مليوناً.

وَالنَّبِيُّ يُعَلِّمُ النَّاسَ كَيْفَ يَعْبُدُونَ اللَّهَ، وَكَذَلِكَ يُعَلِّمُهُمْ كَيْفَ يُعَامِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً.

وَالنَّبِيُّ يُعَلِّمُ النَّاسَ آدَابَ الْحَيَاةِ مَعَ آدَابِ الدِّينِ، وَيُعَلِّمُهُمْ آدَابَ الأَكْلِ وَأَدَبَ الشُّرْبِ وَأَدَبَ النَّوْمِ وَأَدَبَ الْمَجْلِسِ وَأَدَبَ كُلِّ شَيْءٍ.

وَيُعَلِّمُهُمُ الآدَابَ كَمَا يُعَلِّمُ الْوَالِدُ الشَّفِيقُ أَبْنَاءَهُ الأَعِزَّةَ.

وَالنَّاسُ كَالأَطْفَالِ الصِّغَارِ يَحْتَاجُونَ فِي كِبَرِهِمْ إِلَى تَرْبِيَةِ الأَنْبِيَاءِ أَكْثَرَ مُما يَحْتَاجُونَ فِي صِغَرِهِمْ إِلَى تَرْبِيَةِ الآبَاءِ.

وَالَّذِينَ لم يَتَلَقُّوا هذِهِ التَّرْبِيَةَ النَّبَوِيَّةَ وَلَمْ يَتَعَلَّمُوا الآدَابَ مِنَ الأَنْبِيَاءِ كَأَشْجَارِ الْبَرِّيَّةِ، نَبَتَتْ وَنَشَأَتْ بِنَفْسِهَا فَيُرَى فِيهَا عِوَجاً وَشَوْكاً وَفَسَاداً.

١٤ ـ التَّوْرَاةُ

وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ لاَ يَضِيعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ كَمَا ضَاعَتْ أُمَمٌ بِغَيْرِ كِتَابٍ وهدىً مِنَ اللَّهِ.

وَأَرادَ الله أَنْ لا يَخْبِطُوا خَبْطَ عَشْوَاءَ كَمَا خَبَطَتْ أُمَمٌ خَبْطَ عَشْوَاءَ.

أَمَرَ اللَّهُ مُوسى أن يَتَطَهَّرَ وَأَنْ يَصُومَ ثَلاثِينَ يَوْماً ثُمَّ يَأْتِي إِلَى طُورِ سِينَاءَ حَتَّى يُكَلِّمَهُ رَبُّهُ وَيَتَلَقَّى كِتَاباً يَكُونُ لَهُمْ الْإِمَامَ.

اخْتَارَ مُوسى مِنْ قَوْمِهِ سَبْعِينَ رَجُلاً يَكُونُونَ عَلى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ لأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَوْمٌ جُحْدٌ.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لأَنَّ الْجَمَاعَةَ لا بُد لها من إمام.

سَارَ مُوسى لِمِيقَاتِ رَبِّهِ، وَلَكنَّهُ حَثَّهُ الشَّوْقُ إِلى رَبِّهِ فَتَعَجَّلَ وَسَبَقَ إِلى الطُّورِ.

قَالَ اللَّهُ: ﴿ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ ﴾.

وَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يُتِمَّ مِيقَاتَ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً.

وَصَلَ مُوسى إِلى طُورِ سِينَاءَ فَكَلَّمَهُ رَبُّهُ وَنَاجَاهُ وَقَرَّبَهُ وَأَدْنَاهُ، فَزَادَهُ ذَلِكَ شَوْقاً فَقَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾.

واللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ مُوسى لا يَسْتَطِيعُ ذلِكَ لأنَّ اللَّهَ ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

وَإِنَّ الْجِبَالَ لا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْمِلَ كَلامَهُ فَضْلاً عَنْ نُورِهِ.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾.

﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ﴾.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ﴾.

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

أَخَذَ مُوسى الأَلْوَاحَ وَفِيهَا كُلُّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ.

وَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَأْخُذَهَا بِقُوَّةٍ وَيَأْمُرَ قَوْمَهُ أَنْ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا.

وَلَمَّا وصَلَ مُوسى إِلى السَّبْعِينَ رَجُلاً مِنْ قَوْمِهِ وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ قَالُوا فِي وَقَاحَةٍ وَجَسَارَةٍ.

﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ﴾ غَضِبَ اللَّهُ عَلَى هذِهِ الْوَقَاحَةِ وَالْجُرْأَةِ فَأَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ.

وَرَأَوا أَنَّهُمْ لا يَتَحَمَّلُونَ هَذِهِ الصَّاعِقَةَ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ فَكَيْفَ يَتَحَمَّلُونَ نُورَ اللَّهِ!

وَدَعَا مُوسى رَبَّهُ وَقَالَ: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰيَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾؟!

وَأَجابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ وَبَعَثَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ.

١٥ ـ العِجْلُ

وَكَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَعِيشُونَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ فِي مِصْرَ مُنْذُ قُرُونٍ.

وكَانَ الْأَقْبَاطُ يَعْبُدُونَ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً فِي مِصْرَ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ يَرَوْنَ ذَلِكَ بِعُيُونِهِمْ.

وَزَالَتْ مِنْهُمْ كَرَاهَةُ الشِّرْكِ وَتَسَرَّبَ إِلَيْهِمْ حُبُّهُ كَمَا يَتَسَرَّبُ الْمَاءُ إِلى بَيْتٍ وَاهِنٍ عَتِيقٍ.

وَكَانُوا كُلَّما وَجَدُوا فُرْصَةً انْحَدَروا إِلى الشِّرْكِ كَمَا يَنْحَدِرُ الْمَاءُ إِلى الْحَدُورِ.

وَزَاغَتْ قُلُوبُهُمْ وَفَسَدَ ذَوْقُهُمْ فَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً.

جَازُوا الْبَحْرَ: ﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ﴾.

وَغَضِبَ مُوسى وَقَالَ: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

يَا لَلْعَجَب! يَا لَلظُّلْم! إنَّ اللَّهَ قد أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ وَفَضَّلَكُمْ وآتاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ.

﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

سَارَ مُوسَى إِلى الطُّورِ وَغَابَ عَنْهُمْ أَيَّاماً فَكَانُوا صَيْدَ الشَّيْطَانِ وَفَرِيسَةَ الشِّرْكِ.

قَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ السَّامِرِيُّ ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾﴾.

وَفُتِنَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِهذَا الْعِجْلِ وَخَرُّوا عَلَيْهِ صُمّاً وَعُمْيَاناً.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾.

وَنَهَاهُمْ هَارُونُ عَنْ ذلِكَ وَاجْتَهَدَ وَقَالَ: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى﴾.

وَلكِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا مَفْتُونِينَ بِسِحْرِ السَّامِرِيِّ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمْ الْعِجْلَ فَقَالُوا:

﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾.

١٦ ـ الْعِقَابُ

وَلَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ مُوسى أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَضَلَّهُمْ السَّامِرِيُّ رَجَعَ إِلى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً.

وَغَضِبَ عَلى قَوْمِهِ وَغَضِبَ لِلَّهِ على أخِيهِ هَارونَ.

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾﴾.

واعْتَذَرَ هَارُونُ وَقَالَ ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي﴾.

﴿إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

ثُمَّ الْتَفَتَ مُوسى إِلى السَّامِرِيِّ قَالَ: فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ؟

وَاعْتَرَفَ السَّامِرِيُّ بِجُرْمِهِ وَقَالَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي﴾.

﴿قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾.

وَعَاقَبَهُ مُوسى بالانْفِرَادِ، يَمْشِي وَحْدَهُ وَيَعِيشُ وَحْدَهُ كَالْوَحْشِي لا يَأْلَفُ وَلا يُؤْلَفُ.

وَأيُّ عِقَابٍ أَكْبَرُ مِنْ هذا؟!

إِنَّ الَّذِي نَجَّسَ أُلُوفاً مِنَ النَّاسِ بالشِّرْكِ يَجِبُ أَنْ يَتَقَذَّرَهُ النَّاسُ وَيَنْبُذُوهُ.

إِنَّ الَّذِي فَرَّقَ بَيْنَ اللَّهِ وَعِبَادِهِ يَجِبُ أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ.

إِنَّ الَّذِي دَعَا إِلى الشِّرْكِ فِي أَرْضِ اللَّهِ مُذْنِبٌ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ الْأَرْضُ كُلُّهَا سِجْناً لَهُ.

ثُمَّ الْتَفَتَ مُوسى إِلى الْعِجْلِ الْمَلْعُونِ فَأَمَرَ بِإِحْرَاقِهِ فَأُحْرِقَ ثُمَّ نَفَضَهُ في الْبَحْرِ.

وَرَأى بَنُو إِسْرَائِيلَ مَصِيرَ الْعِجْلِ الْمَعْبُودِ وَرَأُوا ضَعْفَهُ وَعَجْزِهِ.

ثُمَّ الْتَفَتَ مُوسى إِلى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقَالَ: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾.

وَكَذَلِكَ فَعَلُوا، وَقَتَلَ الَّذِينَ لَمْ يَعْبُدُوا الْعِجْلَ الَّذِينَ عَبَدُوهُ وَهكَذَا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾.

وَكَذَلِكَ عُبَّادُ الْعِجْلِ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَكَذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ!

١٧ - جُبْنُ بَنِي إِسْرَائِيلَ

نَشَأَ بَنُو إِسْرَائِيلَ على الْعُبُودِيَّةِ فِي مِصْرَ وَعَلَى الذُّلِّ وَالْهَوَانِ، وَشَبَّ عَلَيْهِ الْأَطْفَالُ وَشَابَ عَلَيْهِ الشُّبَّانُ. وَبَرَدَ فِي عُرُوقِهِمْ الدَّمُ.

وأَصْبَحُوا لا يَحْلُمُونَ بِسِيَادَةٍ وَلا يَتَحَدَّثُونَ بِغَزْوٍ وَلا جِهَادٍ.

كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَقْضُونَ أَيَّامَهُمْ فِي الْغُرْبَةِ لَيْسَ لَهُمْ وَطَنٌ وَلا حُكْمٌ.

فَأَرَادَ مُوسى بِوَحْيِ اللَّهِ أَنْ يَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ وَيَسْكُنُوا فِيهَا مُلُوكاً أَحْرَاراً.

وَلَكِنَّ مُوسى كَانَ يَعْرِفُ طَبِيعَةَ الْجُبْنِ وَالضَّعْفِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ.

فَأَرَادَ أَن يُشَوِّقَهُمْ وأَنْ يُهَوِّنَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرَ لأَنَّ الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ قَدْ اسْتَوْلى عَلَيها قَوْمٌ جَبَّارُونَ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ.

ولا يَدْخُلُ بَنُو اسْرَائِيلَ الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ حَتَّى يُخْرِجُوا مِنْهَا هؤُلاءِ الْجَبَّارِينَ.

فَذَكَرَ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَمَا فَضَّلَهُمْ بِهِ عَلى الْعَالَمِينَ، حَتَّى يَنْشَطُوا لِلْجِهَادِ في سَبِيلِ اللَّهِ وَحَتَّى يَكْرَهُوا هذِهِ الْحَيَاةَ الذَّلِيلَةَ غَيْرَ اللَّائِقَةِ.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ثُمَّ قَالَ لَهُمْ إِنَّ أَمَامَكُمْ الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ فَلَيْسَ لَكُمْ إِلَّا أَنْ تَقُومُوا وَتَنْتَزِعُوهَا مِنْ أَعْدَائِكُمْ.

وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا كَتَبَ لأَحَدٍ شَيْئاً وَقَدَّرَهُ لَهُ فَقَدْ هَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَهُ فَلا رَادَّ لِقَضَاءِ اللَّهِ.

﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾.

وَخَافَ أَنْ تَغْلِبَهُمْ طَبِيعَةُ الْجُبْنِ فَقَالَ:

﴿وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

وَوَقَعَ مَا كَانَ يَحْذَرُهُ مُوسى، فَكَانَ جَوَابُهُمْ عَلىٰ كُلِّ مَا قَالَ مُوسى.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾.

وَقَالُوا فِي وَقَارٍ وَسُكُونٍ:

﴿فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾.

وَلٰكِنَّ ذٰلِكَ لَمْ يُؤَثِّرْ فِيهِمْ وَقَالُوا:

إِذَا كَانَ لا بُدَّ مِنَ الدُّخُولِ فَادْخُلْ أَنْتَ بِمُعْجِزَةٍ، فَإِذَا سَمِعْنَا أَنَّكَ قَدْ دَخَلْتَهَا، جِئْنَا فَدَخَلْنَا نَحْنُ أَيْضاً آمِنِينَ سَالِمِينَ.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

هُنالِكَ غَضِبَ مُوسى وَيَئِسَ مِنْ هؤُلاءِ.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

وَفي هذِهِ المُدّةِ يَمُوتُ هذَا الْجِيلُ الَّذِي نَشَأَ في مِصْرَ عَلى الْعُبُودِيَّةِ وَالذُّلِّ.

وَيَنْشَأُ جِيلٌ آخَرُ يَنْشَأُ في هذَا التِّيهِ عَلى الشِّدَّةِ وَالْعُسْرِ وَتِلْكَ أُمَّةُ المُسْتَقْبَلِ وهذا هُوَ مَصِيرُ اليَهُودِ في كُلِّ زَمَانٍ أُمَّةٌ تَائِهَةٌ تَعيشُ عَلَى العُبُودِيَّةِ والذُّلِّ.

١٨ ـ في سبيل العلم

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قَامَ مُوسى خَطِيباً في بَني إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ:

أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟

فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ!

فَعَتَبَ الله عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إلى الله!

فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنَّ عَبْداً مِنْ عِبَادِي بَمَجْمَعِ الْبَحْرِيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ.

قَالَ رَبِّ كَيْفَ بِهِ؟

فَقِيلَ لَهُ احْمِلْ حُوتاً في مِكْتَلٍ (زَنْبِيلٍ) فَإِذَا فَقَدْتَهُ فَهُوَ ثَمَّ.

فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقَ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ وَحَمَلا حُوتاً في مِكْتَلٍ حَتَّى كَانَا عِنْدَ الصَّخْرَةِ وَضَعَا رأسيهما فنَامَا.

فَانْسَلَّ الْحُوتُ مِنَ الْمِكْتَلِ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً (مَسْلَكاً) وَكَانَ لِمُوسى وَفَتَاهُ عَجَباً.

فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمِهِمَا فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ مُوسى لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً (تَعَباً).

وَلَمْ يَجِدْ مُوسى مَسّاً مِنَ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ.

فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾.

قَالَ مُوسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ﴾ ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾.

فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلى الصَّخْرَةِ إِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى (مُغَطًّى) بِثَوْبٍ فَسَلَّمَ مُوسى.

فَقَالَ الْخَضِرُ: وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلامُ؟

فَقَالَ: أَنَا مُوسى!

فَقَالَ: مُوسى بَني إِسْرَائِيلَ؟

قَالَ: نَعَمْ!

قَالَ مُوسى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾؟

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾!

يَا مُوسى إِنِّي على عِلْم مِنْ عِلْم اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ الله لَا أَعْلَمُهُ!

فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلى سَاحِلِ الْبَحْرِ لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ

فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا .

فَعُرِفَ الْخَضِرُ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ (أُجْرَةٍ) .

فَجَاء عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ مِنَ الْبَحْرِ .

فَقَالَ الْخَضِرُ :

يَا مُوسى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا كَنَقْرَةِ هَذا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ .

فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ .

فَقَالَ مُوسى :

قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا؟!!

قَالَ الْخَضِر :

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؟!

قَالَ مُوسى :

﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ .

فَكَانَتِ الأُولى مِنْ مُوسى نِسْيَاناً .

فَانْطَلَقَا فَإِذَا بِغُلامٍ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ فَأَخَذَ الخَضِرُ بِرَأْسِهِ مِنْ أَعْلاهُ فَاقْتَلَعَ رَأْسَهُ بِيَدِهِ.

فَقَالَ مُوسى:

﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾!

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؟!

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ اَسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ . . .﴾.

قَامَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ فَأَقَامَهُ.

فَقَالَ مُوسى:

﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾!

فَقَالَ: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾!

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسى لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتَّى يُقُصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمرِهِمَا[1]!».

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري.

١٩ ـ التَّأْوِيلُ

ثُمَّ نَبَّأَ الْخَضِرُ مُوسى.

فَقَالَ: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ (صَالِحَةٍ) غَصْبًا﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾.

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

هُنَالِكَ عَرَفَ مُوسى أَنَّ أَحداً لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُحِيطَ بِعِلْمِ اللَّهِ وأَنَّ بَعْضَ عِلْمِهِ عِنْدَ بَعْضٍ وَبَعْضَهُ عِنْدَ بَعْضٍ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ.

٢٠ - بَنُو إِسْرَائِيلَ بَعْدَ مُوسى

وتُوُفِّيَ مُوسى وَبَنُو إِسْرَائِيلَ يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ عِقَاباً مِنَ اللهِ وَجَزَاءَ أَعْمَالِهِمْ.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

إِنَّهُمْ قَدْ أَسْخَطُوا اللهَ الَّذِي جَعَلَ فِيهِمْ أَنْبِيَاءَ، وَجَعَلَهُمْ مُلُوكاً، وآتاهُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ فِي عَصْرِهِمْ.

الَّذِي أَنْجَاهُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ.

الَّذِي فَرَقَ بِهِمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَاهُمْ وَأَغْرَقَ آلَ فِرْعَوْنَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ.

الَّذِي ظَلَّلَ عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى.

الَّذِي فَجَّرَ لَهُمْ مِنَ الأَرْضِ عُيُوناً، وَوَسَّعَ لَهُمْ فِي مَأْكَلٍ وَمَشْرَبٍ.

وَكَانَ جَزَاءُ كُلِّ ذلِكَ أَنْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَعَصَوْا وَاعْتَدَوا.

وَأَغْضَبُوا نَبِيَّهُمْ مُوسى أَشْفَقَ خَلْقِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَأَشْفَقَ عَلَيْهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ.

ذَلِكَ الَّذِي كَانَ يَحْنُو عَلَيْهِمْ حُنُوّ الْمُرْضِعِ عَلَى الْفَطِيمِ، والأُمِّ الْحَنُونِ على الْيَتِيم.

ذلِكَ الَّذِي سَبُّوهُ دَعَا لَهُمْ وَكُلَّمَا ضَحِكُوا عَلَيْهِ بَكَى لَهُمْ وَكُلَّمَا جَفَوْهُ رَثَى لَهُمْ.

ذَلِكَ الَّذي خَلَّصَهُمْ مِنْ أَسْرِ فِرْعَوْنَ وَأَخْرَجَهُمْ مِنْ سِجْنِ مِصْرَ إِلى بَرِّ الْحُرِّيَّةِ وَالشَّرَفِ، وَمِنْ حَيَاةِ الْعَبِيدِ الأَشْقِيَاءِ، إِلى حَيَاةِ الأَحْرَارِ الشُّرَفَاءِ.

قَدْ أَغْضَبُوهُ وَآذُوهُ وَعَانَدُوهُ وَسَخِرُوا مِنْهُ وَجَعَلُوهُ أَهْوَنَ رَجُلٍ فِيهِمْ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً.

أَلا يَسْتَحِقُّونَ هذَا الْعِقَابَ وَالْخِزْيَ والذُّلَّ وَالْمَسْكَنَةَ وَالتِّيهَ الدَّائِمَ وَأَلَّا يُفْلِحُوا أَبداً؟

بَلَى! إِنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ كُلَّ ذَلِكَ وَأَكْثَرَ بِأَعْمَالِهِمْ: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

١ ـ نَظْرَةٌ عَلَى الْقَصَصِ السَّابِقَةِ

قَرَأْتُمْ قِصَّةَ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وَسَيِّدِنَا يُوسُفَ، وَقَرَأْتُمْ قِصَّةَ سَيِّدِنَا نُوحٍ وَسَيِّدِنَا هُودٍ وَسَيِّدِنا صَالِحٍ، قَرَأْتُمْ قِصَّةَ سَيِّدِنَا مُوسى في شَيْءٍ مِنَ التَّفْصِيلِ وَالتَّطْوِيلِ، قَرَأْتُمْ كُلَّ ذَلِكَ بِشَوْقٍ وَرَغْبَةٍ، وَإِجْلاَلٍ وَتَقْدِيرٍ، وَحَلَّتْ فِي نُفُوسِكُمْ وَقُلُوبِكُمْ مَحَلَّ الْقَصَصِ الْحَبِيبَةِ الْأَثِيرَةِ، وَوَعَتْهَا ذَاكِرَتُكُمْ، وَذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُكُمْ، وَقَدْ رَآكُمُ النَّاسُ تَحْكُونَهَا لإِخْوَتِكُمْ الصِّغَارِ، وَتُرَدِّدُونَهَا لِلْأَبَوَيْنِ، وَالْإِخْوَةِ الْكِبَارِ، وَأَنْتُمْ تَتَذَوَّقُونَهَا، وَقَدْ تَتَحَمَّسُونَ فِي حِكَايَتِهَا.

٢ ـ قِصَّةُ صِراعٍ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ

وَلَا غَرَابَةَ؛ فَإِنَّهَا قِصَصٌ شَائِقَةٌ مُثِيرَةٌ، وَإِنَّهَا قِصَّةُ صِراعٍ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَبَيْنَ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ، وَبَيْنَ

النُّورِ وَالظَّلام، وَبَيْنَ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْوَحْشِيَّةِ، وَبَيْنَ الْجَزْمِ وَالْيَقِينِ، وَالظَّنِّ والتَّخْمِينِ.

ثُمَّ إِنَّهَا قِصَّةُ انْتِصَارٍ لِلْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ، وَالْعِلْمِ عَلَى الْجَهْلِ، وَالضَّعِيفِ عَلَى الْقَوِيِّ، وَالْقَلِيلِ عَلَى الْكَثِيرِ، قِصَّةٌ فِيها عِلْمٌ وَحِكْمَةٌ، وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى، وَصَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

قِصَّةُ سَيِّدِنَا شُعَيْبٍ عليه السلام

وَلَيْسَ ما حَكَيْنَاهُ لَكُمْ مِنْ قَصَصِ النَّبِيِّينَ، هُوَ كُلُّ مَا حَكَاهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ مِنْ قِصَصِهِمْ وَحِكَايَاتِهِمْ، فَفِي الْقُرْآنِ قَصَصٌ غَيْرُ هَذِهِ الْقِصَصِ.

٣ ـ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً

فِيهِ قِصَّةُ نبيِ اللَّهِ شُعَيْبِ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ إلى مَدْيَنَ وَأَصْحَابِ الْأَيْكَةِ، وَهُمْ أَصْحَابُ تِجارَةٍ وَسِلَعٍ، فَقَدْ كَانُوا عَلَى الْجَادَّةِ التِّجَارِيَّةِ الْكَبِيرَةِ بَيْنَ الْيَمنِ وَالشَّامِ، وَبَيْنَ العِرَاقِ وَمِصْرَ، عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ.

كَانُوا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ غَيْرَهُ، كَمَا كَانَتْ أُمَمُ الْأَنْبِيَاءِ فِي كُلِّ عَصْرٍ، وَكَانُوا ـ زِيادَةً إلى ذَلِكَ ـ يَنْقُصُونَ المِكْيَالَ وَالْمِيزانَ، وَيُطَفِّفُون في الْكَيْلِ، وَيَتَعَرَّضُونَ لِلْقَوَافِلِ، فَيَتَوَعَّدونَها وَيُخيفونَها، وَيَعيثونَ في الأَرْضِ فَساداً،

شَأْنُ الْأَغْنِيَاءِ الأَقْوِيَاءِ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ حِسَاباً وَلا يَخْشَوْنَ عَذَاباً.

فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ رَسُولَهُ شُعَيْباً يَدْعُوهُمْ وَيُنْذِرُهُمْ، وَيَقُولُ لَهُمْ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

٤ ـ دَعْوَةُ شُعَيْبٍ

وَيَبْسِطُ لَهُمْ فِي الْكَلَامِ وَيَحُلُّ عُقْدَةً فِي أَنْفُسِهِمْ، وَهِيَ عُقْدَةُ حُبِّ الْمَالِ وَالزِّيَادَةِ فَيَقُولُ:

إِنَّ مَا يَفْضُلُ لَكُمْ مِنَ الرِّبْحِ بَعْدَ وَفَاءِ الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالظُّلْمِ وَالْخِيَانَةِ، وَإِذَا نَظَرْتُمْ فِي حَيَاتِكُمْ، وفي حَياةِ هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَثْرَوْا وَجَمَعُوا الأَمْوَالَ، وَجَدْتُمْ أَنَّ مَا اكْتَسَبُوهُ عَنْ طَرِيقِ

التَّطْفِيفِ وَالْبَخْسِ وَالْخِيانَةِ، كَانَ مَصيرُهُ إِلى التَّلَفِ وَالضَّياعِ أَوِ الْفَسَادِ وَالْبَلاءِ، فَسُرِقَ أَوْ نُهِبَ أو أُنْفِقَ في غَيْرِ مَا يُرْضِي اللَّهَ أو سُلِّطَ عَلَيْهِ مَنْ أَتْلَفَهُ وَعَبَثَ بِهِ، وَالْقَلِيلُ الَّذِي يَنْفَعُ خَيْرٌ مِنَ الْكَثِيرِ الَّذِي لا يَنْفَعُ: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾.

وَنَصِيحَتي لَكُمْ خَالِصَةٌ مُخْلِصَةٌ، واللَّهُ هُوَ الرَّقِيبُ عَلَيْكُمْ وَحْدَهُ، يَقولُ فِي رِفْقٍ وَحِكْمَةٍ وَعَنْ عِلْمٍ وَبَصِيرةٍ:

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾.

٥ ـ أَبٌ رَحِيمٌ وَمُعَلِّمٌ حَكِيمٌ

وَيُنَوِّعُ لَهُمْ فِي الْخِطَابِ، وَيَتَفَنَّنُ فِي النَّصِيحَةِ، شَأْنُ الْأَبِ الرَّحِيمِ وَالْمُعَلِّمِ الْحَكِيمِ، فَيَقُولُ:

﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ

وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

٦ ـ جَوَابُ قَوْمِهِ

وَقَدْ دَقَّقَ أَذْكِيَاؤُهُمْ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ وَتَعْلِيلِهَا، وَقَالُوا فِي تِيهٍ وَزَهْوٍ، كَأَنَّهُمْ اكْتَشَفُوا سِرًّا، أَوْ فَكُّوا لُغْزاً:

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾.

٧ ـ شُعَيْبٌ يَشْرَحُ دَعْوَتَهُ

وَتَلَطَّفَ لَهُمْ شُعَيْبٌ، فَلَمْ يَقْسُ وَلَمْ يَغْضَبْ، وَأَفْهَمَهُمْ أَنَّهُ مَا حَمَلَهُ عَلَى هَذِهِ الدَّعْوَةِ وَالنَّصِيحَةِ بَعْدَ

صَمْتٍ طَويلٍ وَعَدَمِ تَعَرُّضٍ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ أَخْلاقٍ فَاسِدَةٍ وَتَصَرّفاتٍ جَائِرَةٍ، إلّا مَا أَكْرَمَهُ اللّهُ بِهِ أَخِيراً: بالنُّبُوَّةِ وَالْوَحِيِ وَمَا شَرَحَهُ لَهُ صَدْرَهُ وَآتاهُ نُوراً مِنْ عِنْدِهِ.

وَأَنَّهُ لا يَحْمِلُهُ عَلَى ذَلِكَ الْحَسَدِ، فَقَدْ أَغْنَاهُ اللّهُ وَرَزَقَهُ حَلالاً طَيِّباً، وَأَنَّهُ بِذَلِكَ سَعيدٌ، هَنيءُ النَّفْسِ، رَخِيُّ الْبَالِ، شَاكِرٌ لِلّهِ تَعالى بِالْقَلْبِ وَاللّسانِ.

ثُمَّ أَنَّهُ لا يَنْهَاهُمْ عَنْ أَمْرٍ وَيَرْتَكِبُهُ، وَيَمْنَعُهُمْ مِنْ شَيْءٍ وَيَأْتِيهِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ، وَلا مِنَ الَّذِينَ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلونَ، إنما يُريدُ إصْلاحَهُمْ وَإِسْعَادَهُمْ وَإِنْقَاذَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي يُحَلِّقُ عَلَى رُؤوسِهِمْ وَإِنَّ الْفَضْلَ كُلَّهُ يَرْجِعُ إِلَى اللّهِ تَعَالَى وَعَلَيْهِ اعْتِمَادُهُ.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾.

٨ ـ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ

وَتَجاهَلَ الْقَوْمُ ما أَرادَهُ شُعَيْبٌ كَأَنَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ مَعَهُمْ فِي لُغَةٍ أَجْنَبِيَّةٍ مَعَ أَنَّهُ ابْنُ الْبَلَدِ وَأَخُو الْقَوْمِ، وَكَأَنَّهُ كانَ غَيْرَ مُبِينٍ فِي كَلامِهِ، غَيْرَ مُفْصِحٍ، مَعَ أَنَّهُ مِنْ أَبْلَغِهِمْ كَلاماً وَأَنْصَعِهِمْ بَياناً، وَهَكَذَا يَقُولُ النَّاسُ إِذَا كَبِرَتْ عَلَيْهِمْ النَّصِيحَةُ وَشَقَّ عَلَيهِمُ الْعَمَلُ.

٩ ـ شُعَيْبٌ يَتَعَجَّبُ مِنْ قَوْمِهِ

وَتَعَلَّلُوا بِضَعْفِهِ وَوَحْدَتِهِ وَأَنَّهُ لَوْلا عَشِيرَتُهُ وَقَرابَتُهُمْ لَهُ لَرَجَمُوهُ بِالْحِجَارَةِ، وَتَخَلَّصُوا مِنْهُ، وَقَدْ اسْتَنْكَرَ ذَلِكَ شُعَيْبٌ، وَتَعَجَّبَ مِنْ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْقَادِرُ، وَالْقَوِيُّ الْقَاهِرُ، أَهْوَنَ عَلَيْهِمْ مِنْ عَشِيرة هِيَ عُرْضَةٌ لِلأَمْرَاضِ وَالْهَلاكِ وَالضَّعْفِ وَالْعَجْزِ.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ

وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾.

١٠ ـ السَّهْمُ الْأَخِيرُ

وَلَمَّا انْقَطَعَتْ حُجَّتُهُمْ أَطْلَقُوا السَّهْمَ الْأَخِيرَ الَّذِي أَطْلَقَهُ الْمُتَكَبِّرُونَ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ عَلَى نَبِيِّهِمْ وَأَتْبَاعِهِ:

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾.

١١ ـ حُجَّةٌ قَاطِعَةٌ

فَكَانَ جَوابُهُ جَوابَ فَخُورٍ بِدِينِهِ غَيُورٍ عَلَى عَقِيدَتِهِ وَضَمِيرِهِ:

﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

١٢ ـ بَلْ قَالُوا مِثْلَ ما قَالَ الأَوَّلُونَ

فَلَمْ يَنْفَعْهُمْ ذَلِكَ، بَلْ قَالُوا مِثْلَما قَالَ الأَوَّلُونَ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾.

١٣ ـ عَاقِبَةُ أُمَّةٍ كَذَّبَتْ نَبِيَّها

وَكَانَتْ الْعَاقِبَةُ وَاحِدَةً، عَاقِبَةَ كُلِّ أُمَّةٍ كَذَّبَتْ نَبِيَّهَا وَكَفَرَتْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

١٤ ـ بَلَّغَ الرِّسَالَةَ وَأَدَّى الأَمَانَةَ

وَكَانَ شَأْنُ شُعَيْبٍ، شَأْنَ كُلِّ نَبِيٍّ بَلَّغَ الرِّسالَةَ، وَأَدَّىٰ الْأَمَانَةَ وَأَقَامَ الْحُجَّةَ: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

قِصَّةُ
سَيِّدِنا داود، وَسَيِّدِنا سُلَيْمَان عليهما السلام

وَلَمْ يَقْتَصِرِ الْقُرْآنُ عَلَى ذِكْرِ أَيَّام اللَّهِ وَمَا لَقِيَهُ الْأَنْبِياءُ وَالرُّسُلُ مِنْ تَكْذِيبٍ وَسُخْرِيَّةٍ وَإِهَانَةٍ وَمُطَارَدَةٍ مِنَ الْأُمَمِ الَّتِي بُعِثُوا فِيها، وَما لَقِيَتْ هَذِهِ الْأُمَمُ مِنْ عُقُوبَةٍ وَعَذابٍ وَهَلاكٍ وَدَمَارٍ لِتَكْذِيبِها للرُّسُلِ وَاسْتِهزائِها بِهِمْ وَكَيْدِها لَهُمْ وَهَمِّها بِقَتْلِهِمْ، كما مَرَّ بِكُمْ في قَصَصِ النَّبيين.

١ ـ الْقُرْآنُ يَتَحَدَّثُ عَنْ آلاءِ اللَّهِ

بَلْ تَحَدَّثَ الْقُرْآنُ كَثِيراً عَنْ آلاءِ اللَّهِ، وَحَكَى في بَسْطٍ أَحْياناً وَفي اخْتِصَارٍ أَحْياناً عَنْ نِعَمٍ كَثِيرَةٍ، أَنْعَمَ بها عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، مِنْهُمْ دَاودَ وَسُلَيْمانُ، وَمِنْهُمْ أَيُّوبُ وَيُونُسُ، وَمِنْهُمْ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى.

فَأَمّا دَاودُ وَسُلَيْمانُ فَقَدْ مَكَّنَ اللَّهُ لَهُمَا في الْأَرْضِ،

وَوَسَّعَ لَهُما فِي المُلْكِ، وَمَدَّ لَهُمَا فِي الْعِلْمِ، وَعَلَّمَهُمَا كَثِيراً مِمَّا جَهِلَهُ النَّاسُ، وَسَخَّرَ لَهُمَا الْأَقْوِيَاءَ وَالْعُتَاةَ، وَمَا لا يَنْقَادُ مِنَ الْحَيَوانَاتِ وَالْجَمَادَاتِ، فَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾.

٢ ـ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَى داودَ

فَأَمَّا داود فَقَدْ سَخَّرَ اللَّهُ لَهُ الْجِبَالَ وَالطَّيْرَ تَتَجَاوَبُ مَعَهُ فِي الدُّعَاءِ وَالتَّسْبِيحِ، وَعَلَّمَهُ صَنْعَةَ الدُّروعِ، وَأَلَانَ لَهُ الْحَدِيدَ. ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾. وَيَقُولُ: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

٣ ـ شُكْرُهُ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ

وَكَانَ دَاوُد مَعَ هَذا المُلْكِ الْوَاسِعِ وَالْيَدِ الْحاذِقَةِ الْقَوِيَّةِ كَانَ عَبْداً خاشِعاً أَوَّاباً، دَائِمَ الذِّكْرِ، طَويلَ الدُّعاءِ والتَّسْبِيحِ، حَاكِماً مُقْسِطاً، يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا يُحابي، يَقُول اللَّهُ تَعالَى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾.

٤ ـ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَى سُلَيْمَانَ

فَأَمَّا سُلَيْمَانُ فَقَدْ سَخَّرَ اللَّهُ لَهُ الرِّياحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ وَتَحْمِلُهُ مِنْ مَكَانَ إِلَى مَكَانٍ، فَيَصِلُ إِلَيْهِ فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ وَأَسْرَعِ زَمانٍ وَسَخَّرَ لَهُ الأَقْوِيَاءَ وَالْحَاذِقِينَ مِنَ الْجِنِّ، وَالمارِدينَ مِنَ الشَّياطِينَ، يُنَفِّذونَ أَوامِرَهُ وَيُكَمِّلونَ مَشَارِيعَهُ الْعُمْرَانِيَّةَ وَالْبِنَائِيَّةَ الْعِمْلاقَةَ.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا

وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ۚ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾.

٥ ـ فِقْهٌ دقيقٌ وَعِلْمٌ عَميقٌ

وَقَدْ تَجَلَّى ذَكاؤُهُ وَقُدْرَتُهُ عَلَى الْحُكْمِ الصَّحِيحِ في قَضِيَّةٍ رُفِعَتْ إلى والِدِهِ الْعَظِيمِ، فَكَانَ لِقَوْمٍ كَرْمٌ قَدْ أَنْبَتَتْ عَنَاقِيدَهُ، فَدَخَلَتْ فِيه غَنَمٌ لِقَوْمٍ فَأَفْسَدَتْهُ، فَقَضى داوُدُ بِالْغَنَمِ لِصَاحِبِ الْكَرْمِ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ: غَيْرَ هَذا يا نَبِيَّ اللَّهِ، قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: تَدْفَعُ الْكَرْمَ إِلى صَاحِبِ الْغَنَمِ فَيَقُومُ عَلَيْهِ كَمَا كَانَ، وَتَدْفَعُ الْغَنَمَ إِلى صَاحِبِ الْكَرْمِ فَيصيبُ مِنْهَا، حَتَّى إذا كَانَ الْكَرْمُ كَمَا كانَ دَفَعْتَ الْكَرْمَ إِلى صَاحِبِهِ وَدَفَعْتَ الْغَنَمَ إِلى صَاحِبِهَا.

وَخَصَّهُ اللَّهُ بِفِقْهٍ دَقيقٍ وَعِلْم عَميقٍ فَقالَ:

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

٦ ـ سُلَيْمانُ يَعْرِفُ لُغَةَ الطَّيْرِ وَالْحَيَوانِ

وَقَصَّ الْقُرْآنُ قِصةً حَكِيمَةً مُمْتِعَةً تَجَلَّى فيها تَيَقُّظُ سُلَيْمانَ فِي تَدْبيرِ مَمْلَكَتِهِ، وَرَهْبَةِ سُلْطانِهِ، كَيْفَ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ بَيْنَ سَعادَةِ الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ، وَبَيْنَ الْمُلْكِ وَالتَّمْكينِ، وَالنُّبُوَّةِ والرِّسالَةِ في الدِّينِ، وَكانَ يَعْرِفُ لُغَةَ الطَّيْرِ وَالْحَيَوانِ، وَجَمَعَ جُنودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ ذاتَ مَرَّةٍ، وَرَكِبَ فِيهِمْ فِي أُبَّهَةٍ وَعَظَمَةٍ وَكانوا على نِظامٍ كامِلٍ، وكانوا في قِيادَةِ رُؤَسائِهِمْ، فَمَرَّ سُلَيْمانُ عَلى وادي النَّمْلِ، فَخافَتْ نَمْلَةٌ عَلى قَبيلَتِها أَنْ تَحْطِمَها الْخُيُولُ بِحَذافِيرِها، ولا يَشْعُرُ بذلِكَ سُلَيْمانُ وَجُنودُهُ، فَأَمَرَتْهُمْ بالدُّخولِ إِلى مَساكِنِهِمْ، فَفَهِمَ ذلِكَ سُلَيْمانُ، وَلَمْ يَأْخُذْهُ التِّيهُ وَلا الزَّهْوُ بِأَنَّهُ نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِياءِ اللَّهِ بَلْ

حَمَلَهُ ذَلِكَ عَلَى حَمْدِ اللَّهِ تعالى وَشُكْرِ نِعْمَتِهِ، والدُّعَاءِ وَالتَّوْفِيقِ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ والانخِراطِ في سِلْكِ عِبادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ.

٧ ـ قِصَّةُ هُدْهُدٍ

وَكَانَ الْهُدْهُدُ رَائِدُهُ وَعَيْنُهُ يَدُلُّهُ عَلَى مَواضِعِ الْمِيَاهِ، وَمَنازِلِ الْجَيْشِ، فَلَمْ يَجِدْهُ، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ وَتَوَعَّدَهُ، فَغَابَ زَماناً يَسِيراً ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ لِسُلَيْمَانَ: اطَّلَعْتُ عَلَى مَا لَمْ تَطَّلِعْ عَلَيْهِ أَنْتَ وَلا جُنُودَكَ وَجِئْتُكَ بِخَبَرِ صِدْقٍ عَنْ سَبَإٍ وَمَلِكَتِهِمْ: لَهُمْ مُلْكٌ عَظِيمٌ، وَدَوْلَةٌ واسِعَةٌ، وَقَدْ وَجَدْتُهُمْ على هذا الْعَقْلِ وَالْكِيَاسَةِ، وَالْمُلْكِ وَالرِّيَاسَةِ، أَصْحَاب سَفَاهَةٍ وَجَهَالَةٍ. وَهُمْ يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ، ولا يَفْقَهونَ ذَلِكَ، وَلا يَهْتَدُونَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ.

٨ ـ سُلَيْمَانُ يَدْعو مَلِكَةَ سَبَإٍ إِلَى دِينِهِ

وَشَقَّ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ بِجِوَارِ مَمْلَكَتِهِ مَلِكٌ وَأُمَّةٌ لا يَعْرِفُها وَلَمْ تَبْلُغْها دَعْوَتُهُ، وَلا تَزَالُ تَعْبُدُ

الشَّمْسَ، وَثَارَتْ فِيهِ الْحِمْيَةُ الدِّينِيَّةُ النَّبَوِيَّةُ، وَرَأَى مِنَ الصَّوابِ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى مَلِكَتِهَا وَحَاكِمَتِهَا الْمُشْرِكَةِ وَيَدْعُوها إِلى الإِسْلاَمِ، وَالطَّاعَةِ وَالاسْتِسْلام، قَبْلَ أَنْ يَزْحَفَ عَلَى بِلادِها بِجُنُودِهِ الْقَاهِرَةِ، فَكَتَبَ إِلَيْهَا كِتاباً بَلِيغاً وَدَعَاها فِيهِ إِلَى الإِسْلامِ وَالاسْتِسْلام. وَالْكِتَابُ يَجْمَعُ بَيْنَ الرِّقَّةِ وَالصَّرامَةِ وَتَواضُعِ الأَنْبِياءِ وَغَيْرَةِ الْمُلوكِ.

٩ ـ الْمَلِكَةُ تَسْتَشِيرُ أَرْكَانَ دَوْلَتِهَا

فَقَدْ كانَ سُلَيْمَانُ جامِعاً بَيْنَهُمَا، وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ الَّتِي تَحْكُمُ هَذِهِ الْبِلادَ عَاقِلَةً غَيْرَ مُتَسَرِّعَةٍ في الْحُكْمِ، عِنْدَهَا تَجارِبُ وَاسِعَةٌ مِنَ سِيَرِ الْمُلُوكِ وَأَخْبَارِ الْفَاتِحِينَ، وَإِنَّمَا خَانَهَا عَقْلُها في مَعْرِفَةِ الإِلٰهِ وَعِبادَتِهِ فَلَمْ تَأْخُذْهَا حَمِيَّةُ الْمُلُوكِ، وَلَمْ تَسْتَبِدَّ بِالرَّأْيِ، فَأَطْلَعَتْ أَهْلَ الرَّأْيِ مِنْ أَرْكَانِ دَوْلَتِهَا عَلَى هذَا الْكِتَابِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ كَسائِرِ الْكُتُبِ، إِنَّهُ كِتَابٌ مِنْ أَعْظَمِ الْمُلوكِ في زَمانِها وَمِنْ نَبِيٍّ داعٍ إِلى اللَّهِ.

وَلَمَّا بَدَأَ أَرْكَانُ دَوْلَتِهَا يُدلُونَ بِقُوَّتِهِمْ وَكَثْرَةِ جُيُوشِهِمْ إِرْضَاءً وَتَمَلُّقاً، شَأْنُ جُلَسَاءِ الْملوكِ وَالْحُكَّام في كلِّ زَمانٍ وَمَكانٍ، لَمْ تَقْبَلْ مَقالَتَهُمْ وَلَمْ توافِقْهُم عَلَيْهَا، بل حَذَّرَتْهم مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ وَذَكَّرَتْهُمْ بِسِيرَةِ الْمُلُوكِ الْفاتِحينَ في الْأُمَم المفْتوحَةِ وَمَصِيرِها بَعْدَ الْهَزيمَةِ والانْكِسَارِ، وَقَالَتْ: سَيَكُونُ هَذَا شَأْنُ بِلادِنَا وَأُمَّتِنا، وَقَالَتْ لَهُمْ: إِنَّني سَأُرْسِلُ إِلَى سُلَيْمَانَ بِهَدَايَا وَطُرَفٍ فَأَمْتَحِنُهُ بِهَا، فَإِنْ قَبِلَ الْهَدِيَّةِ فَهُوَ مَلِكٌ فَقَاتِلُوه، وَإِنْ لَمْ يَقْبَلْهَا فَهُوَ نَبِيٌّ فَاتَّبِعوه.

١٠ ـ هَدِيَّةُ مُسَاوَمَةٍ

وَبَعَثَتْ إِلَيْهِ بِهَدِيَّةٍ عَظِيمَةٍ لائِقَةٍ بِالْمُلُوكِ، فَلَمَّا وَصَلَتْ إِلى سُلَيْمَانَ أَعْرَضَ عَنْهَا، وَزَهِدَ فِيهَا وَقَالَ: أَتُساوِمونَنِي بِمالٍ لأَتْرُكَكُمْ عَلَى شِرْكِكُمْ وَمُلْكِكُمْ. وَالَّذِي أَعْطَانِي اللَّهُ مِنَ الْمُلْكِ وَالْمَالِ وَالْجُنُودِ خَيْرٌ مِمّا أَنْتُمْ فِيهِ، وَالْأَمْرُ جِدٌّ لَيْسَ بِهَزْلٍ، وَالْقَضِيَّةُ قَضِيَّةُ دَعْوَةٍ وَطَاعَةٍ، لَيْسَتْ قَضِيَّةَ مُسَاوَمَةٍ، وَتَوَعَّدَهُمْ بِقَصْدِهِ لَهُمْ وَزَحْفِهِ عَلَى مُلْكِهِمْ.

١١ ـ الْمَلِكَةُ تَأْتِي خاضِعَةً

فَلَمَّا رَجَعَتْ هَذِهِ «الْبِعْثَةُ» إِلَى مَلِكَةِ سَبَإٍ، وَحَكَتْ لَهَا الْقِصَّةُ، سَمِعَتْ وَأَطاعَتْ هِيَ وَقَوْمَهَا وَأَقْبَلَتْ تَسيرُ إِلَيْهِ في جُنُودِهَا خَاضِعَةً، ولَمّا تَحَقَّقَ سُلَيْمَانُ عليه السلام، قُدُومَهُمْ إِلَيْهِ فَرِحَ بِذَلِكَ وَحَمِد اللَّهَ، وأَرَادَ أَنْ يُرِيهَا آيَةً مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَدَلَّ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ وَنِعَمِهِ عَلَى سُلَيْمَانَ، فَأَرادَ أَنْ يُحضَرَ عَرْشُها الذي وَكَّلتْ بِهِ رِجالاً أقوياءَ أمناءَ، فَطَلَبَ مِنْ مَلَئِهِ أَنْ يَأْتُوهُ بِعَرْشِهَا قَبْلَ وُصُولِ هَذا الْمَوْكِبِ الْعَظِيمِ.

وَقَدْ تَحَقَّقَ مَا أَرَادَ سُلَيْمَانُ فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ وَكَانَ مُعْجِزَةً، وَأَمَرَ به سُلَيْمَانُ فغُيِّر بَعْضُ صِفاتِهِ لِيَخْتَبِرَ مَعْرِفَتِهَا وَثَباتَها عِنْدَ رُؤْيَتِهِ، وَإِنْ الْتَبَسَ عَلَيْهَا الأَمْرُ كانَ دَليلاً عَلَى قُصورِ نَظَرِهَا في أُمورٍ أَدَقَّ مِنْهُ وَأَبْعَدَ مَنالاً.

١٢ ـ قَصْرٌ عَظِيمٌ مِنْ زُجاجٍ

وَأَمَرَ سُلَيْمَانُ الْبَنَّائِينَ مِنَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ فَبَنَوْا لَها

قَصْراً عَظِيماً مِنْ زُجَاجٍ وَأَجْرَوْا تَحْتَهُ الْمَاءَ، فَالَّذِي لا يَعْرِفُ أَمْرَهُ يَحْسِبُ أَنَّهُ مَاءٌ، وَلَكِنَّ الزُّجَاجَ يَحولُ بَيْنَ الماشي وَبَيْنَ الْمَاءِ، وَكانَ الْمُؤكَّدُ أَنَّ المَلِكَةَ تَتَوَهَّمُهُ ماءً فَتَكْشِفُ عَنْ سَاقَيْها، وَهُنَالِكَ تَتَبَيَّنُ الْخَطأَ وَتُدْرِكُ قُصُورَ نَظَرِهَا وَانْخِدَاعِها بِالْمَظَاهِرِ، وَكَانَتْ هِيَ وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ لِأَنَّهَا أَكْبَرُ مَظْهَرٍ للنُّورِ وَالْحَيَاةِ، الَّتي هِيَ مِنْ صِفاتِ اللَّهِ تَعَالى، وَهُنَالِكَ يَنْكَشِفُ الْغِطَاءُ عَنْ عَيْنِها فَتَعْرِفُ أَنَّها كَما أَخْطَأَتْ في مُعَامَلَةِ الزُّجاجِ مُعَامَلَةَ الْمَاءِ فَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا كَذَلِكَ أَخْطَأَتْ في مُعَامَلَةِ الشَّمْسِ مُعَامَلَةَ الْخَالِقِ فَسَجَدَتْ لَهَا وَعَبَدَتْهَا، وَكَان ذَلِكَ أَبْلَغَ مِنْ مِئَةِ خُطْبَةٍ وأَلْفِ دَلِيلٍ.

١٣ ـ وَأَسْلَمَتْ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

وَهَكَذَا كَانَ، فَقَدْ تَوَرَّطَتْ رَغْمَ دَهَائِهَا وَذَكَائِها في هَذا الْخَطَإِ الْفَاحِشِ، وَتَوَهَّمَتْ الزُّجَاجَةَ ماءً رَقْراقاً يَسِيلُ وَيَمُوجُ، فَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا، وَأَرَادَتْ أَنْ تَخُوضَهُ.

هُنالِكَ نَبَّهَها نَبِيُّ اللَّهِ سُلَيْمَانُ عَلَى خَطَئِها، وَقَالَ: إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ، وَانْكَشَفَ الْغِطَاءُ عَنْ عَيْنِها، وَعَرَفَتْ جَهْلَها في قِياسِ الْمَظْهَرِ عَلَى الظَّاهِرِ وَعِبادَةِ الشَّمْسِ والسُّجودِ لَها، وَابْتَدَرَتْ تَقُولُ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

١٤ ـ الْقُرْآنُ يَحْكِي قِصَّةَ سُلَيْمَانَ

وَاقْرَؤُوا هَذِهِ الْقِصَّةِ الشَّائِقَةِ الْمُمْتِعَةَ فِي الْقُرآنِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعالَىٰ:

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا

تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ
ٱلۡعَظِيمِ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ
﴿٢٧﴾ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا
يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ
مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ
وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ
قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ
وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ
قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٤﴾
وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا
جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ
بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا
قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ
أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ
ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ
﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ

إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

وَهَذَا نَبِيُّ اللَّهِ سُلَيْمَانُ وَقَدْ رَأَيْتُمْ مَوَاقِفَهُ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى التَّوْحِيدِ، وَحِكْمَتِهِ وَفِقْهِهِ وَغَيْرَتِهِ عَلَى دِينِهِ وَعَقِيدَتِهِ.

١٥ ـ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا

نَسَبَ إِلَيْهِ الْيَهُودَ مَا لا يَلِيقُ بِمُؤْمِنٍ مُوَحِّدٍ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِيمَانِ، فَضْلاً عَنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ،

وَأَكْرَمَهُ بِالنُّبُوَّةِ، وَشَرَّفَهُ بِالْخِلاَفَةِ، فَنَسَبُوا إِلَيْهِ السِّحْرَ وَالْكُفْرِ وَالْمُدَاهَنَةِ لِلْشِرْكِ وَالاضْطِرابِ فِي أَمْرِ التَّوْحِيدِ بِسَبَبِ أَزْوَاجِهِ، فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾. وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾. وقال: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

قصة
سيدنا أيوب وسيدنا يونس عليهما السلام

١ ـ قِصَّةُ أيوبَ نَمَطٌ آخَرُ مِنَ الْقَصَصِ

وَقِصَّةُ أَيّوبَ في الْقُرْآنِ نَمَطٌ آخَرَ مِنَ الْقَصَصِ، وَمَظْهَرٌ آخَرُ مِنْ مَظَاهِرِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، الصَّابِرِينَ الشَّاكِرِينَ، وَالْأَنْبِيَاءِ الْمَحْبُوبِينَ؛ فَقَدْ كَانَ لَهُ مِنَ الدَّوابِّ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ شَيْءٌ كَثِيرٌ وَأَوْلادٌ مَرْضِيَّةٌ، فَابْتُلِيَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَذَهَبَ عَنْ آخِرِهِ، ثُمَّ ابْتُلِيَ في جَسَدِهِ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ سَليمٌ سِوَى قَلْبِهِ وَلِسَانِه، يَذْكُرُ بِهِمَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَأُفْرِدَ في نَاحِيةٍ مِنَ الْبَلَدِ، وَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يَحْنو عَلَيْهِ، سِوَى زَوْجَتِهِ كانَتْ تَقُومُ بِأَمْرِهِ، وَاحْتَاجَتْ أَيْضاً فَصَارَتْ تَخْدُمُ النَّاسَ مِنْ أَجْلِهِ[١].

---

(١) العبارة لابن كثير في تفسيره.

٢ ـ صَبْرُ أيُّوبَ

وَكانَ رَغْمَ كُلِّ ذٰلِكَ صَابِراً شَاكِراً يَلْهَجُ لِسَانُهُ بِالذِّكْرِ وَالشُّكْرِ، لا يَشْكو، وَلا يَتَعَتَّبُ، وَلا يَتَذَمَّرُ، وَلا يَغْضَبُ، وَدامَ عَلَى ذٰلِكَ سِنِينَ طِوالاً.

٣ ـ مِحْنَةٌ وَمِنْحَةٌ

وَلَمَّا تَمَّ مَا أَرادَهُ اللَّهُ لَهُ مِنْ ابْتِلاءٍ، وَمَا أَرَادَ بِهِ مِنْ تَكْميلٍ، وَرَفْعِ دَرَجاتٍ، وَالرِّضَا بِالْقَضَاءِ، أَلْهَمَهُ الدُّعاءَ الْمُسْتَجابَ الَّذِي تَجلَّى فِيهِ عَجْزُهُ وَبُؤْسُهُ، وَأَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إلَّا إلَيْهِ، وَأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَعَافَاهُ اللَّهُ في بَدَنِهِ وَأَهْلِهِ، وَردَّ عَلَيْهِ مَالَهُ، وَبَارَكَ لَهُ فِي كُلِّ ذٰلِكَ، فَكانَ أَضْعافاً مُضَاعَفَةً، يَقُولُ اللَّهُ تَبارَكَ وَتَعالَى:

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

٤ ـ قِصَّةُ يُونُسَ وَحِكْمَتُها

وَتَأْتِي قِصَّةُ يُونُسَ مَقْرُونَةً بِقِصَّةِ أَيُّوبَ مُؤَيِّدَةً لَهَا في إِثْبَاتِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَلُطْفِهِ بِعِبادِهِ وَإِغَاثَتِهِ لَهُمْ حِينَ يَنْقَطِعُ الرَّجاءُ وَيَغْشَى الْيَأْسُ الْقَاتِلُ وَالظَّلامُ الْحَالِكُ، وَتَنْسَدُّ جَمِيعُ الْمنافِذِ، فَلا نُورَ وَلا هَوَاءَ، وَلا أَمَلَ وَلا رَجَاءَ، يَدُورُ رَحَى الْمَوْتِ قَوِيَّةً سَرِيعَةً تَطْحَنُ حَبَّةَ الْحَيَاةِ نَاعِمَةً دَقِيقَةً.

هُنَالِكَ تَبْرُزُ يَدُ الْقُدْرَةُ الإِلَهِيَّةِ، الْقَوِيَّةِ الْقَاهِرَةِ، الرَّحِيمَةِ الْحَكِيمَةِ، فَتُخْرِجُ هَذا الإِنْسَانَ الضَّعِيفَ مِنْ أَشْدَاقِ الأَسَدِ الضَّارِي وَالْمَوْتِ الْفَاتِكِ، فَيَخْرُجُ سَلِيماً غَيْرَ مَخْدُوشٍ، كامِلاً غَيْرَ مَنْقُوصٍ، كَأَنَّما كانَ عَلَى فِراشِهِ في بَيْتِهِ، مَحْفُوظاً بَيْنَ أَهْلِهِ.

٥ ـ يُونُسُ بَيْنَ قَوْمِهِ

وَهَذِهِ قِصَّةُ يُونُسَ: بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ قَرْيَةِ «نَيْنَوا» فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَأَبَوْا عَلَيْهِ، وَتَمَادَوْا فِي

كُفْرِهِمْ، فَخَرَجَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ مُغاضِباً لَهُمْ وَوَعَدَهُمْ بِالْعَذَابِ بَعْدَ ثَلاثٍ، فَلَمّا تَحَقَّقُوا مِنْهُ ذَلِكَ وَعَلِمُوا أَنَّ النَّبِيَّ لا يَكْذِبُ خَرَجُوا إِلَى الصَّحْراءِ بِأَطْفَالِهِمْ وَأَنْعَامِهِمْ وَمَواشِيهِمْ، وَفَرَّقُوا بَيْنَ الْأُمَّهَاتِ وَأَوْلادِهَا، ثُمَّ تَضَرَّعُوا إِلى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَجَأَرُوا إِلَيْهِ، وَرَغَتِ الْإِبِلُ وَفِصْلانُها، وَخَارَتِ الْبَقَرُ وَأَوْلادُها، وَثَغَتِ الْغَنَمُ وَسِخَالُها؛ فَرَفَعَ اللَّهُ عَنْهُمُ الْعَذَابَ، قَالَ اللَّهُ تَعالىٰ:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوٓاْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾.

٦ ـ يُونُسُ في بَطْنِ الْحوتِ

وَأَمَّا يُونُسُ عَلَيْهِ السّلام فَإِنَّهُ ذَهَبَ فَرَكِبَ مَعَ قَوْمٍ في سَفِينَةٍ، فَجَنَحَتْ بِهِمْ، وَخَافُوا أَنْ يَغْرَقُوا، فَاقْتَرَعُوا عَلَى رَجُلٍ يُلْقَوْنَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ يَتَخَفَّفُونَ مِنْهُ، فَوَقَعَتْ الْقُرْعَةُ عَلَى يُونُسَ، فَأَبَوا أَنْ يُلْقُوهُ، ثُمَّ أَعادوها، فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ أَيضاً

فَأَبُوا، ثُمَّ أعادوها فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ أَيضاً، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ۝١٤١﴾.

أَيْ فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ الْقُرْعَةُ، فَقَامَ يُونُسُ عليه السلام وَتَجَرَّدَ مِنْ ثِيَابِهِ، ثُمَّ أَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْبَحْرِ، وَقَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ حُوتاً يَشُقُّ الْبِحَارَ حَتَّى جَاءَ فالْتَقَمَ يُونُسَ حِينَ أَلْقَى نَفْسَهُ مِنَ السَّفِينَةِ، فَأَوْحَىٰ اللَّهُ إِلَى ذَلِكَ الْحُوتِ أَنْ لَا تَأْكُلَ لَهُ لَحْماً، ولا تَهْشِمَ لَهُ عَظْماً[1].

٧ ـ وَاسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ

فَكَانَ فِي ظُلْمَةِ بَطْنِ الْحُوتِ، فِي ظُلْمَةِ الْبَحْرِ، فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ، فَمَا أَشَدَّ الظَّلامَ! وَمَا أَبْعَدَ السَّلامَ، وَمَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْكُثَ ثُمَّ أَلْهَمَهُ اللَّهُ الكلماتِ التي تُبَدِّدُ الظُّلُمَاتِ وَتَكْشِفُ الكُرُباتِ وَتَسْتَنْزِلُ الرَّحْمَةَ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَماواتٍ، وَاسْمَعْ الْقُرْآنَ يَحْكِي هَذِهِ الْقِصَّةَ الْغَرِيبَةَ الْفَرِيدَةَ الَّتِي

(١) العبارة لابن كثير في تفسيره.

فِيها سَلْوَى لِكُلِّ بَائِسٍ مَلْهُوف، وَيَائِسٍ مُضْطَرِبٍ قَدْ ضَاقَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ، وَرَأَى عَياناً أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

قِصَّةُ سَيِّدِنا زَكَرِيَّا عليه السلام

١ ـ دُعاءُ زَكَرِيَّا لِوَلَدٍ صَالِحٍ

وَلَوْنٌ آخَرُ مِنْ آلاءِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وآياتِ قُدْرَتِهِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِكُلِّ شَيْءٍ، تَجَلَّى في دُعاءِ زَكَرِيَّا لِوَلَدٍ صَالِحٍ، رَضِيٍّ، بَرٍّ، تقيٍّ، يَرِثُهُ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقوبَ، وَيَقومُ بالدَّعْوَةِ إلى اللَّهِ، وَذَلِكَ حينَ تَقَدَّمَتْ بِهِ السِّنُّ، وَوَهَنَ مِنْهُ الْعَظْمُ، وَلَجَّ بِهِ الشَّيْبُ، وَانْقَطَعَ الرَّجاءُ مِنْ أَنْ تَلِدَ زَوْجُهُ، فَأَجابَ اللَّهُ تَعَالى دُعاءَهُ وَكَذَّبَ ظُنونَ النَّاسِ، وَأَبْطَلَ التَّجارِبَ الْقَدِيمَةَ، فَرَزَقَهُ وَلَداً راشِداً، بكَّر بِهِ النُّبوغُ وَالْحِكْمَةُ، وَالْحِلْمُ وَالْعِلْمُ، وَالْكِتَابُ فِي الصِّغَرِ، وَخُصَّ بِالْحَنَانِ والصَّلاحِ وَالتَّقْوَى وَالبِرِّ بِالْوَالِدَيْنِ، وَالرِّقَّةِ وَلِينِ الْكَنَفِ وَخَفْضِ الْجَنَاحِ، وَرَبَطَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِ زَكَرِيَّا، وَأَرَاهُ آياتٍ تَدُلُّ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ الْوَاسِعَةِ،

وَأَنَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ وَيَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، وَأَراهُ تَصَرُّفَهُ في خَلْقِهِ وَفِي أَعْضَاءِ جِسْمِهِ يُحَرِّكُ ما يَشَاءُ وَيُعَطِّلُ مَا يَشَاءُ، وَتَحَقَّقَ لَهُ أَنْ الْكَوْنَ كُلَّهُ بِيَدِهِ، يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ، وَيَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِساب.

٢ ـ نَذْرُ امْرَأَةِ عِمْرَانَ

وَقَدْ نَذَرَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ مِنْ أُسْرَةِ سَيِّدِنَا زَكَرِيَّا عليه السلام وَكَانَتْ امْرَأَةً صَالِحَةً تُحِبُّ اللَّهَ وَتُحِبُّ دِينَهُ أنها إذا وَلَدَتْ ذَكَراً تَهَبُ هَذَا الْوَلَدَ لِلَّهِ لِخِدْمَةِ دِينِهِ، وَسَأَلَتِ اللَّهَ أَنْ يَتَقَبَّلَ هَذَا الْوَلَدَ وَيَنْفَعَ بِهِ دِينَهُ وَعِبادَهُ، وَأَنْ يَكُونَ دَاعِياً إلى اللَّهِ وإماماً مِنْ أَئِمَةِ الْهُدَىٰ.

٣ ـ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثَى

وَأَرادَتِ الْمَرأَة الصَّالِحَةُ أَمْراً وَأَرادَ اللَّهُ أَمْراً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَصْلَحَةِ عِبادِهِ، فَإِذَا هِيَ تَلِدُ أُنْثَى، فَتَحْزَنُ لِذَلِكَ وَتَغْشاها الْكَآبَةُ، وَلَكِنَّ الوليدة لم تكن ككل أُنْثى، بَلْ

كَانَتْ أَقْوَى عَلَى الْعِبادَةِ، وَأَعْلَى هِمَّةً في الطَّاعاتِ والْخَيْراتِ مِنْ كثيرٍ مِنَ الْفِتْيَانَ، وَإِذَا قَدَّرَ اللَّهُ ـ لِحِكْمَةٍ يَعْلَمُها ـ أَنْ تَكون أنثى، والنُّبُوَّةُ لا يَضْطَلِعُ بِأَعْبائِها إِلَّا الرِّجالُ، فَقَدْ قَدَّرَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ أُمّاً لِنَبِي صالحٍ يَكُونُ لَهُ شَأْنٌ:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾.

٤ ـ عِنَايَةُ اللَّهِ بِالْفَتاةِ الصَّالِحَةِ

وَكَانَتْ في كَفالَةِ سَيِّدِنا زَكَرِيَّا لِمكانَتِها مِنْهُ، وَفي رِعَايَةِ اللَّهِ تَعالَىٰ، فَكَانَ اللَّهُ يُكَرِّمُها بِالْأَثْمارِ وَالْفَواكِهِ في غَيْرِ أَوَانِهَا وَفي غَيْرِ مَكَانِها، تَأْكُلُ مِنْهَا مَا تَشَاءُ وَتَهَبُ مِنْهَا مَا تَشاءُ:

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا

زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

٥ ـ إلْهاماً مِنَ الرَّبِّ الرَّحِيمِ

وَأَلْهَمَ اللَّهُ زَكَرِيَّا، وَهُوَ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ، وَمِنَ الْعُقَلاءِ الأَذْكِيَاءِ، أَنَّ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُكْرِمَ فَتَاةً صَالِحَةً، أَخْلَصَتْ أُمُّها في النَّذْرِ بِهَا والدُّعاءِ لَها، وَأَخْلَصَتْ هِيَ في الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ، بِفَواكِهَ سَابِقَةٍ لِزَمَانِهَا أَوْ مُتَأَخِّرَةٍ عَنْ أَوانِهَا، يَقْدِرُ أَنْ يَهَبَ شَيْخاً قَدْ طَعَنَ في السِّنِّ وَعلاهُ الشَّيبُ، وَأَثَّرَ فِيهِ الْوَهْنُ وَلَداً قَدِ انْقَطَعَ مِنْهُ الرَّجاءُ لِعُلُوِّ السِّنِّ، وَعُقْرِ الزَّوْجِ، وَجَرَتِ الْعَادَةُ أَنْ لا يُولَدَ لِرَجُلٍ في هَذِهِ الْحَالِ.

فَجَاشَتْ نَفْسُهُ، وَعَلَتْ هِمَّتُهُ، وَانْتَعَشَ الأَمَلُ، وَقَوِيَتْ الثِّقَةُ بِالرَّبِّ، فَفَاضَ لِسانُهُ بِدُعاءٍ أَمَّنَتْ عَلَيْهِ الْمَلائِكَةُ وَتَحَرَّكَتْ بِهِ رَحْمَةُ اللَّهِ، وَكانَ كُلُّهُ إِلْهاماً مِنَ

الرَّبِّ الرَّحِيمِ، وَتَقْدِيراً مِنَ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾.

٦ ـ بِشَارَةُ وَلَدٍ

وَأَجَابَ اللَّهُ دُعاءَهُ، وَتَوَجَّهَتْ إِلَيْهِ الْبِشَارَةُ بِوَلَدٍ صَالِحٍ قَرُبَ زَمانُ وِلادَتِهِ.

وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ، فَطَلَبَ أَمارَةً عَلَى إِمْكَانِ هَذَا الْحَدَثِ الْكَبِيرِ وَقُرْبِ ظُهُورِهِ، فَقَالَ: ﴿رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ فَالْقَادِرُ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْلُبَ خَواص الأشياء، فَيَجْعَلُ اللِّسانَ الناطِقَ أَبْكَمَ، لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَحَرَّكَ بِكَلِمَةٍ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يُودِعَ ما شَاءَ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ما شَاءَ مِنْ خَواصَّ، وَالْقَوِيُّ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْنَعَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعْطِيَ.

٧ ـ آياتُ اللَّهِ وَقُدْرَتُهُ

وَظَهَرَتْ آياتُ اللَّهِ وَقُدْرَتُهُ في جِسْمِهِ ثُمَّ في بَيْتِهِ وَأُسْرَتِهِ، وَوُلِدَ يَحْيَى، فَقَرَّتْ بِهِ عَيْنُهُ، وَاشْتَدَّ بِهِ أَزْرُهُ، وَعَاشَتْ بِهِ دَعْوَتُهُ.

وَاسْمَعُوا الْقُرْآنَ يَحْكِي هَذِهِ الْقِصَّةَ تارةً في إيْجازٍ وَطَوْراً في تَفْصِيلٍ، فَيَقُولُ:

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

٨ ـ يَحْيَى يَضْطَلِعُ بِأَعْبَاءِ الدَّعْوَةِ

وَيُولَدُ يَحْيَى فَيَكُونُ قُرَّةَ عَيْنٍ لِأَبَوَيْهِ، وَخَلِيفَةً لِوَالِدِهِ الْعَظِيمِ، فَيَضْطَلِعُ بِأَعْبَاءِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَالدِّينِ الْخَالِصِ، وَتَظْهَرُ فِيهِ آثارُ النَّجابَةِ مُنْذُ الصِّغَرِ، فَيُقْبِلُ عَلَى الْعِلْمِ بِشَغَفٍ وَهُوَ غُلامٌ، وَيَتَحَلَّى بالصَّلاحِ

وَالتَّقْوَى وَهُوَ شَابٌ، وَيَمْتَازُ عَنْ أَقْرَانِهِ فِي الْحُبِّ وَالْحَنَانِ، وَالبِرِّ بِالأَبَوَيْنِ يُشارُ في ذَلِكَ إِلَيْهِ بِالْبَنَانِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مُخَاطِباً لَهُ:

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾.

قِصَّةُ سَيِّدِنَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ

١ ـ قِصَّةٌ خَارِقَةٌ لِلْعَادَةِ

وَيَجِيءُ دَوْرُ سَيِّدنا عِيسَى، وَهُوَ آخِرُ الرُّسُلِ، قَبْلَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهِيَ قِصَّةٌ تَجلَّتْ فِيهَا إرادَةُ اللَّهِ الْقَاهِرَةُ، وَقُدْرَة اللَّهِ المطْلَقَةُ، وَحِكْمَةُ اللَّهِ الدَّقِيقَةُ، فَأَمْرُهُ كُلُّهُ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ، وَوِلَادَتُهُ خارِقَةٌ لِلْعَادَةِ، حارَتْ فِيها الْأَلْبَابُ، ونُسِخَتْ فِيها الْقَوانِينُ الطَّبِيعيَّةُ، وَشَقَّ الْإِيمانُ بِهَا وَالتَّصْدِيقُ لَهَا عَلَى مَنْ آمَنَ بِالْقَوانِينِ الطَّبِيعِيَّةِ كَإِلَٰهٍ لا يَزولُ وَلا يَحُولُ، وآمَنَ بِالتَّجْرِبَةِ، وَالْمُشَاهَدَةِ، وَبِأَحْكَام الطِّبِّ وَالطَّبِيعَةِ كَناموسٍ لا يَتَغَيَّرُ ولا يَتَبَدَّلُ، وَجَهِلَ قُدْرَةَ اللَّهِ الَّتِي أَحاطَتْ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَغَلَبَتْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَإرادَتُهُ

الَّتي لا يَحُولُ دُونَها شَيْءٌ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

وَهَانَ هَذا الْإِيمَانُ عَلَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ كَإِلٰهٍ قَادِرٍ مُريدٍ، خالِقٍ صانِعٍ، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

وَآمَنَ بِخَلْقِ آدَمَ مِنْ مَاءٍ وَطِينٍ، وَمِنْ غَيْرِ أُمٍّ وَأَبٍ، وَوِلادَةٌ مِنْ أُمٍّ مِنْ غَيْرِ أَبٍ أَهْوَنُ وَأَيْسَرُ لِلتَّصْديقِ مِنْ وِلادَةٍ مِنْ غَيْرِ أُمٍّ وَأَبٍ، لِذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾.

٢ ـ أَمْرٌ كُلُّهُ عَجَبٌ

وأَمْرُ سَيِّدِنا عِيسَى كُلُّهُ عَجَبٌ، وَقَدْ كَانَتْ وِلادَتُهُ في عَصْرٍ بَلَغَتْ فِيهِ «يونانُ» أَوْجَهَا في الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ وَالرِّيَاضِيَّةِ، وَكَانَتْ لِلطِّبِّ دَوْلَةٌ وَصَوْلَةٌ.

٣ ـ خُضُوعُ الْيَهُودِ لِلأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ

وَخَضَعَ الْيَهُودُ ـ وَهُمْ أُمَّةٌ كَثُرَ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ ـ لِلْعُلُومِ السَّائِدَةِ فِي عَصْرِهِمْ، وَاشْتَهَرَ فِيهِمْ إِنْكَارُ الرُّوحِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا، وَاعْتَادُوا أَنْ يُفَسِّرُوا كُلَّ ما يَرَوْنَهُ تَفْسِيراً مَادِّياً، فلا وُجُودَ لِشَيْءٍ عِنْدَهُمْ ولا إِمْكانَ لِحادِثٍ إِلَّا بِالسَّبَبِ وَالْعِلَّةِ، فَكَانَتِ الْمُعْجِزَاتُ الَّتِي أَكْرَمَ اللَّهُ بِهَا سَيِّدُنا عِيسى عِلاجاً لِلْعَقْلِ المادّيِّ الضَّيِّقِ، وَحَاجَةِ الْعَصْرِ وَنِداءِ الزَّمانِ.

وَأَمْعَنَ الْيَهُودَ في الْوُقُوفِ عِنْدَ الظَّاهِرِ والتَّمَسُّكِ بِالْقُشُورِ دُونَ اللُّبابِ، والتَّشَبُّثِ بالْمَظاهِرِ دُونَ الْحَقِيقَةِ، وَغَلَوا في تَقْدِيس الْعُنْصُرِ، وَالدَّمِ، وَفي حُبِّ الْمَالِ وَالْمَادَّةِ، وانْهَمَكوا في الْحياة انهماكاً زائداً، وَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ، وَجَفَتْ طَبَائِعُهُمْ، فَلا يَرِقُّونَ لِلضَّعيفِ، وَلَا يَعْطِفُونَ عَلَى الْفَقِيرِ، وَيُعَامِلونَ مَنْ لا يَجْرِي في عُروقِهِ الدَّمُ الإِسْرَائِيلِيُّ مُعَامَلَةَ الْحَيَوانات وَالْكِلاب أَوِ الْجَمَادَاتِ الَّتي لا روحَ فيها، وَيَخْضَعونَ لِلْأَقْوِيَاءِ

وَالْأَغْنِيَاءِ، وَيَتجَبَّرونَ عَلَى الصِّغَارِ الْفُقَرَاءِ، وَيَقْسُونَ عِنْدَ الْقُدْرَةِ، وَيَلينونَ عِنْدَ الْعَجزِ، وَقَدْ وَلَّدَتْ فِيهِمْ حَيَاةُ الذُّلِّ وَالْعُبُودِيَّةِ الَّتي عاشُوها في الْحُكْم الرُّومانِيِّ الذي دامَ مُدَّةً طَويلَةً في سُوريّا وَفِلَسْطِينَ، النِّفاقَ وَالْخُنُوعَ، وَالتَّحَيُّلَ وَالدَّهَاءَ، وَاللجوءَ إلى الْمُؤامَرَةِ والسِّرِّيَّةِ.

٤ ـ اسْتِخْفَافٌ وَتَمَرُّدٌ

وَوَلَّدَ فِيهِم الاسْتِخْفَافُ بِالْأَنْبِيَاءِ والاجْتِرَاءُ عَلَيْهِمْ، حَتَّى بِالْقَتْلِ، وَالتَّعَامُلِ بِالرِّبَا، وَالْعَبَثِ بِالتَّعَالِيم الدِّينيَّةِ، الْغِلْظَةَ وَالجَفَافَ، وَضَعْفَ الْعَاطِفَةِ الإِنْسَانِيَّةِ، وَتَجَرَّدَتْ قُلُوبُ كَثيرٍ مِنْهُمْ مِنْ حُبِّ اللّهِ الخالِصِ، وَالرَّحْمَةِ عَلَى الإِنْسَانِ ـ مَهْمَا كَانَ أَصْلُهُ وَفَصْلُهُ ـ وَاحْتِرَامِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَكَادُوا يَنْسَوْنَ مَعَانِي المؤاساةِ والْمُسَاواةِ والبِرِّ وَالْكَرَمِ، وَكَانُوا يُؤْمِنُونَ بالنبوءات والرِّسالاتِ، وَقَدْ كَثُرَتْ فِيهِمُ الْأَنْبِيَاءُ، وَزَخَرَتْ صُحُفُهُمْ بِأَخْبَارِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ قَدْ أَصْبَحُوا في الزَّمَنِ الْأَخِيرِ لا يُؤْمِنُونَ إِلَّا بما وَافَقَ هَواهُمْ، وَأَيَّدَهُمْ في سِيرَتِهِمْ وَأَخْلاقِهِمْ، أَمَّا مَنْ

انْتَقَدَهُمْ وَحَاسَبَهُمْ وَدَعاهُمْ إلى الدِّينِ الصَّحِيحِ، والْحَقِّ الصَّرِيحِ، وَإِصْلاحِ الْحَالِ، عادوهُ وحارَبُوهُ، وَكانَتْ عِنْدَهُمْ جَراءَةٌ عَلَى الْبُهْتِ وَالافْتِراءِ، وَكِتْمَانِ الْحَقِّ، وَشَهَادَةِ الزُّورِ.

٥ ـ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ

وَكَانُوا أُمَّةً تمتازُ عَنِ الأُمَمِ الْمُعَاصِرَةِ لَهُمْ، بِعَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ، وَذَلَكِ سِرُّ تَفْضِيلِهِمْ عَلَى غَيْرِهِمْ حِينَئِذٍ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

٦ ـ نُكْرانٌ لِلْجَمِيلِ

وَلَكِنْ تَسَرَّبَتْ إِلَيْهِمْ بِحُكْمِ الاخْتِلاطِ وَمُجاوَرَةِ الشُّعوبِ الْمُشْرِكَةِ الوَثَنِيَّةِ، وَبِطُولِ الْعَهْدِ بِتَعالِيمِ الأَنْبِيَاءِ، عَقَائِدُ زَائِفَةٌ، وَعاداتٌ جاهِلِيَّةٌ، وَقَدْ عَبَدُوا الْعِجْلَ في مِصْرَ، وبالَغُوا في تَقْدِيس عُزَيْرٍ وَتَعْظِيمِهِ،

حَتَّى تَخَطَّوا بِهِ حُدودَ الْبَشَرِيَّةِ، وَبَلَغَتْ بِهِمْ الْوَقَاحَةُ إِلَى أَنْ نَسَبُوا بَعْضَ أَعْمَالِ الشِّرْكِ وَالْوَثَنِيَّةِ، وَأَعْمَالَ السِّحْرِ وَالْكُفْرِ، والأَفْعَالَ الشَّنِيعَةِ، إِلَى بَعْضِ الأَنْبِيَاءِ، وَلَمْ يَتَّقُوا اللَّهَ فِيهِمْ.

٧ ـ زَهْوٌ وَإِدْلالٌ

وَكَانُوا رَغْمَ كُلِّ ذَلِكَ شَدِيدِيْ الإِدْلالِ بِالنَّسَبِ، شَدِيدِي الاعْتِمادِ عَلَى الأَمَانِي وَالأَحْلام، يَقُولُونَ: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾، ويقولون: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾.

٨ ـ وِلادَةُ الْمَسِيحِ تَتَحَدَّى الْمَحْسُوسَ الْمعروفَ

وَكَانَتْ وِلادَةُ الْمَسِيحِ وَحَيَاتُهُ وَدَعَوَتُهُ وَمَعِيشَتُهُ تَحَدِّياً لِكُلِّ ذَلِكَ، تَحَدِّياً لِلْمَحْسُوسِ الْمُقَرَّرِ، تَحَدِّياً لِلأَعْرافِ الشَّائِعَةِ، وَالْعَادَاتِ الْمُتَّبَعَةِ، وَالْقَوَانِينِ الْمَرْسُومَةِ، وَالْمُثُلُ الْعُلْيَا الَّتي يُؤْمِنُ بِهَا الْيَهُودُ، وَالْغَايَاتِ الَّتِي

يَتَنَافَسُونَ فِيهَا، وَيَتَقَاتَلُونَ عَلَيْهَا، فَوُلِدَ مِنْ طَرِيقَةٍ غَيْرِ مَأْلوفَةٍ، وَكَلَّمَ النَّاسَ في المَهْدِ، وَنَشَأَ في أَحْضَانِ أُمٍّ فقيرةٍ مُتَبَتِّلَةٍ، وَعَاشَ في جَوٍّ مَليءٍ بِالطَّعْنِ وَالْقَدْحِ، بَعِيدٍ عَنْ مَظَاهِرِ الْعَظَمَةِ وَالْغِنَى، يُجَالِسُ الْفُقَرَاءَ، وَيُؤَاكِلُهُمْ وَيَحْنُو عَلَيْهِمْ، وَيُوَاسِي الضُّعَفَاءَ وَالْغُرَبَاءَ، وَلا يُفَرِّقُ بَيْنَ فَقيرٍ وَغَنِيٍّ، وَحَاكِمٍ وَمَحْكُومٍ، وَشَرِيفٍ وَوَضِيعٍ.

٩ ـ مُعْجِزاتُ الْمَسِيحِ

وَأَكْرَمَهُ اللَّهُ بِالنُّبُوَّةِ وَالْوَحْيِ، وَآتاهُ الْإِنْجِيلَ، وَأَيَّدَهُ بِروحِ الْقُدُسِ، وَالْمُعْجِزَاتِ الْباهِرَةِ، يَشْفي اللَّهُ بِهِ الْمَرْضَى الَّذِينَ عَجِزَ عَنْ مُداواتِهِمْ الْأَطِبّاءُ، وَيُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَيُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ، وَيَخْلُقُ لِلنَّاسِ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ، فَيَنْفُخُ فيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ، وَيُنْبِئُ بِمَا يَأْكُلُهُ النَّاسُ وَيَدَّخِرُونَهُ في بُيُوتِهِمْ.

فَيُعِيدُ بِكُلِّ ذَلِكَ الثِّقَةَ بِمَا جاءَ فِي التَّوْرَاةِ مِنْ خَبَرِ مُعْجِزَاتِ الرُّسُلِ، وَأَخْبَارِ الْقُدْرَةِ الإِلٰهِيَّةِ، وَقُوَّةَ الإِرَادَةِ

الرَّبَّانِيَّةِ، فَقَرَّرُوا أَنْ لا جَدِيدَ وَأَنْ لا مَزِيدَ فيما عَلِمُوهُ وَشَاهَدُوهُ.

١٠ ـ دَعْوَتُهُ إِلَى الدِّينِ وَتَكْذِيبُهُ الْيَهُودَ

وَكَذَّبَ الْيَهُودَ في كَثِيرٍ مِمَّا تَخَيَّلُوهُ وَغَلَوْا فِيهِ، وَحَرَّمُوا ما أَحَلَّهُ اللَّهُ، وَأَحَلُّوا ما حَرَّمَهُ اللَّهُ، فَقَامَ يَدْعُوهُمْ إِلى رُوحِ الدِّينِ وَلُبابِهِ، وَأَصْلِهِ وَحَقِيقَتِهِ، وَالْحُبِّ لِلَّهِ حُبّاً يَغْلِبُ عَلَى كُلِّ حُبٍّ، وَالرَّحْمَةِ عَلَى الإِنْسَانِيَّةِ وَاحْتِرامِهَا، وَالْمواساةِ لِلْفُقَرَاءِ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ الخالِصِ، وَرَفْضِ كُلِّ ما دَخَلَ عَلَى دِينِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ عَاداتٍ جَاهِلِيَّةٍ، وَعَقَائِدَ باطِلَةٍ.

١١ ـ الْيَهُودَ يَنْصُبُونَ لَهُ الْحَرْبَ

وَشَقَّ كُلَّ ذَلِكَ عَلَى الْيَهُودِ، وَنَصَبُوا لَهُ الْحَرْبَ، وَرَمَوْهُ عَنْ قَوْسٍ واحِدَةٍ، وَرَشَقُوهُ بِالتُّهَمِ وَالْقَذائِفِ، وَتَناوَلُوهُ بِالسَّبِّ الْقَبِيحِ وَالْقَوْلِ الْبَذِيءِ، وَتَناوَلُوا أُمَّهُ مَرْيَمَ الْبَتُولَ بِالْقَذْفِ وَالطَّعْنِ، وَعَاكَسُوهُ وَطارَدوهُ،

وَأَهَاجُوا لَهُ الْأَوْبَاشَ، وَسَدُّوا فِي وَجْهِهِ الطَّرَقَ.

١٢ ـ قِصَّةُ عِيسى في الْقُرْآنِ

ثُمَّ أَرَادُوا قَتْلَهُ وَالتَّخَلُّصَ مِنْهُ، فَحَمَاهُ اللَّهُ وَرَدَّ كَيْدَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَرَفَعَهُ إِلَيْهِ وَكَرَّمَهُ، اقْرَؤُوا قِصَّتَهُ فِي الْقُرْآنِ:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ

لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا
صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ
مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا
بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ
وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟
وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى
مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ
ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ
مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَمَا
لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ
نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ
عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ
﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

١٣ ـ سِيرتُهُ وَدَعْوَتُهُ في الْقُرْآنِ

وَاقْرَؤُوا وَصْفَهُ تَعَالَى لِسِيرَتِهِ وَدَعْوَتِهِ، في قَوْلِهِ: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾.

١٤ ـ صِرَاعٌ قَدِيمٌ

وَوَقَعَ لِسَيِّدِنا عيسى ما وَقَعَ لِلْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ، فَابْتَعَدَ عَنْهُ الرُّؤَسَاءُ وَالزُّعَمَاءُ، وَهَجَرَهُ الْأَغْنِيَاءُ وَالْأَقْوِيَاءُ، وَرَأَوْا فِي الْإِيمَانِ بِهِ واتِّبَاعِهِ غَضَاضَةً وَعَيْباً، وَشَقَّ عَلَيْهِمْ التَّنَازُلُ عَمّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ رِياسَةٍ وَزَعَامَةٍ وَامْتِيَازٍ وَسِيَادَةٍ، وَصَدَقَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

١٥ ـ إِيْمَانُ عَامَّةِ النَّاسِ وَفُقَرَائِهِمْ

وَلَمَّا يَئِسَ عيسى مِنْهُمْ، وَشَاهَدَ فِيهِمُ الْعِنَادَ وَالْكُفْرَ، وَرَأَىٰ أَنَّهُمْ قَدْ جَحَدُوا بما جَاءَ بِهِ مِنْ آياتٍ بَيِّناتٍ، وَمُعْجِزَاتٍ باهِراتٍ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ، وَاسْتَصْغَرُوهُ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ صاحِبَ حَوْلٍ وَطَوْلٍ، أَقْبَلَ عَلى عَامَّةِ النَّاسِ وَفُقَرَائِهِمْ، وَقَدْ لانَتْ قُلُوبُهُمْ، وَصَفَتْ نُفُوسُهُمْ، لِأَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ بِكَدِّ يَمِينِهِمْ وَعَرَقِ جَبِينِهِمْ، لا يَتَفَاخَرُونَ بِنَسَبٍ، وَلا يَتَطاوَلُونَ بِجَاهٍ وَمَنْصِبٍ، فَآمَنَتْ مِنْهُمْ طائِفَةٌ، فيها القَصَّارونَ، وفيها صيَّادو الْأَسْمَاكِ، وَفِيها أَهْلُ الْحِرَفِ وَالْمِهَنِ.

١٦ ـ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ

فَآمَنُوا بِالْمَسِيحِ وَالْتَفُّوا حَوْلَهُ، وَوَضَعُوا أَيْدِيَهِمْ فِي يَدَيْهِ وَقالُوا: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾. يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ

بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

١٧ ـ سِيَاحَةٌ وَدَعْوَةٌ

وَكَانَ سَيِّدُنا عِيسى يَقْضِي أَكْثَرَ أَوْقَاتِهِ في السِّيَاحَةِ، وَالانْتِقَالِ مِنْ مَكَانٍ إلى مَكَانٍ، يَدْعو بَني إِسْرَائِيلَ إلى اللَّهِ وَيَهْدِي خِرافَهُمُ الضَّالَّةَ إلى رَبِّها وَسَيِّدِها وَيَتَّفِقُ لَهُ في هَذِهِ الْجَوْلَاتِ وَالرِّحْلاتِ الْيُسْرُ وَالْعُسْرُ، وَالضِّيقُ والرَّخَاءُ، وَيَتَحَمَّلُ ذَلِكَ صابراً، وَيَقْبَلُ هذا شاكِراً، وَيَصْبِرُ عَلى الْجُوعِ، وَيَجْتَزِئُ بما يَسُدُّ الرَّمَقَ.

١٨ ـ الْحَوارِيُّونَ يَطْلُبُونَ مائِدَةً مِنَ السَّماءِ

أَمَّا الْحَوارِيُّونَ فَلَمْ يَكُونُوا بِمَنْزِلَتِهِ مِنَ الصَّبْرِ وَالْجَلَدِ وَالتَّقَشُّفِ وَالزَّهادَةِ، وَأَصابَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، فَطَلَبُوا مِنْ سَيِّدِنا عيسى أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ أَن يُنْزِلَ لَهُمْ مَائِدَةً مِن

السَّماءِ يَأْكُلُونَ مِنْهَا وَيَشْبَعُونَ بَعْدَ جُوعٍ وَيَنْعَمُونَ بَعْدَ عَناءٍ.

١٩ ـ سُوءُ أَدَبٍ

وَلَمْ يَكونوا مُتَأَدِّبِينَ في سُؤالِهِمْ؛ فَقَالُوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. ولـم يُعْجِبْ عيسى سُؤَالُهُمْ، وَكَرِهَ الأُسْلُوبَ الَّذي خاطَبُوهُ بِهِ، وَالأَنْبِيَاءُ جَميعاً يُطالِبُونَ أُمَمَهُمْ بالإِيمَانِ بِالْغَيْبِ، وَيُكَلِّفُونَهَا إِيَّاهُ، وَلَيْسَتِ الْمُعْجِزَاتُ مَخَارِيقَ يسلو بها الأطفالُ ويلهو بِها الأَغْمَارُ، إِنَّما هِيَ آياتٌ مِنَ اللَّهِ يُظْهِرُهَا عَلَى أَيْدِي أَنْبِيَائِهِ حِينَ يَشَاءُ، وَتَقُومُ بِها حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ، فَلا يُمْهَلُونَ بَعْدَ ظُهُورِهَا وَإِنْكَارِها.

٢٠ ـ تَحْذِيرُ قَوْمِهِ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ

لِذَلِكَ خافَ سَيِّدُنا عيسى عَلَيْهِمْ، وَحذَّرَهُمْ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ امْتِحَانِ اللَّهِ تَعَالَى، فَهُوَ أَعْلَى وَأَجَلُّ مِنْ ذَلِكَ.

٢١ ـ إِلْحاحٌ وَإِصْرارٌ

وَلَكِنَّ الْحَوارِيينَ تَشَبَّثُوا بِسُؤالِهِمْ، وَذَكَرُوا أَنَّهُمْ جَادُّونَ في هذا السُّؤالِ، لا يَقْصِدُونَ امْتِحاناً إِنَّما يُرِيدونَ اطْمِئْناناً، وَلِيَكُونَ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلْأَجْيالِ الْقادِمَةِ، وَقِصَّةً تُحْكَى وَتُرْوَى عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ، فَتَكونَ دَلِيلاً عَلَى صِدْقِ هذا الدِّينِ، وَمَنْزِلَةِ المؤمِنينَ الْأَوَّلِينَ وَالْحَوارِيينَ الصَّادِقينَ.

٢٢ ـ الْقُرْآنُ يَحْكِي الْقِصَّةَ

وَدَعُوا الْقُرْآنَ يَحْكِي هَذِهِ الْقِصَّةَ:

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ

ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾.

٢٣ ـ الْيَهُودُ يُحَاوِلُونَ التَّخَلُّصَ مِنْ سَيِّدنا عِيسى

وَعِيلَ صَبْرُ الْيَهُودِ، وَفَاضَتْ كَأْسُ عِدَائِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، فَأَرادُوا التَّخَلُّصَ مِنْ سَيِّدِنَا عِيسَى، فَرَفَعُوا قَضِيَّتَهُ إِلَى الْحَاكِمِ الرُّومِيِّ وَقَالُوا: إِنَّهُ رَجُلٌ ثَائِرٌ فَوْضَوِيٌّ، مَرَقَ مِنْ دِينِنا، وَاسْتَهْوَى شَبابنا، فَفُتِنُوا بِهِ، وَفَرَّقَ أَمْرَنَا، وَسَفَّهَ أَحْلامَنَا وَشَغَلَ بالَنا.

٢٤ ـ أُسْلوبُ النَّاقِمِينَ وَالسِّياسِيِّينَ

وَهُوَ خَطَرٌ عَلَى الدَّوْلَةِ، لا يَخْضَعُ لِنِظَام، وَلَا يَتَقَيَّدُ بِقَانونٍ، ولا يُعَظِّمُ عَظيماً، وَلا يُقَدِّسُ قَديماً، وَهُوَ رَجُلٌ ثَوْرِيٌّ، إِذَا لَمْ يُكَفَّ شَرُّهُ فَإِنَّهُ يَتَفَاقَمُ، ولا تُسْتَصْغَر الشَّرارةُ مَهْما كانَتْ تافِهَةً.

٢٥ ـ مَكْرٌ وَدَهاءٌ

وَكَانَ كَلاماً مَمْلوءاً بِالمَكْرِ والدَّهَاءِ، مَصْبُوغاً بالصِّبْغَةِ السِّيَاسِيَّةِ، وَكانُوا يَعْرِفُونَ أَنَّ الْجَانِبَ الدِّينيَّ لا يُثِيرُ الْحُكَّامَ ولا يُهيجُهُمْ، فَقَدْ كَانَ مِنْ سِياسَتِهِمْ أَنْ لا يَتَدَخَّلُوا في أُمُورِ الْيَهُودِ الدِّينيَّةِ، ولِذَلِكَ خَلَطُوا الْكَلَام بالسِّياسَةِ.

٢٦ ـ مُشْكِلَةٌ

وَكَانَ مِنَ الصَّعْبِ أَنْ يَتَحَقَّقَ الْحُكَّامُ الأَجَانِبُ المشْرِكُونَ حَقيقَةَ الأَمْرِ، وَيَعْرِفُوا أَغْرَاضَ الْيَهُودِ، وَسَبَبَ عِدَائِهِمْ لِلْمَسِيحِ، وَكَانُوا في شُغْلٍ شاغِلٍ عَنْ ذَلِكَ بِالأُمُورِ الإِدَارِيّة، ولكن اشتد إلحاح اليهود، وطال ترددهم إِلَيْهِمْ، فَأَرَادُوا التَّخَلُّص مِنْ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ الَّتِي أَصْبَحَتْ حَديثَ الْبَلَدِ.

٢٧ ـ سَيِّدُنا الْمَسِيحُ في المَحْكَمَةِ

وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بَعْدَ الْعَصْرِ لَيْلَةَ السَّبْتِ،

وَكَانَ اليَهُودَ لا يَعْمَلونَ شَيْئاً يَوْمَ السَّبْتِ، وَكَانَ يَوْمَ عُطْلَةٍ وَكَفٍّ عَنِ الْعَمَلِ، فَكَانُوا حَرِيصينَ كُلَّ الْحِرْصِ عَلَى أَنْ يَصْدُرَ الْحُكْمُ قَبْلَ أَنْ تَغْرُبَ شَمْسُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَيَسْتَرِيحُوا مِنْ أَمْرِ الْمَسيحِ، فَيَنَامُوا هادِئي الْبالِ، وَيُصْبِحوا ناعِمِي الْبَالِ لا يُزْعِجُهُمْ شَيْءٌ.

وَقَدْ ضاقَ الْحَاكِمُ بِالْقَضِيَّةِ ذَرْعاً، وَلَيْسَتْ لَهُ فِيهَا رَغْبَةٌ، ولا لِأُمَّتِهِ فِيها مَصْلَحَةٌ، وَقَدْ احْتَشَدَ الْيَهُودُ لِسَمَاعِ الْحُكْمِ، وَهُمْ بَيْنَ صَائِحٍ وَهَاتِفٍ، وَمُتَنَدِّرٍ وَمُتَهَكِّمٍ، وَالْحَاكِمُ مُتَضَايِقٌ وَالوَقْتُ قَصيرٌ، والشَّمْسُ قَدْ مَالَتْ لِلْغُروبِ، فَأَصْدَرَ الْحُكْمَ عَلَيْهِ بِالْقَتْلِ صَلْباً.

٢٨ ـ القانُونُ الجِنَائِيُّ في ذَلِكَ الْعَصْرِ

وَكَانَ الْقَانُونُ الجِنَائِيُّ في ذَلِكَ الْعَصْرِ يُوجِبُ أَنْ يَحْمِلَ المحكُومُ عَلَيْهِ بالشَّنْقِ صَليبَهُ الَّذِي يُصْلَبُ عَلَيْهِ، وَكَانَ المَشْنَقُ بعيداً كَما هِيَ الْعادةُ في الْبِلادِ الْمُتَمَدِّنَةِ، وَكَانَ الْجَمْعُ حاشداً يَتَسَاقَطُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَكَانَ

رِجالُ الشُّرْطَةِ ـ وَأَكْثَرُهُمْ مِنَ الْأَجَانِبِ ـ مَأْمُورين مُوَظَّفِينَ لا رَغْبَةَ لَهُمْ في هَذِهِ الْقَضِيَّةِ، وَكَانَ الْإِسْرَائِيلِيُّون أَشْباهاً عِنْدَهُمْ يَلْتَبِسُ عَلَيْهِمْ أَمْرُهُمْ، فَلا يُمَيِّزونَ بَيْنَهُمْ، شَأْنُ الْأَجَانِبِ في نَظَرِ الْأَجَانِبِ، وَكانَ الْوَقْتُ مَساءً قد مدَّ الظَّلامُ رِواقَهُ، وَكَانَ بَعْضُ الْيَهُودِ وَالْمُتحمِّسينَ السُّفَهَاءِ مِنَ الشَّبَابِ يَنْهَالونَ عَلَى السَّيِّدِ المسِيحِ، وَيَتَدافَعُونَ عَلَيْهِ، يَسُبُّونَهُ، وَيُعَيِّرونَهُ، وَيُريدونَ إيذاءَهُ وَإِهَانَتَهُ.

٢٩ ـ عِيسى يَتَحَمَّلُ الْأَذَى

وَكَانَ السَّيِّدُ المسيحُ لاغِباً، قَدْ أَضْنَاهُ الْجَهْدُ، وَطُولُ الْوقوفِ في المَحْكَمَةِ وَتَحَمُّل الْأَذَى، وَكَانَ الصَّلِيبُ ثَقِيلاً، وَقَدْ كُلِّفَ حَمْلَهُ، فَكَانَ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُسْرِعَ فِي المَشْيِ.

٣٠ ـ تَدْبِيرٌ إِلَهِيٌّ

وَهُنَا أَمَرَ الشُّرْطِيُّ الموكَّلُ به شاباً إِسْرَائِيلياً بِحَمْلِ الْعُودِ، وَكَانَ أَشَدَّ زُمَلائهِ حَماسَةً وَأَكْبَرَهُمْ سَفَاهَةً،

وَأَحْرَصَهُمْ على إيذاءِ السَّيِّدِ المسيحِ وَمُبَادَرَةً إِلَيْهِ، حَتَّى ينتهي الأَمْرُ سَريعاً، وَيَتَخَلَّصَ مِنْ هَذِهِ المسْؤُولِيَّةِ المرْهِقَةِ.

٣١ ـ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ

وَهَكَذَا وَصَلَ المَوْكِبُ إلى باب المشْنَقِ، فَتَقَدَّمَ شُرْطَةُ المشْنَقِ، وَتَسَلَّمُوا الأَمْرَ مِنَ الشُّرْطَةِ المَدَنِيِّين، وَرَأَوْا الشَّابَّ يَحْمِلُ الصَّليبَ، واخْتَلَطَ الْحابِلُ بالنَّابِلِ، وَكَثُرَ الضَّجيجُ، فَأَخَذُوا بِيَدِ الشَّابِّ الْحَامِلِ للصَّلِيبِ، وَهُمْ لَا يَشُكُّونَ في أَنَّهُ هُوَ الْمَحْكُومُ عَلَيْهِ بالصَّلْبِ، وَهُوَ يَصِيحُ، وَيَضِجُّ، وَيُعْلِنُ بَرَاءَتَهُ وأَنَّهُ لا شَأْنَ لَهُ بالحُكْمِ والصَّلْبِ، وَإِنَّما كُلِّفَ حَمْلَ الْعُودِ سُخْرَةً وَظُلْماً، وَشُرْطَةُ المَشْنَقِ لا يَلْتَفِتُونَ إِلَى ذَلِكَ، ولا يَفْهَمُونَ لُغَتَهُ، لِأَنَّهُمْ مِنَ الرُّومِ والْيُونانِ الْأُمَّةِ الْحَاكِمَةِ.

٣٢ ـ تَنْفِيذُ حُكْمٍ

وَكُلُّ مُجْرِمٍ يَتَنَصَّلُ مِنْ جَرِيمَتِهِ، وَكُلّ مُجْرِمٍ لَهُ صِياحٌ

وَعَوِيلٌ، وَأَخَذُوهُ وَنَفَّذُوا فيهِ الْحُكْمَ، والْيَهُودُ وَاقِفُونَ على بُعْدٍ، والدُّنْيا لَيْلٌ وَظَلامٌ، وَهُمْ يَظُنُّونَ كُلَّ الظَّنِّ أَنَّ المصْلُوبَ هُوَ المسيحُ[1].

٣٣ ـ رَفْعُ عيسى إِلى السَّماءِ

أَمَّا سَيِّدُنَا عِيسى ابْنُ مَرْيَمَ فَقَدْ نَجَّاهُ اللَّهُ تَعالَى مِنْ كَيْدِ الْيَهُودِ وَرَفَعَهُ إِلَيْهِ مُكَرَّماً مُطَهَّراً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا.

٣٤ ـ الْقُرآنُ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْقِصَّةِ

وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالَى وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْيَهُودِ:

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ

(١) استندنا في تفاصيل هذه القصة والملابسات والأجواء التي أحاطت بها إلى الوثائق المسيحية التاريخية والقانونية التي ظهرت ودوّنت في العصر الأخير.

مِن عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾.

وَهُوَ فِي السَّماءِ كَمَا يُرِيدُهُ اللَّهُ تَعالى، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَقَدْ كانَتْ وِلادَتُهُ عَجَباً، وَحَيَاتُهُ، وَأَمْرُهُ... مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ عجَبٌ خارِقٌ لِلْعَادَةِ مُثَبِّتٌ لِلْقُدْرَةِ الْإِلٰهِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ.

٣٥ ـ نُزُولُ عِيسى قَبْلَ الْقِيَامَةِ

وَسَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ حِينَ يُرِيدُهُ اللَّهُ، وَيُقِيمُ الْحُجَّةَ عَلَى مَنْ فَرَّطُوا فِيهِ وَأَفْرَطُوا مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصارَى، وَيَنْصُرُ الْحَقَّ، وَيَكْبُتُ أَهْلَ الْبَاطِلِ، كما أَخْبَرَ بِهِ نَبِيُّنا ﷺ وَوَرَدَتْ بِهِ الْأَخْبارُ الصَّحِيحَةُ، والْأَحادِيثُ الْمُتَواتِرَةُ، واعْتَقَدَهُ الْمُسْلِمُونَ فِي كُلِّ عَصْرٍ، وَصَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ.

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾.

٣٦ ـ بِشارَتُهُ بِبَعْثَةِ سَيِّدُنا مُحَمَّدٍ ﷺ

وَلَمْ يُكْمِلْ سَيِّدُنا المسيحُ مُهِمَّتَهُ في الدَّعْوَةِ لِشِدَّةِ مُحارَبَةِ الْيَهُودِ وَكَيْدِهِمْ لَهُ، وَضَعْفِهِ وَقِلَّةِ أَنْصارِهِ، فَوَدَّعَ النَّاسَ، وامْتَثَلَ أَمْرَ رَبِّهِ، وَبَشَّرَ الناسَ بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِهِ يُكَمِّلُ مَا بَدَأَهُ، وَيُعَمِّمُ ما خَصَّصَهُ، وَبِهِ تَتِمُّ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَى عِبادِهِ، وَتَقُومُ حُجَّتُهُ عَلَى خَلْقِهِ:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾.

٣٧ ـ مِنَ التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ إِلَى عَقِيدَةٍ غامِضَةٍ

وَمِنْ غَرائِبِ تاريخِ الْأَدْيانِ، وَمِمّا تَدْمَعُ لَهُ الْعُيُونُ، وَتَذُوبُ لَهُ الْقُلُوبُ، أَنَّهُ تَحَوَّلَتْ دَعْوَةُ الْمَسِيحِ من التَّوْحِيدِ الْخالِصِ، وَالدِّينِ السَّهْلِ السَّائِغِ، الْبَعِيدِ عَنْ

كُلِّ غُمُوضٍ وَتَعْقِيدٍ، وَتَحْرِيفٍ وَتَأْوِيلٍ بَعِيدٍ، وَالدَّعْوَةِ إلى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، والسُّؤالِ مِنْهُ، وَالالْتِجاءِ إِلَيْهِ، وَحُبِّهِ الْخَالِصِ، إِلَى عَقِيدَةٍ غامضة، وَفَلْسَفَةٍ مُعَقَّدَة، فَغَلا فِيهِ أَتْبَاعُهُ، وَأَطْرَوْهُ إِطْراءً خَرَجَ بِهِ مِنْ حُدودِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى حُدودِ الأُلُوهِيَّةِ، فَقَالُوا: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾. وَقَالُوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ وَقَالُوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ وَجَعَلُوا مِنْ الإِلٰهِ الواحِدِ الصَّمَدِ الَّذي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، أُسْرَةً مُؤَلَّفَةً مِن ثلاثة أَعْضَاءٍ، كُلُّهُم إِلٰهٌ، فَقَالُوا: الأَبُ والابْنُ وَرُوحُ الْقُدُسِ، وَاعْتَقَدُوا في مَرْيَمَ أُمِّ المسيح وَعَامَلُوها بِمَا يَبْلُغُ بها إلى دَرَجَةِ التَّقْدِيسِ وَالْعِبادَةِ، فَقَالُوا: «أُمُّ اللَّهِ» وَشَاعَتْ لَهَا تَمَاثِيلُ وَصُوَرٌ فِي الْكَنائِسِ، يَخْضَعُ لَهَا النَّصَارَى بِاللُّجُوءِ والدُّعَاءِ، والنَّذْرِ وَالانْحِناءِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالى مُنْكِراً ما اعْتَقَدُوهُ، مُسْتَبْشِعاً ما فَعَلُوهُ.

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ

كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾.

٣٨ ـ عِيسى يَدْعُو إلَى عِبادَةِ اللّه وَحْدَهُ

وَقَدْ دَعَا كَغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، فَجَاءَ مِنْ قَوْلِهِ فِي الْإِنْجِيلِ:

«مَكْتوبٌ لِلرَّبِّ إِلٰهَكَ تَسْجُدُ، وَلَهُ وَحْدَهُ تَعْبُدُ» (مَتَّى ٤ : ١٠) وَقَوْلُهُ: «مَكْتُوبٌ لِلرَّبِّ إِلٰهَكَ تَسْجُدُ وَلَهُ وَحْدَهُ تَعْبُدُ» (لوقا ٤ : ٨).

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

٣٩ ـ الْقُرْآنُ يُصَرِّحُ بِدَعْوَةِ عِيسى

وَقَدْ نَقَلَ الْقُرْآنُ ـ وَهُوَ الْكِتَابُ الْمُصَدِّقُ لما بَيْنَ يَدَيْهِ وَالْمهَيْمِنُ عَلَيْهِ ـ مِنْ إِعلانِ سَيِّدُنَا عِيسى بِالتَّوْحِيدِ الْخَالِصِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، في أُسْلوبٍ صَريحٍ واضِحٍ لا مَزيدَ عَلَيْهِ.

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

٤٠ ـ مَنْزِلَةُ التَّوْحِيدِ في دَعْوَتِهِ

وَقَالَ في أُسْلوبٍ جَميلٍ بَليغٍ يَتَذَوَّقُهُ كُلُّ مَنْ عَرَفَ مَنْزِلَةَ التَّوْحِيدِ وَسِيرَةَ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وما طُبِعُوا عَلَيْهِ مِنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ والخُضُوعِ لَهُ، والرَّهْبَةِ مِنْهُ:

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ

فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾.

٤١ ـ مَشْهَدٌ رَائِعٌ مِنْ مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ

وَقَدْ صَوَّرَ الْقُرآنُ في بَلاغَتِهِ وَإِعْجَازِهِ مَشْهَداً مِنْ مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ الرَّائِعَةِ يَتَبَرَّأُ فِيهِ سَيِّدُنا عِيسى عَمَّا تَقَوَّلَهُ النَّاسُ فِيهِ، وَعَامَلُوهُ بِهِ، وَيُوَضِّحُ دَعْوَتَهُ في قُوَّةٍ وَصِدْقٍ، ويُدينُ في هَذِهِ الْقَضِيَّةِ الْغُلاةَ مِنْ أُمَّتِهِ، وَأَنَّهُمْ هُمُ المسْؤُولُونَ وَحْدَهُمْ عَنْ هذِهِ الْجَرِيمَةِ، اقْرَؤوا الْقُرْآنَ، واسْتَشْعِروا جَلالَ المَوْقِفِ وَرَوْعَةَ المشْهَدِ:

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ

إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

٤٢ ـ مِنْ عَقِيدةٍ غامِضَةٍ إِلَى وَثَنِيَّةٍ سافِرَةٍ

وانْتَقَلَ دُعَاةُ الْمَسيحيَّةِ إِلى أُورْبا بدافِعٍ مِنْ عِنْدِهِمْ[١] وَقَدْ شَاعَتْ فيها الْوَثَنِيَّةُ السَّافِرَةُ مِنْ زَمانٍ، وَغاصَتْ فِيها إِلى الْأَذْقَانِ، فَكَانَ اليونانُ وَثَنِيِّين، وَقَدْ تَصَوَّروا صِفاتِ اللَّهِ في شَكْلِ آلِهَةٍ شَتّى، نَحتُوا لَهَا تَماثِيلَ،

(١) لأن المسيح لم يأمرهم بذلك، وقد صَرَّحَ بأنه أرسل لخراف إسرائيل الضالة.

وَبَنَوْا لَهَا مَعَابِدَ وَهَيَاكِلَ، فَلِلرِّزْقِ إِلَهٌ، ولِلرَّحْمَةِ إِلٰهٌ، وَلِلْقَهْرِ إِلٰهٌ، وَكَانَتْ رُومْية عَرِيقةً في الْوَثَنِيَّةِ وَالتَّمَسُّكِ بِالْخُرَافَاتِ، وَقَدْ امْتَزَجَتْ الوَثَنِيَّةُ بِلَحْمِهَا وَدَمِهَا، وَجَرَتْ مِنْهَا مَجْرَى الرُّوحِ والدَّمِ.

وَكَانَ الرُومانُ يَعْبُدُونَ آلِهَةً شَتّى، فَلَمّا وَصَلَتْ إِلَيْهِمْ النَّصْرَانِيَّةُ، وَتَنَصَّر قَسْطَنْطِينُ الكَبِيرُ سنة ٣٠٦ واحْتَضَنَ الدِّينَ الجَدِيدَ، وَتَبَنَّاهُ وَجَعَلَهُ دِينَ الدَّوْلَةِ الرَّسْمِيَّ، بَدَأَتْ النَّصْرَانِيَّةُ تَأْخُذُ الشَّيْءَ الكَثِيرَ مِنَ الْعَقَائِدِ الْوَثَنِيَّةِ وَالتَّقَالِيدِ الرُّومِيَّةِ، والْفَلْسَفَةِ اليونَانِيَّةِ، وَتَدْنُوا إِلَيْهَا رُوَيْداً رُوَيْداً، وَصَارَتْ تَفْقِدُ أَصَالَتَهَا النَّبَوِيَّةِ، وَبَسَاطَتها الشَّرْقِيَّةِ، وَحَماساتِها التَّوْحِيديَّة، وَدَخلَ فيها بَعْضُ الْمُنافِقِينَ، فَطَعَّموها بِعَقائِدِهِمُ الْقَدِيمَةِ، وَذَوْقِهِمُ الوَثَنِيِّ، وَنَشَأَ مِنْ ذَلِكَ دِينٌ جَدِيدٌ، تَتَجَلَّى فِيهِ النَّصْرَانِيَّةُ وَالْوَثَنِيَّةُ سَواءً بِسَواءٍ.

وَكَذَلِكَ سارَتِ النَّصْرَانِيَّةُ الزَّاحِفَةُ الفاتِحْةُ عَلَى دَرْبٍ غَيْرِ الدَّرْبِ الَّذي سَلكَ المسِيحُ بِها عَلَيْهِ، وَدَعَا إِلَيْهِ،

وَكَانَتْ كَسالِكِ طَرِيقٍ يَضِلُّ عَنِ الطَّرِيقِ ـ عَنْ قَصْدٍ أَوْ عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ ـ في ظَلامِ اللَّيْلِ فَيُوَاصِلُ سَيْرَهُ عَلَى طَرِيقٍ لا يَلْتَقي بالطَّرِيقِ الأَوَّل إِلَى الأَخِيرِ.

وَلِهَذِهِ الْحِكْمَةِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي لا يَعْرِفُها إلَّا مَنْ قَرَأَ تاريخَ هَذِهِ الدِّيانَةِ، وَصَفَهُمْ اللَّهُ بالضَّلالِ حينَ وَصَفَ اليهودَ بالمغضوبِيَّة، فَقَالَ عَلَى لِسانِ المسْلِمينَ:

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

وَكَانَتْ في ذلك مأساةٌ لأُوروبّا، وَمأْسَاةٌ لِلْإِنْسَانِيَّةِ الَّتي قادَتْهَا أُوروبّا زَمناً طَويلاً، وَلا تَزالُ مُسَيْطِرَةً عَلَيْهَا وَمُتَحَكِّمَةً فِيها. ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
١٠ ـ حِكْمَةُ يُوسُفَ	٣٨
١١ ـ مَوْعِظَةُ التَّوْحِيدِ	٣٩
١٢ ـ تَأْوِيلُ الرُّؤْيا	٤١
١٣ ـ رُؤْيا المَلِك	٤٢
١٤ ـ المَلِكُ يُرْسِلُ إِلَى يُوسُفَ	٤٣
١٥ ـ يوسُفُ يَسْأَلُ التَّفْتِيشَ	٤٤
١٦ ـ عَلَى خَزائِنِ الأَرْضِ .	٤٥
١٧ ـ جَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ...	٤٧
١٨ ـ بَيْنَ يوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ..	٤٩
١٩ ـ بَيْنَ يَعْقُوبَ وَأَبْنائِهِ ..	٥٠
٢٠ ـ بِنْيامِينُ عِنْدَ يُوسُفَ ..	٥١
٢١ ـ إِلَى يَعْقُوبَ	٥٤
٢٢ ـ يَظْهَرُ السِّرُّ	٥٦
٢٣ ـ يوسُفُ يُرْسِلُ إِلَى يَعْقُوبَ	٥٨
٢٤ ـ يَعْقُوبُ عِنْدَ يوسُفَ .	٥٩
٢٥ ـ حُسْنُ العاقِبَةِ	٦٠
سَفِينَةُ نُوحٍ	٦١

الموضوع	الصفحة
١ ـ بَعْدَ آدَمَ	٦٢
٢ ـ حَسَدُ الشَّيْطانِ	٦٣
٣ ـ فِكْرَةُ الشَّيْطانِ	٦٣
٤ ـ حِيلَةُ الشَّيْطانِ	٦٤
٥ ـ صُوَرُ الصَّالِحِينَ	٦٥
٦ ـ مِنَ الصُّوَرِ إِلَى التَّماثِيلِ	٦٦
٧ ـ مِنَ التَّماثِيلِ إِلَى الأَصْنَامِ	٦٦
٨ ـ غَضَبُ اللّهِ	٦٧
٩ ـ الرَّسولُ	٦٨
١٠ ـ بَشَرٌ أَمْ مَلَكٌ	٦٩
١١ ـ نُوحٌ الرَّسُولُ	٧٠
١٢ ـ ماذا أجابَهُ الْقَوْمُ؟ ..	٧١
١٣ ـ بَيْنَ نُوحٍ وَقَوْمِهِ	٧٢
١٤ ـ اتَّبَعَكَ الأَرْذَلونَ	٧٣
١٥ ـ حُجَّةُ الأَغْنِياءِ	٧٤
١٦ ـ دَعْوَةُ نُوحٍ	٧٥
١٧ ـ دعاء نوح	٧٧
١٨ ـ السَّفِينَةُ	٧٨
١٩ ـ الطُّوفانُ	٧٩

الموضوع	الصفحة